ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

فصليّة تُعنى بنقد
الرؤى الغربية في
الإنسان والمجتمع

السنة الثانية - العدد (٥) خريف ٢٠٢٤ م ١٤٤٦ هـ

الصهيونيَّةُ
في مواجَهةِ الإنْسَانيَّة

أوّل الكلام
- الكِيَانُ المَارِقُ، الغَرْبُ المُتَصَهيّن وَالشَّيطَانُ الأَخْرَسُ

المحور
- الجُذورُ التوراتيّةُ والتَّلْموديّة لإشكاليّة العَلاقة مَعِ الآخَر في الفِكرِ الصهيونيّ
- عَقيدةُ الإبادةِ في التَفكيرِ الصهيونيَ وانعكاسِها على الحَربِ في غزة ولبنان
- الإزدواجيّة الغربيّة في نظريّة حقوق الإنسان والتماهي مع السّياسة الصهيونيّة
- العَقْلُ الأداتيّ وغيابُ الأخلاقيّة: الإرْهابُ الصَهْيونيّ ونظريّةُ التفوّق العرقيّ في الغرب
- الصُّهيُونيَّةُ المُستَتِرَةُ بـ «الوَاقِعيَّة السّيَاسِيَّة» في الخِطَابِ الإعلَامي العَرَبيّ

تأصيل
- جَولَةٌ مَعرفِيَّةٌ لِمَبَاني الاعتدَالِ في الحَاكِميَّةِ الإسلَاميَّةِ مِنْ وِجهَةِ نَظَرِ القُرآنِ وَالحَديثِ

دراسات وبحوث
- النَّزعة النّسبية في القيَم، ودورُها في مواقف العقل الغربيّ الكولونَيالي من الآخَر

قراءة في كتاب
- «الصهيونية، الغرب والمُقدَّس والسِّياسة» لعبد الكريم الحسيني

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

الصهيونيّة في مواجهة الإنسانيّة

السنة الثانية – العدد (٥): خريف ٢٠٢٤م – ١٤٤٦هـ

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

أُمم
للدراسات الإنسانية والاجتماعية

تصدر عن:

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

مجلة علمية فصلية تُعنى بنقد الرؤى الغربية في الإنسان والمجتمع

www.barathacenter.com
www.oumam.barathacenter.com
Oumam.magazine@gmail.com

التّابع لجمعيّة براثا الثقافيّة المرخّصة في لبنان بموجب علم وخبر رقم: ٥١٦

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

(الأعراف:١٦٨)

رسالة المجلة

مواجهة التحديات الفكرية التي يفرضها الغرب وغيره على مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وذلك من خلال:

- تفنيد "الشبهات والأفكار المستوردة" بطريقة أكاديمية علمية ومنهجية، وإظهار معاثرها وعيوبها، ونقد جذورها وسياقاتها.
- الكشف عن الدوافع السياسية والاقتصادية والاستعمارية التي تقف خلف محاولة الهيمنة الثقافية على مجتمعاتنا.
- تقديم إحصاءات علمية من داخل المجتمعات الغربية، ترصد النتائج التدميرية للثقافة المادية العلمانية على المجتمعات.
- تقديم رؤى أصيلة وبديلة عن النظريات الغربية من منطلق انساني عالمي، يتناسب ومقتضيات الفطرة البشرية، ويتأسس على الرؤية الكونية الميتافيزيقية للاجتماع البشري.

■ المشاركون في العدد:

● د. محمد محمود مرتضى (لبنان) ● أ.د. أنور محمود زناتي (مصر) ● د. رحمن عبد الحسين ظاهر (العراق) ● د. محمود كيشانه (مصر) ● د. أسماء عبد العزيز (مصر) ● أ. م. د. مهدي رستم نجادكله (إيران) ● أ. م. د. محمد شبديني باشاكي (إيران) ● أ. علي كريمي خوشحال (إيران) ● د. موسى معيرش (الجزائر) ● نبيل علي صالح (سوريا) ● لينا السقر (سوريا) ● منير زهير نصولي (لبنان) ● علي ملّي (لبنان)

مجلة «أمم للدراسات الإنسانية والاجتماعية»، مجلة علمية فصلية، تصدر كل ثلاثة أشــهر عن «مركز براثا للدراسات والبحوث». وتُعنى المجلة بنقد الرؤى الغربية في الإنســان والمجتمــع في مختلف المجالات والتحديات المعاصرة؛ في الفلســفة، والتاريخ، والاجتماع، والانثروبولوجيا، وتأصيلها من منطلق عقلاني ينســجم ومقتضيات الفطرة البشرية ومع الرؤية الكونية الميتافيزيقية الأصيلة للإجتماع البشري.

ترحب المجلة بمســاهمات الكتـــاب والباحثيـــن في المجالات المتعلقة باهتمامات المجلــة العلمية، ويمكـــن للراغبين مراســلة المجلة على العنوان التالي: مركز براثـــا للدراســات والبحوث - مجلة أمم: بيروت، بغداد.

في العدد المقبل:

العنصريّة

الإرثُ البارزُ في الهويّةِ الغربيّةِ

موقع المركز:
www.barathacenter.com

موقع المجلة:
oumam.barathacenter.com

بريد المجلة:
Oumam.magazine@gmail.com

رئيس التحرير: 009613821638

مدير التحرير: 0096176949904

■ الهيئة العلمية:

● أ.د. حافظ عبد الرحيم. (علم اجتماع سياسي واقتصادي- جامعة قابس- تونس)
● أ.د. حسن بشير. (علم اجتماع التواصل الدولي والثقافي-جامعة الامام الصادق(ع)- ايران).
● أ.د. بن شرقي بن مزيان. (فلسفة-جامعة وهران(٢)- الجزائر).
● أ.د. حيدر حسن اليعقوبي.)علم نفس تربوي-جامعة الكوفة- العراق)
● أ.د. خنجر حميّة. (فلسفة غربيّة معاصرة- الجامعة اللبنانيّة- لبنان)
● أ.د. طالب عمران. (منطويات تفاضلية وفلك- جامعة دمشق- سورية).
● أ.د. عقيل صادق. (فلسفة-جامعة البصرة- العراق).
● أ.د. محسن صالح. (فلسفة-الجامعة اللبنانية-لبنان).
● أ.د. محمد شعلان الطيار. (علم آثار- جامعة دمشق- سورية).
● أ.د. معمر الهوارنة. (علم نفس- جامعة دمشق- كلية التربية-سورية).
● أ.د. ياسر مصطفى عبد الوهاب. (تاريخ عصور وسطى- جامعة كفر الشيخ- مصر).
● أ.د. يوسف طباجة. (علم اجتماع- الجامعة اللبنانية- لبنان).

■ هيئة التحرير:

● أ.د هنى الجزر. (فلسفة-جامعة دمشق-سورية).
● أ.د. سعد علي زاير. (فلسفة تربية ومناهج اللغة العربية-العراق).
● أ.د. عادل الوشاني (علم اجتماع الثقافة والاتصال- جامعة قابس-تونس).
● أ.مشارك. د نعمة حسن البكر. (تاريخ حديث ومعاصر-جامعة عين شمس-مصر).
● د. علي الحاج حسن. (فلسفة اسلامية-لبنان).
● الشيخ د. محمد نمر. (مناهج تربوية- لبنان).

المشرف العام:
الشيخ جلال الدين علي الصغير
(العراق)

رئيس التحرير:
د. محمد محمود مرتضى
(جامعة المعارف-لبنان)

مدير التحرير:
الشيخ د. محمد باقر كجك
(جامعة المعارف-لبنان)

المدير المسؤول:
أ. آية بيضون (لبنان)

المدير الفني:
أ. خالد معماري (سورية)

التدقيق اللغوي:
د. محمود الحسن (سورية)

ترجمة:
لينا السقر (**انكليزي**)
(إجازة في الترجمة الانكليزية-جامعة دمشق-سورية)
الشيخ محمود عمار (**فارسي**)
(إيران)

قواعـــد النشـــر في مجلّـــة "أُمم"

شروط النشر في المجلّة

- البحوث والدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- عند قبول البحث يتعهد المؤلف بنقل حقوق ملكية البحث إلى المجلة، وعدم نشره في أية مجلة أخرى إلا بعد أخذ موافقة خطية من إدارة المجلة، ويكون من حق المجلة نشر البحث في كتاب جماعي؛ وفي حال أراد الباحث نشر بحثه في أي وسيلة نشر ورقية أو الكترونية، فيجب عليه أخذ موافقة خطية مسبقة من إدارة المجلة.
- تلتزم المجلة بإعلام المؤلف بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل، أو وفق تعديلات معينة بناءً على ما يرد من ملاحظات المقوّمين، أو الاعتذار عن عدم النشر في غضون مدة لا تتجاوز (٣٠) يوماً، إلّا في حال الاستكتاب المبكر، لكن يتم إعلام المؤلف بذلك.
- في مسألة رفض البحث فمن حق المجلة إعلام المؤلف بأسباب الرفض أو عدم إعلامه بذلك.
- ترتيب البحوث (المقالات) في داخل المجلة يخضع لأغراض فنيّة، ولا علاقة له بمكانة المؤلف (الباحث) وشهرته.
- تدفع المجلة مكافأة مالية لكل بحث يُنشر في المجلة، وتُعلِم المؤلف بقيمتها أو طريقة احتسابها مسبّقاً.
- المراسلات ترسل بإسم رئيس التحرير: الدكتور محمد مرتضى على العناوين التالية:

رقم الهاتف: ٠٠٩٦١٣٨٢١٦٣٨ أو على البريد الإلكتروني:
oumam.magazine@gmail.com

أخلاقيات النشر

- تلتزم إدارة المجلة بالحفاظ على حقوق الملكية الفكرية للمؤلفين.
- تلتزم إدارة المجلة بمراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العِرق أو الجنس، بل الالتزام بقواعد التفكير العلمي ومناهجه، ولغته في عرض وتقديم الأفكار والاتجاهات والموضوعات ومناقشتها أو تحليلها.
- تلتزم إدارة المجلة بعدم الإفصاح عن أسماء المقوّمين (المُحكمين) للمؤلفين، كذلك تلتزم في الوقت نفسه بعدم الإفصاح عن أسماء المؤلفين للمقوّمين ويبقى هذا الأمر على نحو سري عند رئيس ومدير التحرير فقط.
- احترام حقوق الملكية الفكرية للبحوث المترجمة.
- يُشترط أن يكون البحث متوافقاً مع معايير الأمانة العلمية وأخلاقيات البحث العلمي.
- يشترط ألّا يكون البحث المرسل للنشر في المجلة منشوراً سابقاً في مجلة أو في كتاب، أو مستلاً من رسالة أو أطروحة، وألّا يكون تم تقديمه للنشر إلى مجلة أخرى.

دليل المقوّمين

- **إن المهمة الرئيسة للمقوّم العلمي للبحوث المرسلة للنشر، هي أن يقرأ البحث الذي يقع ضمن تخصصه العلمي بعناية فائقة، وتقويمه وفق رؤية ومنظور علمي وأكاديمي لا يخضع لأية أهواء شخصية، ويقوم بتثبيت ملاحظاته البناءة والصادقة بشأن البحث المرسل إليه.**
- **قبل البدء بعملية التقويم يتأكد المقوّم إذا ما كان البحث المرسل إليه يقع ضمن تخصصه العلمي أم لا، فإن كان البحث ضمن تخصصه العلمي فعليه تقدير كونه يمتلك الوقت الكافي لإتمام عملية التقويم؛ ذلك أنَّ عملية التقويم يجب أن لا تتجاوز (١٥) يوماً.**
- **بعد موافقة المقوّم على إجراء عملية التقويم وإتمامها في المدة المحددة يلتزم بإجراء عملية التقويم على وفق المحددات الآتية:**
  - **أ. تحديد درجة الأمانة العلمية للبحث.**
  - **ب. تحديد درجة مطابقة عنوان البحث لمحتواه.**
  - **ت. تحديد درجة وضوح ملخص البحث.**

ث. تحديد درجة إيضاح مقدمة البحث لفكرة البحث.
ج. تحديد درجة تناسب العناوين الفرعية وترابطها.
ح. تحديد درجة المستوى العلمي للبحث.
خ. تحديد درجة المستوى اللغوي والأدبي.
د. تحديد درجة قيمة المصادر ودقة الاعتماد عليها.
ذ. تحديد درجة أهمية البحث وأصالته من حيث الآلية والنتائج.
ر. تحديد درجة حجم البحث.
ز. تحديد درجة صلاحية البحث للنشر.
س. يحدد المقوّم بشكل دقيق الفقرات التي تحتاج إلى تعديل من المؤلف.

- يحدد المقوّم أسباب الرفض في حال قرر عدم صلاحية البحث للنشر.
- تجري عملية التقويم على نحو سري.
- يتم تبليغ رئيس التحرير في حال أراد المقوّم الأول مناقشة البحث مع المقوّم الثاني.
- ترسل ملاحظات المقوّم العلمي إلى رئيس التحرير لإرسالها إلى المؤلف في حال وجود ملاحظات على البحث؛ لكي يأخذ المؤلف بها للموافقة على النشر، من دون أن يعرف المقوّم من هو المؤلف، ولا أن يعرف المؤلف من هو المقوّم.
- تعتمد ملاحظات المقوّمين وتوصياتهم في قرار اعتماد نشر البحث من عدمه.

دليل المؤلفين

- يجب أن يكون البحث جديداً في طرحه، ولم يسبق لأحد أن تناول الموضوع بالآلية نفسها ووصل إلى النتائج نفسها، وأن يتسم بالعمق والتحليل والنقد.
- يجب أن تكون لغة البحث خالية من الأخطاء اللغوية والطباعية، وأن تراعى في كتابتها علامات الترقيم.
- المعلومات الواردة في البحث يجب أن تكون موثقة من خلال المصادر والمراجع العلمية الدقيقة.
- على المؤلف مراعاة أن تكون عدد كلمات بحثه تتراوح ما بين (٤٥٠٠) إلى (٥٥٠٠) كلمة.

- سيتم استعمال برنامج فحص نسبة الاستلال (Plagiarism Check X).
- سيعرض البحث على برنامج الاستلال قبل تحويله للتقويم، وسيرفض البحث إذا تجاوزت نسبة الاستلال النسبة المقبولة عالمياً (٢٥٪).
- في تسجيل الهوامش المرتبطة بالحواشي المرجعية، فإن الكاتب سيستعمل نظام (شيكاغو المعدل)، ويُدرج الهوامش في أسفل الصفحة (Footnote) عبر الادراج التلقائي.
- مثال على نظام شيكاغو المعدّل:
  - في حال التوثيق من كتاب: اسم المؤلف: عنوان الكتاب، ذكر الجزء أو المجلد، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من مجلة: اسم كاتب البحث أو المقال: عنوان البحث، اسم المجلة، العدد، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من كتاب جماعي: اسم كاتب مع عبارة وآخرون: عنوان الكتاب أو البحث، رقم الصفحة.
  - في حال التوثيق من رسالة أو أطروحة: اسم الباحث: عنوان الرسالة أو الأطروحة، الجامعة والكلية، رقم الصفحة.
  - توثّق الآيات في المتن عقب النص القرآني مباشرة بذكر السورة متبوعة بنقطتين، ثم رقم الآية داخل حاصرتين، هكذا: [الإنسان: ٢٥].
  - الآيات القرآنية تُدرج محرّكة وفق التشكيل القرآني، وتوضع بيم مقوسين خاصين، هكذا: ﴿بِسْمِ اللَّـهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾
  - ملاحظة: ما تم ذكره في أعلاه من مصادر إن كانت إلكترونية فيتم إدراج الرابط بعد رقم الصفحة في الأسفل.
- يُدرج في نهاية البحث ثبت بالمصادر والمراجع، وفق ما ذكرنا أعلاه مع اضافة باقي التفاصيل المرتبطة به: دار النشر، مكان النشر، تاريخ النشر، رقم الطبعة.
- يستعمل الكاتب في بحثه باللغة العربية خط (simplified Arabic) بحجم (١٤) في المتن، ونفس الخط بحجم (١٢) في الهامش.

- أما باللغة الإنجليزية فيستعمل (Times New Roman) بحجم (١٤) في المتن، وبحجم (١٢) في الهامش.
- يكتب في الصفحة الأولى الآتي:
  - عنوان البحث باللغة العربية.
  - اسم المؤلف باللغة العربية (اذا كان عربيا)، مع ادراج حاشية سفلية يذكر فيها: جنسيته، توصيفه العلمي، الدرجة العلمية والشهادة، وجهة الانتساب (الجامعة، الكلية)، أو (المؤسسة البحثية).
  - ملخص للبحث باللغة العربية على أن لا يتجاوز الملخص الواحد (١٠٠) كلمة.
  - الكلمات المفتاحية على أن لا تتجاوز (٧) كلمات.
  - تقوم المجلة بإجراء ترجمة الملخصات الى اللغات التي تراها مناسبة.

تعهد حقوق الملكية

أنا الموقع أدناه المؤلف (الباحث): .....

صاحب البحث الموسوم بـ: .....

.....

أتعهد بنقل حقوق الطبع والنشر والتوزيع إلى مجلة (أمم) ومركز براثا للدراسات والبحوث.

التاريخ:

التوقيع:

تعهد الملكية الفكرية

أنا الموقع أدناه المؤلف (الباحث): .....

صاحب البحث الموسوم بـ: .....

.....

أتعهد بأن البحث الذي أنجزته لم يتم نشره أو تقديمه للنشر إلى مجلة أخرى، سواء أكانت داخل لبنان أو العراق أو أي دولة أخرى، وأرغب بنشره في مجلة (أمم).

التاريخ:

التوقيع:

المحتويات

أوّل الكلام

١٥ الكِيَانُ المَارِقُ، الغَرْبُ المُتَصَهيّن وَالشَّيطَانُ الأَخْرَسُ ■ رئيس التحرير

المحور

٢٧ الجُذُورُ التَّوراتيَّةُ والتَّلمُوديَّةُ لإشكَاليَّةِ «الآخَر» فِيْ الفِكْرِ الصُّهيُونِيّ ■ د. محمد محمود مرتضى

٦٣ عقيدةُ الإبادة الصّهيونية: بينَ جذور الفِكر وانعكاساتِ التَّطبيق في غزة ولبنان ■ أ.د. أنور محمود زناتي

٩٣ الازدواجيّة الغربية في نظرية حقوق الإنسان والتَّماهي مع السِّياسة الصهيونيّة ■ د. رحمن عبد الحسين ظاهر

١١١ العَقْلُ الأَدَاتيُّ:من الدُّونيَّة الأَخلاَقيَّة إِلىَ الإِرهَابِ الصُّهيُونيّ وَأُكذُوبَةِ التَّفَوُّقِ العِرقِيّ ■ د. محمود كيشانه

١٣٣ الصُّهيُونيَّةُ المُستَترَةُ بـ"الوَاقعيَّة السّيَاسِيَّة" فِي الخِطَابِ الإِعلاَمِي العَرَبِيّ ■ د. أسماء عبد العزيز

تأصيل

جَولَةٌ مَعرفِيَّةٌ لمَبَاني الاعتدَال في الحَاكميَّة الإسلَاميَّة مِنْ وجهَة نَظَر القُرآن وَالحَديث ■ ١٥٥

أ. م. د. مهدي رستم نجادكله
أ. م. د. محمد شبديني باشاكي
أ. علي كريمي خوشحال
ترجمة: الشيخ محمود عمار

دراسات وبحوث

النَّزعة النّسبية في القيَم، ودورُها في مواقف العقل الغربيّ الكولونيالي من الآخَر ■ ١٨١

د. موسى معيرش

قراءة في كتاب

"الصّهْيُونِيّة غَير اليهوديّة» ■ ١٩٧

قراءة: نبيل علي صالح

"الصهيونية، الغرب والمُقدَّس والسِّياسة" ■ ٢١١

قراءة: لينا السقر

الصّهيونيّة والحضارة الغربيَّة ■ ٢٢٧

قراءة: منير زهير نصولي
علي ملي

الكِيَانُ المَارِقُ، الغَرْبُ المُتَصَهيّن وَالشَّيطَانُ الأَخْرَسُ

رئيس التحرير
■ د. محمد محمود مرتضى

مُنذ نشأتِها، شكَّلت الصُّهيونيَّةُ أحدَ أكثر المشاريع الاستعمارية إثارةً للجدل في العصر الحديث، حيثُ اعتمدت على مَزيجٍ من الأساطير الدينيَّةِ والأيديولوجيات القوميةِ والاستعماريَّةِ لتبرير سيطرتها على فلسطين. وعلى الرَّغم من محاولاتها المستمرة لتقديم نفسها كحركةِ تحررٍ قوميّ لليهود، إلَّا أنَّ واقعَها يكشف أنَّها حركةٌ استيطانيَّةٌ إحلاليَّةٌ، قامت على تهجير السُّكان الأصليين وإحلال المستوطنين مكانهم، تمامًا كما فعلت القُوى الاستعماريَّةُ في القرنين التاسع عشر والعشرين.

اليوم، ومع تصاعُد الوعي العالمي حول جرائم الاحتلالِ "الإسرائيلي"، أصبح من الضروريّ إعادة فحص الجذور الأيديولوجية للصُّهيونيَّة، وفَهم كيف تم التلاعب بالنُّصوص الدينيَّة اليهوديَّة لإضفاء شرعية على مشروعٍ استعماري عُنصري. كما أنَّ تحليلَ العلاقةِ بين الصُّهيونية والفِكر الغربيّ المعاصر يُساعد على كشف التَّحالفاتِ السياسيَّةِ والفِكريةِ التي دعمت هذا المشروع على حساب الحقوق الفلسطينيَّةِ.

الصُّهيُونِيَّةُ بَينَ الأُسطُورَةِ وَالوَاقِع

لَطالَمَا حاولت الدعايَّةُ الصُّهيونيةُ ترسيخَ عِدَّةِ مفاهيمَ زائفةٍ حول مشروعها، كان أبرزها:

«إسرائيل دولة صغيرة مهددة»، في حين أنَّها قوةٌ نوويَّةٌ إقليميَّةٌ مدعومةٌ من الغرب.

«إسرائيل واحة الديمقراطيَّة في الشرق الأوسط»، بينما هي في الحقيقةِ نظامُ فصلٍ عُنصري (أبارتهايد) يُمارس التَّمييز العِرقي ضِدَّ الفلسطينيين والعرب.

«إسرائيل نشأت نتيجة الهولوكوست»، رغم أنَّ المشروعَ الصُّهيوني كان قائمًا قبلَ الهولوكوست بوقت طويل، وكان جزءًا من الاستعمار الأوروبي لفلسطين.

إنَّ هذه الأكاذيبَ لم تكن مجردَ دعايَّةٍ سياسيَّةٍ، بل أُنتجت ثقافيًّا وفِكريًّا داخل دوائر الفِكر

الغربي والصُّهيوني، وهو ما سمح "لإسرائيل" بالحصول على دعمٍ غير مشروطٍ من القُوى الكُبرى، والاستمرار في ممارساتها العُدوانيَّة دون مساءلةٍ دوليَّةٍ.

الصُّهيُونيَّةُ في سيَاقِهَا الاستعمَاريّ

عند النَّظر إلى الصُّهيُونيَّة في سياقها التَّاريخي، نجد أنَّها ليست حركةً يهوديَّةً بقدر ما هي مشروع استعماري غربي، تمَّ زَرعه في فلسطين لخِدمة المصالح الأوروبيَّة والأمريكيَّة. فقد دعمت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الصهيونية ليس حبًّا لليهود، بل لأنَّها وسيلةٌ لإحكام السَّيطرةِ على الشَّرقِ الأوسط وتقسيمه بما يخدم المصالحَ الغربيَّة.

كما أنَّ الصُّهيونيَّةُ ليست سوى نَموذج جديدٍ من الاستعمار الإحلالي الذي شهدناه في:

الولايات المُتحدَة: إبادةُ السُّكان الأصليين وإحلال المستوطنين الأوروبيين مكانهم.

جنوبُ إفريقيا: إنشاءُ نظامِ فصلٍ عُنصري يمنحُ حقوقًا مُطلَقة للمستوطنين الأوروبيين ويَحرم السُّكانَ الأصليين منها.

الجزائرُ تحت الاستعمار الفرنسي: محاولةُ طمسِ الهُويَّةِ الوطنيَّةِ للسُّكان الأصليين واستبدالهم بالمستوطنين الفرنسيين.

إنَّ الصُّهيونيَّةَ ليست استثناءً من هذه المشاريع الاستعمارية، بل هي امتدادٌ لها في العصر الحديث، وهو ما يفسر استمرارَ الدعمِ الغربي لها رغم انتهاكاتها الواضحةِ للقوانين الدوليةِ.

نَحوَ تَفكيك الخطَاب الصُّهيُونيّ

إنَّ تَفكيكَ الأَساطير الصُّهيونيَّة ليس مجردَ مسألةٍ فكريَّةٍ أو أكاديميَّةٍ، بل هو ضرورةٌ سياسيَّةٌ وأخلاقيَّةٌ لمواجهةِ الاحتلال «الإسرائيلي» وإنهاءِ مُعاناةِ الفلسطينيين. فلا يُمكن لأيّ نظامٍ عُنصريّ أو استعماري أنَّ يستمرَّ إلى الأبدِ، كما أثبتت التجاربُ السَّابقةُ، بدءًا من سقوط الأبارتهايد في جنوبِ إفريقيا، وحتى إنهاء الاستعمار الفرنسي في الجزائر.

الصُّهيُونيَّةُ وَالجُذُورُ التَّورَاتيَّةُ وَالتَّلمُوديَّةُ: الأُسطُورَةُ المؤَسِّسَةُ

لَطالما حاولت الصُّهيونية تقديمَ نفسِها كحركةٍ قوميَّةٍ حديثةٍ تهدف إلى «عودة الشعب اليهودي

إلى أرضــه التاريخية»، غير أنَّ هذا الادعاءَ يرتكــز على تأويلاتٍ دينيَّةٍ منحــازةٍ للنُّصوص التَّوراتيَّةِ والتَّلموديــة. فمنذ ظهورها، أعــادت الصُّهيونية قراءةَ التَّوراةِ والتَّلمودِ بطريقةٍ انتقائيَّة، مســتندة إلى مفاهيم مثل «الشعب المختار» و«أرض الميعاد»، لتبرير الاستيطان وتهجير الفلسطينيين، وإضفاء طابع قُدسي على مشروعها الاستعماري.

لقد شكَّلت هذه النصوص الأُسطورةَ المُؤسِّسة للصُّهيونية، حيثُ استخدمت ليس فقط لإضفاءِ شرعيَّةٍ دينيَّةٍ على المشروع الاســتيطاني، بل أيضًا لإقنــاع الرأيّ العام اليهوديّ والدوليّ بأنَّ احتلالَ فلســطين هو تنفيــذٌ لإرادةٍ إلهيَّة، وليس مجردَ عمليَّةٍ اســتعماريَّةٍ مدعومة مــن القُوى الغربيَّة. وفي هذا السِــياق، يهدف هذا المَبحثُ إلى تحليلِ كَيفيَّةِ توظيفِ الصُّهيونيَّة للنُّصوصِ الدينيَّة اليَهوديَّة، والتلاعب بها لخدمةِ مشروعِها الســياسيّ، وتسليطِ الضوءِ على التَّفسيراتِ الحاخاميَّةِ التي أعطت بعدًا "شرعيًّا" للقتلِ والاستيطانِ والطَّردِ القَسري.

التَّوظيفُ الصُّهيُونيُّ للنصوص التوراتية

تُعدُّ التَّوراةُ المصدرَ الأَســاسيَّ الذي اعتمدت عليه الصُّهيونيَّةُ لتبريرِ احتلال فلسطين، حيثُ تمَّ التَّركيز على نصوصٍ تُعزّز فكرةَ أنَّ الأرضَ مُخصَّصةٌ لليهودِ وحدهم. ففي سِفر التَّكوين ورد: «لنســلك أُعطي هذه الأرض»[1]. تمَّ اســتخدام هذا النَّص في الخِطاب الصُّهيوني للتأكيدِ على أنَّ فلســطينَ ليســت أرضًا عربيَّةً، بل هي «هِبة إلهية» لليهودِ، وبالتَّالي فإنَّ أيَّ وجودٍ فلسطينيّ فيها يُعتبر غيرُ شرعيّ. وقد قال (دافيد بن غوريون): "إنَّنا نستمد حقوقَنا في هذه الأرض من التَّوراة، فقد أعطاها الله لآبائنا".[2]

التَّبريرُ الدّينيُّ للعُنفِ وَالتَّطهيرِ العِرقيّ

إلى جانبِ فكرة «وعد الأرض»، اســتخدمت الصُّهيونيَّة النُّصوصَ التَّوراتيَّةُ التي تدعو إلى إبادةِ الشُّــعوبِ الأُخرى، لتبريرِ المجازر ضدَّ الفلسطينيين. ففي سفر يشوع، جاء: "لا تتركوا نَفسًا حيَّةً،

١ - سفر التكوين، ١٢:٧.

٢ - ديفيد بن غوريون، مذكرات بن غوريون، ص ١١٢.

بل استأصلوا كلَّ ما في المدينة، الرجال والنساء، الأطفال والشيوخ، حتى البهائم، بحدّ السَّيف".[1]

تمت إعادةُ تفسيرِ هذه النُّصوص في الفِكر الصُّهيوني على أنَّها أوامرُ إلهيَّة دائمة، ممَّا جعل العُنفَ ضدَّ الفلسطينيين ليس فقط مقبولاً، بل واجبًا دينيًّا. وهذا ما أكده الحاخام (إسحق غينسبيرغ)، حيثُ قال:

«قتل غير اليهود ليس جريمةً، بل هو تنفيذٌ لوصايا الرَّب بحماية الأرض المقدَّسة"[2].

في حين استُخدمت التَّوراةُ كأساسٍ لتبريرِ الاستيطان، لعب التَّلمودُ دورًا رئيسيًّا في إضفاء شرعيَّةٍ دينيَّة على مُعاملة الفلسطينيين كـ"أغيار" يجب إخضاعهم أو طردهم. ففي التَّلمود البابلي ورد:

«أنتم تُدعون الإنسان، أمَّا الأُمم الأخرى فليست إلا بهائم"[3].

تم تبني هذا التصور داخلَ الفِكر الصُّهيوني، ممَّا أدَّى إلى سن قوانين "إسرائيلية" تُعامِل الفلسطينيين كمواطنين من الدَّرجةِ الثَّانية، وتَحرمهم من حقوقهم الأساسيَّة. كما أنَّ العديدَ من الحاخامات أكدوا على هذه الفِكرة، مثل الحاخام موشيه "فايجنر"، الذي قال:

«كلُّ فلسطيني في أرض 'إسرائيل' هو دخيل يجب طرده، وإذا قاوم فدمه مباح"[4].

الأُسطُورَةُ المُؤَسِّسَةُ للصُّهيُونيَّة بَينَ الدّين وَالاستعمَار

يتَّضحُ من خلال هذا التَّحليل أنَّ الصُّهيونيَّةَ ليست مجردَ حركةٍ سياسيَّة، بل هي مشروعٌ استيطانيٌّ إحلاليٌّ استند إلى التَّفسيرِ المُتعمد للنصوصِ الدينيَّة، بحيثُ يتم تقديم الاستيطان والقتل كـ«وصايا دينيَّة» يجب تنفيذها.

لقد وظَّفت الصُّهيونيَّةُ التَّوراةَ والتَّلمودَ ليس فقط لإضفاء شرعيَّةٍ على احتلال فلسطين، بل أيضًا لتبرير العُنف المنهجي ضدَّ الفلسطينيين، وإضفاء بُعد قُدسيّ على الجرائم "الإسرائيلية". ومن خلال التفسيرات الحاخاميَّة، تَحوَّل المشروعُ الصُّهيوني إلى نظامٍ عُنصريّ إحلاليّ يُمارس التَّمييزَ العِرقي، ويستخدم الدّينَ كسلاحٍ لتبريرِ الإبادةِ الجماعيَّة.

---

١ - سفر يشوع، ٦:٢١.
٢ - إسحق غينسبيرغ، الشريعة والسياسة، ص ٩٨.
٣ - التلمود البابلي، سنهدرين ٣٧ أ، ج ٢، ص ٥٦.
٤ - موشيه فايجنر، «إسرائيل» والتوراة، ص ١٨٧.

إنَّ تفكيكَ هذه الأسطورة المؤَسِّسة للصُّهيونيَّة لا يتطلب فقط فضحَ زيفِ المُبررات الدينيَّة، بل أيضًا التأكيد على أنَّ القضيَّةَ الفلسطينيَّةَ ليست مجردَ صراعٍ دينيّ، بل هي نضال ضدَّ مشروعٍ استعماري مدعوم بأيديولوجيا عُنصريَّة دينيَّة.

المَجَازِرُ الصُّهيُونيَّةُ: العُنفُ كَوَسِيلَة لتَحقيق الأَهدَاف السّيَاسيَّة

مثَّلت نكبةُ ١٩٤٨ أكبرَ عمليةِ تطهيرٍ عِرقيٍ في القرن العشرين، حيثُ قامت العصاباتُ الصُّهيونيَّةُ المُسلحةُ مثل «الهاغاناه» و«شتيرن» و«الأرغون» بتهجير أكثر من ٧٥٠ ألفَ فلسطيني قسرًا، وتدمير أكثر من ٥٠٠ قريةٍ فلسطينيَّة، وارتكاب مجازر جماعية بحقّ السُّكان الأصليين.

بعد النكبة، واصلت "إسرائيل" سياسةَ الحرب الدَّائمة كوسيلةٍ لتوسيعِ سيطرتها الجُغرافية وترسيخ وجودها، حيثُ شنَّت عِدَّةَ حروب عُدوانية، من أبرزها:

حرب ١٩٥٦ (العدوان الثلاثي): تحالفت "إسرائيل" مع بريطانيا وفرنسا لضربِ مصرَ والسيطرةِ على قناة السويس، ممَّا كشف عن دورها كأداةٍ استعماريَّةٍ غربيةٍ في المنطقة.

حرب ١٩٦٧ (النكسة): احتلت "إسرائيل" الضفة الغربية، قطاع غزة، سيناء والجولان، وارتكبت مجازرَ بحقّ الفلسطينيين، مثل: مجزرة اللد التي قُتل فيها أكثر من ٥٠٠ فلسطيني.

الاجتياحُ "الإسرائيلي" للبنان (١٩٨٢): حيثُ دَعمت "إسرائيل" مجزرةَ صبرا وشاتيلا التي راح ضحيتها أكثر من ٣٠٠٠ لاجئٍ فلسطينيّ، بتمويلٍ وإشرافٍ مباشر من وزير الدفاع "الإسرائيلي" آنذاك (أرييل شارون).

العُدوَانُ المُستَمِر عَلَى غَزَّة: "إِبَادَةٌ بَطِيئَةٌ"

مُنذ انسحاب "إسرائيل" المزعوم من قطاع غزة عام ٢٠٠٥، تحوَّل القطاعُ إلى سجنٍ مفتوحٍ، حيثُ شنَّت "إسرائيل" عِدَّةَ حروبٍ مدمِّرة على المدنيين، منها:

حرب ٢٠٠٨-٢٠٠٩: أسفرت عن استشهاد ١٤٠٠ فلسطينيّ، معظمهم من النّساءِ والأطفال، وتمَّ خلالها استخدامُ الفُسفُور الأبيض المُحرَّم دوليًّا.

حرب ٢٠١٤: قُتل خلالها ٢٢٠٠ فلسطيني، وتمَّ تدمير آلاف المنازل، في واحدةٍ من أكثرِ الهجمات "الإسرائيلية" وحشيَّةٍ.

حرب ٢٠٢١: أسفرت عن مئات الشُّهداء وتدمير كامل للبِنية التَّحتية في غزة، تحت ذريعة "الدفاع عن النفس».

وأخيراً حرب ٢٠٢٣: التي دمَّرت الجزءَ الأكبرَ من غزة، وأعدمَت كلَّ مُقومات الحياة فيها، وأدَّت إلى استشهاد عشرات الآلاف من الفلسطينيين، يمثل النساء والأطفال جزءًا وازنًا منها.

يتَّضحُ ممَّا تقدَّم أنَّ العُنفَ الصُّهيوني ليس مجردَ رد فعل دفاعي، بل هو سياسةٌ مُمنهجةٌ تقوم على الإبادة الجماعيَّة والتطهير العِرقي، وفق رؤية دينيَّة مُتطرفة تمنحُ الاحتلال "الإسرائيلي" شرعيَّةً "إلهيَّة" مزعومةً. إنَّ استمرارَ هذه الجرائم دون محاسبة دوليَّةٍ يعكس ازدواجيةَ المعايير الغربيَّة، ويؤكد أنَّ تفكيكَ الفِكر الصُّهيوني ضرورةٌ عالميَّةٌ، لأنَّ بقاءَه يعني استمرارَ الظلمِ والدَّمارِ في فلسطين والمِنطقة.

الصُّهيُونيَّةُ وَالفكرُ الغَربيُّ مَا بَعدَ الحَدَاثي: تَحَالُفُ الأَيدُيُولُوجيَّات

لم تكن الصُّهيونيَّةُ مجردَ مشروعٍ استيطاني مدعوم بالقُوَّة العسكريَّة فقط، بل كانت أيضًا نتاجًا لتحالف فِكريّ مُعقد بين الاستعمار الغربيّ والفِكر الحَدَاثي وما بعد الحداثي. فمُنذ ظهورها في أواخر القرن التاسع عشر، استفادت الصُّهيونيَّةُ من الخطابات الفكريَّة الغربيَّة التي برَّرت التوسعَ الإمبرياليّ، والتَّفوق العِرقي، واحتلال أراضي الشُّعوب الأصلية. ومع تطوُّر الفِكر الغربيّ نحو ما بعد الحداثَة، استمرت الصُّهيونيَّةُ في إعادة تشكيلِ خِطابها لتتناسبَ مع السِّياقات الفِكرية والسياسيَّة الجديدة، ممَّا مكَّنها من كسب دعم واسع داخل الدوائر الأكاديمية والسياسية الغربية.

الاستعمَارُ وَالصُّهيُونيَّةُ: الجُذُورُ المُشتَرَكَةُ

مُنذ إعلان «وعد بلفور» عام ١٩١٧، كانت الصُّهيونيَّةُ امتدادًا مباشرًا للاستعمار البريطاني في الشَّرق الأوسَط، حيثُ تبنَّت المُبررات نفسها التي استخدمتها الإمبراطوريات الاستعماريَّةُ الأوروبيَّةُ في تبرير سيطرتها على الشُّعوب الأخرى. فقد اعتمد الاستعمار الأوروبي على فِكرة «المهمة الحضاريةMission Civilisatrice"، التي تدَّعي أنَّ الشُّعوبَ غير الأوروبيَّةِ غير متحضرة وتحتاجُ إلى التَّوجِيه الأوروبي.

وبنفس المنطق، استخدمت الصُّهيونيَّةُ فكرةَ "إحياء أرض 'إسرائيل'" لتبرير احتلال فلسطين، متجاهلةً وجود الفلسطينيين الذين عاشوا هناك لقرون. كما قال (تيودور هرتزل)، مؤسس الصُّهيونية: «يجب أن نطرد العرب قليلاً قليلاً دون أن يشعروا بذلك»[١].

كانت الصُّهيونيةُ متوافقةً مع الرؤيةِ الإمبرياليَّةِ الغربية، حيثُ سعت القُوى الاستعماريَّة إلى زرع كيان استيطاني يخدُم مصالحها الإستراتيجيَّة في المِنطقة. وقد عبرَّ (ونستون تشرشل) عن ذلك قائلاً:

«إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين سيؤَمّن لنا وجودَ حليفٍ موثوق به في قلب العالم العربي".[٢]

كما أنَّ الدَّعمَ الأمريكي لـ«إسرائيل» لم يكن فقط بدافع تعاطف ديني، بل لأنَّ «إسرائيل» تُعتبر نقطةُ ارتكاز إستراتيجية للنفوذ الأمريكي في الشرق الأوسط، حيثُ قال هنري كيسنجر: "إسرائيل هي الحاملة غير الرسميةِ للطَّائرات الأمريكية في المنطقة".[٣]

الصُّهيُونيَّةُ وَالاستشرَاقُ الجَديدُ: تَشويهُ صُورَةِ الفلَسطِينيّينَ

كان الاستشراقُ أحدُ الأدواتِ الفِكريَّة التي ساهمت في تشويه صورةِ الفلسطيني والعربي، حيثُ صوَّرت الكتاباتُ الغربيَّةُ العربَ على أنَّهم متخلفون وغير قادرين على إدارة أنفسهم، مما جعلهم «غير مؤهلين للحكم الذاتي»، وبالتالي برَّر الاستعمار الأوروبي والصُّهيوني احتلال أراضيهم.

وقد أشار (إدوارد سعيد) في كتابه "الاستشراق" إلى أنَّ "الصُّهيونيَّةُ أعادت إنتاج صورةِ العربي كمُتخلف، ودمجتها في خطابِها السياسي لتبرير الاحتلال"[٤].

مع صُعود الفِكر ما بعد الحداثي، تحوَّلت صورةُ العَربي من "المتُخلف" إلى "الإرهابي"، حيثُ استَخدَمت الصُّهيونيَّة الأدواتِ الإعلاميةَ الغربيةَ لإعادةِ رسم صورة الفلسطيني كتهديدٍ أمني عالمي. وبعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، ازداد هذا الاتجاه، حيث رُبطت القضيَّةُ الفلسطينية بالإرهاب الإسلامي، مما

١ - تيودور هرتزل، دولة اليهود، ص ١٨٧.
٢ - ونستون تشرشل، خطاب في مجلس العموم البريطاني، ١٩٢١.
٣ - هنري كيسنجر، مذكرات كيسنجر، ص ٣١٢.
٤ - إدوارد سعيد، الاستشراق، ص ٢٣٣.

منح الكيان الغاصب مبررًا إضافيًّا لقمع الفلسطينيين تحتَ ذريعةِ "مكافحة الإرهاب». وقد قال (بنيامين نتنياهو) في هذا السياق: "حربنا ضد الفلسطينيين هي جزء من الحربِ العالميَّةِ ضِدَّ الإرهاب"[1].

الصُّهيُونيَّةُ وَالنيُوليبرَاليَّة: تَحَالُفُ المَصَالِح

مع تحوُّل الاقتصاد العالمي نحو النيوليبرالية، وجدت «إسرائيل» مكانَها كدولة متقدمة تكنولوجيًّا وعسكريًّا، حيثُ أصبحت شريكًا رئيسيًّا في الصناعات العسكريَّة والتكنولوجيا الأمنيَّة، ممَّا جعلها ذات أهميَّة إستراتيجيَّة كُبرى للولايات المتحدة وأوروبا. وقد أشار (ناعوم تشومسكي) إلى ذلك بقوله: "'إسرائيل' ليست فقط قاعدة عسكرية للغرب، بل هي مُختبر لتطوير أدوات القمع التي يتم تصديرها عالميًا"[2]. وهكذا تحولت "إسرائيل" إلى مركز عالمي لصناعةِ أدوات القمع والمراقبة، حيثُ يتمُّ تصدير التكنولوجيا العسكريَّة "الإسرائيلية" إلى العديد من الأنظمة القمعيَّة حول العالم.

الصُّهيُونيَّةُ كجُزءٍ من النِّظَامِ العَالَميّ الجَديد

من خلال هذا التَّحليل، يتَّضح أنَّ الصُّهيونيةَ ليست مجردَ حركةٍ قوميَّة يهوديَّة، بل هي جزءٌ من النّظام الاستعماري والنيوليبرالي العالمي، حيثُ استفادت من الفِكر الغربي الحديث لتبريرِ وجودِها، سواء من خلال التبريرات الاستعماريَّةِ التقليديَّة، أو من خلال تحالُفها مع الاقتصاد النيوليبرالي والتكنولوجيا العسكريَّة.

إنَّ تفكيكَ الخِطاب الصُّهيوني لا يتطلب فقط كشفَ زيفِ الروايات الدينيَّة والسياسيَّة، بل أيضًا فَهم كيف تتماهى "إسرائيل" مع النّظام العالمي الذي يخدم القُوى الكُبرى. وهذا يجعل مقاومةَ الصُّهيونيَّةِ ليست فقط مسؤوليَّة الفلسطينيين، بل جزءًا من المعركة العالميَّةِ ضِدَّ الاستعمار والاستغلال الرأسمالي.

الصُّهيونيَّةُ وَالتَّضليلُ الإعلاَميّ: كَيفَ يَتّمُّ إخفَاءُ جَرائِم "إسرائيل"؟

تَلعب الآلةُ الإعلاميَّةُ الصُّهيونية دورًا رئيسيًّا في تبريرِ السياسات العُنصرية «الإسرائيلية»، من

١ - بنيامين نتنياهو، مكان تحت الشمس، ص ٩٨.
٢ -ناعوم تشومسكي، الولايات المتحدة و«إسرائيل»: تحالف المصالح، ص ١١٢.

خلال التلاعب بالمصطلحات وتقديم الاحتلال وكأنَّه «نزاع» بدلاً من كونه «استعمارًا إحلاليًّا».

فقد نجحت "إسرائيل" في قلب المفاهيم والتلاعب بها؛ بحيثُ أصبحت الضحيَّةُ كالمُعتدي، والمعتدي يتم تصويره على أنه ضحيَّةٌ.

الضَّغطُ عَلَى المُؤَسَّسَات الدَّوليَّة لإخفَاء الحَقَائق

وتَستخدم «إسرائيل» اللُّوبيَّات الصُّهيُونِيَّةَ للضغط على المؤسسات الدوليَّةِ ومنع أي تحقيق جاد في جرائمها، حيث تمَّ:

إفشالُ تقارير الأُمم المتحدة التي تصف "إسرائيل" بأنَّها نظامُ فصلٍ عُنصري.

منع وسائل الإعلام الغربيَّة من تغطية المجازر "الإسرائيليَّة" بشكلٍ موضوعي.

تجريمُ أيّ انتقاد لـ"إسرائيل" عبر اتهامه بمعاداة الساميَّة.

لكنَّ الفَضيحةَ الأكبرَ تمثَّلت في معارضةٍ غربيَّةٍ واضحةٍ لقرار المحكمة الجنائيَّة الدوليَّة التي أدانت رئيسَ الحكومة الصُّهيونيَّة (بنيامين نتنياهو)، ورفض مذكرة الاعتقال بحقه، بل والتهديد بفرض عقوبات على المحكمة والمسؤولين عن قرار الإدانة.

لِمَاذَا الصُّهيُونِيَّةُ حَرَكَةٌ لَا أَخلَاقِيَّة؟

يتَّضح ممَّا تقدم أنَّ الصُّهيونيةَ ليست فقط حركةٌ استعماريَّة، بل هي نظامٌ عُنصري إحلاليّ قائم على التَّمييز والتَّطهير العِرقي. فمن خلال تشريعاتها العُنصرية، وممارساتها الاستيطانية، وهيمنتها الإعلاميَّة، تسعى «إسرائيل» إلى فرض واقع استيطاني غير إنسانيّ، يتناقضُ مع كلّ القِيَم الأخلاقيَّةِ وحقوقِ الإنسان.

الصُّهيُونِيَّةُ وَمُستَقبَلُ الصّرَاع: إِلَى أَينَ؟

على مدار أكثر من قرن، استمرت الصُّهيونيَّةُ في فرضِ مشروعِها الاستيطاني الإحلالي، مستندةً إلى الدَّعم الغربي، والتبريرات الدينيَّةِ، والقُوة العسكريَّة. ومع ذلك، لم يتمكن هذا المشروع من القضاء على الهُوية الوطنيَّة الفلسطينية، التي لا تزال راسخةً رغم عمليَّات التَّطهير العِرقي والتَّمييزِ العُنصري والاستيطان المستمر.

لكنَّ السُّؤالَ الأهمَّ اليوم هو: ما مستقبل الصراع بين الصُّهيونية والعالمين العربي والإسلامي؟ وهل يمكن للمشروع الصُّهيوني أن يستمرَ في ظلّ المُقاوَمةِ وتغير موازين القوى الدولية والاعتراف العالمي المُتزايد بطبيعته العنصرية؟

نِقَاطُ القُوَّةِ وَالضَّعفِ فِي الَمشرُوعِ الصُّهيُونيّ

■ **نِقَاطُ القُوَّة: لِمَاذَا لَا تَزَالُ الصُّهيُونِيَّةُ صَامِدَةً؟**

على الرَّغم من طبيعتها العُنصرية والاستعمارية، لا تزال الصُّهيونيَّةُ تتمتع بعوامل قوةٍ تساهم في استمرارها، ومنها:

١. الدَّعم الغربيُّ المُطلق: حيثُ يستفيد الكيانُ الغاصب من الدَّعم السياسيّ والاقتصاديّ والعسكريّ الأمريكي والأوروبي، مما يمنحها حماية دوليَّة تمنع محاسبتها على جرائمها ضد الفلسطينيين.

٢. التَّفوقُ العسكريُّ والتكنولوجيُّ: تمتلك "إسرائيل" أحدَ أقوى الجيوشِ في المِنطقة، وتُسيطر على أحدث تقنيات التَّجسس والذكاء الاصطناعي، مما يُعزز قوتها الأمنية والاستخباراتية.

٣. الهَيمَنَةُ الإعلاَميَّةُ وَالتَّضليلُ العَالَميُّ: من خلال اللُّوبيات الصُّهيونيَّةُ في الغرب، تسيطر "إسرائيل" على جزءٍ كبيرٍ من الإعلام الدولي، ممَّا يمكنها من تشويه صورةِ الفلسطينيين والتغطيةعلىجرائمها.

٤. الانقسامُ العربيُّ والإسلاميُّ: حيثُ تستفيد "إسرائيل" من حالة التشرذم السياسيّ والتطبيعِ العربي وانشغال الدول العربيَّة بأزماتها الداخلية، ممَّا يُقلل من الضغط السياسيّ عليها.

■ **نِقَاطُ الضَّعف: لِمَاذَا قَد تَنهَارُ الصُّهيُونِيَّةُ؟**

لكن في المقابل، تُواجه الصُّهيونيَّة تحديات جوهريَّة تُهدد استمرار مشروعها على المدى البعيد، ومنها:

١. الفشلُ في تحقيق التفوُّق الديموغرافي: رغم سياسات التهجير والتمييز العنصري، لا يزال الفلسطينيون يشكلون نسبةً كبيرةً من السكان في فلسطين التاريخيَّة، مما يجعل المشروع

الصهيوني يواجه أزمة وجودية طويلة المدى.

٢. تَصَاعدُ المُقاومة الفلسطينية: من غزة إلى الضفة الغربية، أثبت الفلسطينيون أنَّ المُقاومة ليست فقط عسكريَّة، بل أيضًا سياسيَّة وثقافيَّة واقتصاديَّة، ممَّا يجعل الاحتلال أكثر تكلفة لـ"إسرائيل".

٣. تَغيُّر الموقف الدولي: رغم الدَّعم الغربي، هناك تزايد في الاعتراف الدولي بأنَّ "إسرائيل" تُمثل نظام فصلٍ عُنصري، كما أصدرت منظمات مثل هيومن رايتس ووتش ومنظمة العفو الدولية تقارير تدين السياسات "الإسرائيلية" بوصفها "أبارتهايد".

٤. الأزمةُ الدَّاخلية في "إسرائيل": تعاني "إسرائيل" من انقسامات سياسية عميقةٍ، حيثُ تصاعدت الخلافاتُ بين العِلمانيين والمتدينين، وبين المستوطنين والجيش، وبين اليمين واليسار، ممَّا قد يؤدي إلى تآكل الاستقرار الداخلي.

من الواضح أنَّ هذه الحكومات الغربيَّةَ مُتصهينةٌ، ليس في سكوتها عن جرائم الصُّهيونيَّة، بل في دعمها المُطلق لها، وهو موقفٌ يُمثّل أقصى السقوطِ الأخلاقي أمامَ حكوماتٍ تخوضُ حروبًا وتُبيدُ شعوبًا بدعوى نشر الديمقراطيَّة والدفاع عن حقوق الإنسان، لكنَّ الموقفَ الغربي المتماهي مع الصهيونيَّةِ ليس غريبًا بسبب المشترك الثَّقافي بينهما، لكنَّ العجيبَ هو موقف بعضِ الأنظمةِ العربيَّة، التي ذهبت نحو التَّطبيع ليس بثمن بخس بل بشكل مجاني، على أنَّ بعضَها ذهب حد تقديم الدَّعم للكيان المارق، فيما أنظمة أُخرى لاذت بالصَّمت، واستكثرت حتى إدانة جرائم هذا الكيانَ في غزة ولبنان، رغم علمهم أنَّ السَّاكتَ عن الحقّ شَيطَانٌ أخرس.

وعلى أي حال، فقد جاء هذا العدد الخامس من مجلة (أُمم) ليُسلطَّ الضَّوءَ على هذه الصُّهيونيَّة، ويُفكك خِطابها، ويكشف ترابطها البنيوي مع الخِطاب الغربي المُتصهين في عمقه. وقد جاء هذا العدد في وقتٍ حسَّاس من تَّاريخ هذه الأمة، حيثُ حروب الإبادةِ التي شُنَّت على غزة ولبنان، بفظاظة غربية واضحة، وتجاهل لكل القوانين الدولية.

إنَّنا إذ نأمل أن ينالَ هذا العدد استحسان القُراءِ، فإنَّنا نَعتبر أنَّ ما قمنا به هو أقل الإيمان في نُصرةِ المظلومين والمستضعفين، والحد الأدنى من جهاد التبيين. وما توفيقنا إلَّا من الله العزيز الحكيم. ولله الحمد من قبل ومن بعد.

لَائِحَةُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِع:

- العهد القديم.
- إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، دار رؤية، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠١٤.
- إسحق غينسبيرغ، الشريعة والسياسة، دار النشر اليهودية، الطبعة الأولى، القدس، ٢٠٠٣.
- بنيامين نتنياهو، مكان تحت الشمس، ترجمة إيلي بن غوريون، دار النشر اليهودية، القدس، ٢٠١٥.
- التلمود البابلي، سنهدرين ٣٧ أ؛ التلمود البابلي، ترجمة يوسف نصر الله، دار الحكمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٨.
- تيودور هرتزل، دولة اليهود، ترجمة محمد مصطفى، دار الفكر، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠١٠.
- ديفيد بن غوريون، مذكرات بن غوريون، ترجمة محمود عباس، دار الهلال، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٨.
- موشيه فايجنر، "إسرائيل" والتوراة، دار الفكر العبري، الطبعة الأولى، "تل أبيب"، ٢٠٠٥.
- ناعوم تشومسكي، الولايات المتحدة و"إسرائيل": تحالف المصالح، دار التنوير، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠١٢.
- هنري كيسنجر، مذكرات كيسنجر، ترجمة محمود صلاح، دار الهلال، القاهرة، ٢٠٠٥.
- ونستون تشرشل، خطاب في مجلس العموم البريطاني، ١٩٢١.

الجُذُورُ التَّوراتِيَّةُ والتَّلمُودِيَّةُ لإِشكَالِيَّةِ "الآخَر" فِي الفِكْرِ الصُّهيُونِيّ

■ د. محمد محمود مرتضى[1]

ملخّص

عزَّزت الصُّهيونيَّةُ من نظرتها السَّلبيَّة العدائيَّة للآخر المُغاير والمُختلف -عربيًّا كان أم غير عربي- من خلال تركيزها على أبعادٍ هُويَّاتيَّة دينيَّة مغلقة، ترفض اعتبارَ هذا الآخر على نفس المُستوى البشريّ، بل هذا الآخرُ هو مجرد خادمٍ وتابعٍ لا إرادةَ له في ظلِّ الهيمنَةِ الكُلِّيَّة لفكرٍ وعقليَّةٍ وهُويَّةٍ «شعب الله المختار».

في هذا البحث، حاولنا الغوصَ في بِنيَة الفكر الصُّهيُوني، للكشف عن الجذور الدينيَّة التاريخيَّة، من خلال تسليط الضَّوء على مَكامنها الفكريَّة الأيديولوجيَّة في العهد القديم والتَّلمود اليهودي، وتحليل النُّصوص التَّوراتيَّة والتَّلموديَّة التي أسهمت في تشكيل وصياغة الوعي الصُّهيوني الحديث تجاه الآخر المختلف.

ركَّز البحثُ على كيفيَّة توظيف الروايات الدينيَّة اليَهوديَّة لبناءِ الأيديولوجيا الصُّهيونيَّة، خاصة ما يتعلق منها بمفاهيم الشعب المختار، أرض الميعاد، والعلاقة مع الآخر. كما ناقش التَّأثيرَ التَّلمودي في تكوين المنظور الصُّهيوني للعلاقات الدوليَّة والصراعات السياسيَّة.

من خلال دراسة نقديَّة، يُظهر البحثَ كيف تمَّ تأويلُ النُّصوص الدينيَّة لخدمة مشروع سياسيٍّ استعماريّ عنصريّ مدعوم غربيًّا، الأمرُ الذي أفضى إلى إنتاجِ خطابٍ إقصائي تجاهَ غيرِ اليهودِ، خاصةً العرب والفلسطينيين.

الكلمات المفتاحية:

التوراة – التلمود – الآخر - أرض الميعاد – الصهيونية - الشعب المختار.

1 - أستاذُ الفلسفة الغربيَّة في جامعة المعارف (لبنان)، ومدير مركز "براثا" للدراسات والبحوث (بيروت)، ورئيس تحرير مجلة أمم للدراسات الإنسانيَّة والاجتماعيَّة.

مُقَدّمَةُ البَحْثِ

تُعدّ إشـكاليَّةُ «الآخر» من القضايَا المحوريَّـة في الفِكر الدينيّ اليَهـوديّ والفِكر الصُّهيوني الحديث، حيثُ ارتبطت هذه الإشكاليةُ بمفهومِ الهُويَّة اليهوديَّة في مقابل «الأغيار»، وهو مصطلحٌ استُخدَم في النُّصوص الدينيَّة اليهوديَّة لوصفِ غيرِ اليهود. وقد ترسَّخ هذا التمييزُ في النُّصوص التَّوراتية والتَّلموديَّة التي صاغت صورةً محددةً للآخر، ممَّا أسـهم في بناء الأسس الأيديولوجية للصهيونيَّة الحديثة وتبرير سياساتها تجاه الفلسطينيين والعالم العربي.

يتنـاول هذا البحثُ الجذورَ الدينيَّةَ لإشـكاليَّة «الآخر» في الفِكر الصُّهيوني من خلال تحليلِ النُّصـوص التَّوراتيَّة والتَّلموديَّة التي تحدد رؤيـةَ اليهودِ لغيرهم، وتتبع كيفية توظيف هذه الرؤيةِ في بناء الخطاب الصُّهيوني الحديث. ويطرحُ البحثُ السـؤالَ التَّالي: كيف ساهمت النُّصوصُ الدِينيَّةُ اليهوديَّةُ، خاصةً التَّوراة والتلمود، في بناء تصورٍ سلبيّ عن «الآخر»، وكيف انعكس ذلك على الفِكر الصُّهيوني والسياسات «الإسرائيلية»؟

ولو عدنا لأُصولِ الفكر السياسيّ والدينيّ الصُّهيوني، سنجدُ أنَّ هذا الفكرَ -اليهودي عمومًا- يرتكزُ على مفهومِ «الشَّعب المُختار»، وهو مفهومٌ وردَ مرارًا في التَّوراة، حيثُ جاءَ في سِفر التَّثنية: «لأنَّك أنت شـعبٌ مقدَّس للربّ إلهك، إيَّاك اختار الرب إلهك لتكونَ له شعبًا أخص من جميعِ الشُّعوب الذين على وجه الأرض»[1]. إنَّ هذا النَّصَّ يشير بوضوحٍ إلى تمَيز بني إسرائيل عن بقيَّةِ الشُّعوب، وهو ما أدَّى لاحقًا إلى ترسيخ مفهومِ التَّفوُّق اليَهوديّ في الأدبيَّات الدينيَّة.

أمَّا التَّلمود، وهو المصدر التشريعيُّ والتفسيريُّ الأساسيُّ لليهوديَّةِ بعد التَّوراة، فقد ذهب إلى أبعد من ذلك في تَوصيفِ «الآخر»، إذ جاء في التَّلمود: «أنتم تُدعَون الإنسان، أمَّا الأُمم الأخرى

١ - العهد القديم، سفر التثنية، ٦:٧.

فليست إلا بهائم»[١]. إنَّ هذا التصورَ يُوضح كيف ينظر الفكرُ التَّلموديُّ إلى غير اليهودِ باعتبارهم في مرتبةٍ أدنى، وهو ما انعكس لاحقًا في السياساتِ الصُّهيونية تجاه الفلسطينيين.

طبعًا، لم يكن مفهومُ «الآخر» في اليهوديَّة ثابتًا، بل شـهد تحولاتٍ وفقًا للسياقاتِ التَّاريخيَّةِ المختلفة. ففي العصورِ القديمة، كانت النظرةُ إلى غير اليهودِ تتحدَّدُ بناءً على الصراعات القبليَّة والدينيَّة التي خاضها بنو إسرائيل مع الكنعانيين والمُوآبيين وغيرهم. أمَّا في العصور الوُسـطى، فقد تأثَّرَ الفكرُ الديني اليهودي بالاضطهاد الذي تعرض له اليهودُ في أوروبا والعالمِ الإسـلاميّ، مما عزز فكرةَ العُزلة اليهوديَّة عن المجتمعاتِ المحيطة بهم[٢].

في العصرِ الحديث، ومع صُعود الحركةِ الصهيونيَّة، أُعيدَ توظيف هذه التَّصورات الدينيَّة لخدمة المشروعِ القوميّ اليهوديّ. فقد اسـتند الصهاينةُ إلى النُّصوص الدينية لإضفاء شرعيَّةٍ دينيَّة على مطالبتهم بفلسطين، حيثُ استندوا إلى وعدِ الله لإبراهيم: «لنسلك أُعطي هذه الأرض»[٣]. وقد تمَّ استخدام هذا النصّ في الخطابِ الصهيوني لتبريرِ الاستيطان اليهوديّ وتهجيرِ الفلسطينيين.

ومع ظهورِ الصُّهيونيَّةِ السياسيَّة، حاولت الحركةُ العلمانيَّةُ الصُّهيونية في البدايةِ تقديمَ مبرراتٍ سياسيةٍ وقوميَّةٍ لمشروعها، إلَّا أنَّها سُرعان ما لجأت إلى التفسيرات الدينية لتبريرِ وجودها. فقد كان للحـركاتِ الصُّهيونية الدينية مثل: «المفدال» و«حزب شـاس»، دورٌ كبيرٌ في تعزيز الفكرة القائلة بأنَّ فلسـطين «أرضُ الميعاد»، وأنَّ اسـتيطانها واجبٌ دينيٌّ. كما صدرت فتاوَى من قِبل بعض الحاخامات تُؤكد على هذا الطرح، حيثُ يقول الحاخام (أبراهام كوك): «الأرض لنا لأنَّها وعدٌ إلهي، وليس لأنَّها ملك لأحد»[٤].

إنَّ كلَّ تلـك التصورات الدينيَّـةِ لغيرِ اليهود لم تبقَ حبيسـةَ النُّصوص، بل انعكسـت عمليًّا على السياسات «الإسرائيلية» تجاه الفلسـطينيين والعرب. فالفكر الصُّهيوني استند إلى مبدأ أنَّ الفلسـطينيين «غُرباء» عن الأرض، وهو ما تم ترسـيخه في القوانـين «الإسرائيلية»، مثل «قانون العودة» الذي يمنحُ اليهودَ حولَ العالمِ حقَّ الهجرة إلى «إسرائيل»، بينما يُحرَم الفلسـطينيون من

١ - التلمود البابلي، سنهدرين ٣٧ أ، ج٢، ص٥٦.
٢ - شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي، ص١٩٨.
٣ - العهد القديم: سفر التكوين، ١٢:٧.
٤ - أبراهام كوك: أروت، ص١٩.

هذا الحق رغم كونهم السُّكان الأصليين للبلاد[1].

كذلك، فإنَّ الخطابَ السياسيَّ والإعلاميَّ الصُّهيوني يعيد إنتاج صورة «الآخر» بوصفه تهديدًا وجوديًّا، وهو ما يُبرر السياساتِ القمعيةَ ضد الفلسطينيين. فعلى سبيل المثال، في كتابه «الإرهاب المقدس»، يشير (مايكل بريور) إلى أنَّ «الخطاب 'الإسرائيلي' المعاصر يستند إلى الموروث الديني لتبرير كل أشكال العنف ضد الفلسطينيين»[2].

يتضحُ من خلال هذه الدراسةِ أنَّ مفهومَ «الآخر» في الفكر اليهودي لم يكنْ مجرد مسألة دينية، بل هو أداةٌ سياسيَّةٌ استُخدمت على مرِّ التاريخ لتشكيل الهُويَّةِ اليهوديَّة وتبرير السياسات الاستيطانيَّة الصُّهيونية. إنَّ هذه الإشكالية تُفسر الكثيرَ من السياسات «الإسرائيلية» المعاصرة تجاه الفلسطينيين، حيثُ يتجلى الأثرُ المباشرُ للنُّصوص التَّوراتية والتَّلمودية في بناءِ سياسات الإقصاء والتمييز. ومن هنا، تأتي أهمية البحثِ في تحليل هذه الجذور وتأثيراتها المستمرة، لفَهم كيف يتداخل الدينُ والسياسةُ في تشكيل الصراع العربي-«الإسرائيلي».

أَوَّلًا: «الآخَرُ» في النُّصُوص التَّوراتيَّة

يُعَدُّ «الآخر» مفهومًا مركزيًّا في الفكر الديني اليهودي، وقد لعبت التَّوراة دورًا رئيسيًّا في صياغة هذا التصور، حيثُ رسمت صورةً واضحةً للعلاقةِ بين بني إسرائيل والشعوب الأخرى، وفق رؤيةٍ تقومُ على ثُنائيَّة «الشعب المختار» مقابل «الأغيار». تتناول هذه الدراسةُ تحليلَ مفهوم «الآخر» في النُّصوص التَّوراتية، وكيفيةَ توظيف هذه النصوص في ترسيخ نظرةٍ تمييزيةٍ تجاه غير اليهود، ممَّا ساهم لاحقًا في تشكيل الخطاب الصُّهيوني الحديثِ.

١. مَفهُومُ «الشَّعبِ المُختَار» وَالتَّمييز الدّيني:

يحتلُّ مفهومُ «الشَّعب المختار» موقعًا محوريًّا في العقيدةِ اليهوديَّة، وهو الفكرة التي تؤسس لتمييز اليهود عن غيرهم من الشعوب. فقد جاء في سِفر التَّثنية: «لأنَّك أنت شعب مقدَّس للرب إلهك، إيَّاك اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميعِ الشُّعوب الذين على وجه

١ - إسرائيل شاحاك: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية: عبء ثلاثة آلاف سنة، ص٢٤٥.
٢ - مايكل بريور: الإرهابُ المقدّسُ، ص١٢١.

الأرض»[1].

هذا النَّصُ يُرسّخ فكرةَ التفوق اليهودي، حيثُ يمنح بني إسرائيل مكانةً خاصَّةً تُميزهم عن بقية الأُمم. ويظهر هذا التمييزُ أيضًا في نُصوص أُخرى، مثل ما ورد في سفر الخروج: «فالآن إنْ سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي، تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب، فإنَّ لي كلَّ الأرض»[2].

٢. صُورَةُ «الآخر» في التَّورَاة: التَّصنِيفُ بَينَ الأَعدَاءِ وَالغُرَبَاء:

تُقسم التَّوراةُ «الآخر» من حيثُ تعامُلها معه إلى فئتين رئيسيتين: الأعداء والغرباء.

أ. الأَعدَاءُ (الشُّعُوبُ المَلعُونَةُ وَالمُحَرَّمَةُ):

تَضمُّ التوراة عددًا من النصوص التي توضحُ العَلاقةَ العدائيَّةَ مع الشعوبِ المجاورةِ، وتدعو إلى القضاء عليهم. ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما ورد في سِفر التَّثنية بشأن الشعوب الكنعانية: «حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصُّلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويُستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدّ السيف»[3].

كذلك، نجد أوامرَ صريحةً بالقضاء على بعض الشعوب كليًّا، كما جاء في الأمر الموجَّه إلى بني إسرائيل بشأن العمالقة: «اذكرْ ما فعله بكِ عماليق ... فحينَ يريحكَ الربُّ إلهك من جميع أعدائك حولك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك نصيبًا لترثها، تمحو ذكر عماليق من تحت السماء، لا تنسَ»[4].

ب. الغُرَبَاءُ (وضعُ غَيرِ اليَهودِ دَاخِلَ المُجتَمَعِ اليَهُودِيّ):

بينما يتمُّ تصويرُ بعض الشعوبِ كأعداءٍ يجب القضاءُ عليهم، هناك فئةٌ أخرى من «الآخرين» تُعرف بالغُربَاء، وهم غير اليهودِ الذين يعيشون بين بني إسرائيل أو يَخضعون لحُكمهم. ورغم أنَّ التَّوراةَ تدعو أحيانًا إلى معاملتهم بعدالة، إلا أنَّ هذه المعاملةَ مقيدةٌ بشروط. فقد ورد في سِفر

١ - العهد القديم، سفر التثنية، ٦:٧.
٢ - العهد القديم، سفر الخروج، ٥:١٩.
٣ - العهد القديم، سفر التثنية، ١٠:٢٠-١٣.
٤ - العهد القديم، سفر التثنية، ١٧:٢٥-١٩.

اللاويين: «إذا نزل عندك غريبٌ في أرضكم فلا تظلموه، بل كن له كواحد منكم، وأحببه كنفسك، لأنَّكم كنتم غرباء في أرض مصر»[1].

إلاَّ أنَّ هذا التسامُحَ مشروطٌ بعدم تشكيلهم تهديدًا دينيًّا أو سياسيًّا، حيثُ تحظر التَّوراةُ زواجَ اليهـودِ منهم، كما جاء في سـفر عزرا: «قد خالفتم أمـرَ الرَّب وأخذتُم نسـاءً غريبات ليزيدَ إثم إسرائيل»[2].

٣. الانعكَاسَاتُ الأَيديُولُوجيَّةُ لِمَفهُوم «الآخَر»:

تُعدُّ هذه النصوصُ أساسًـا فكريًّا مهمًّا في بناءِ الفكـر الصُّهيوني الحديث، حيثُ تمَّ توظيفُ مفهوم «الآخر» لتبريرِ السياسـات الاستيطانيَّة، واعتبار الفلسـطينيين «غرباء» أو «أعداءً» يجبُ إخضاعُهـم أو إقصاؤهـم. وقد اسـتخدم الزعماءُ الصَّهاينـةُ هذه النصوصَ لتبريـر مشروعِهم السـياسي، حيثُ قال (ديفيد بن غوريون): «إنَّنا نسـتمدُ حقوقَنا في هذه الأرض من التَّوراة، فقد أعطاها الله لآبائنا»[3].

كذلـك، فإنَّ الجماعاتِ الدينيَّـةَ الصُّهيونيَّةَ، مثل حركة «غوش إيمونيم»، اسـتندت إلى هذه النصوص لتبريرِ الاسـتيطان في الضفة الغربية، معتبرةً أنَّ الفلسـطينيين هم «الكنعانيون الجدد» الذين يجب طردهم أو إخضاعهم[4].

٤. الخُلَاصَةُ وَالاستنتَاجُ:

يتضحُ من خلال هذا التحليل أنَّ التَّوراةَ لعبت دورًا رئيسيًّا في صياغةِ مفهوم «الآخر» في الفكر اليهوديّ، حيثُ تـمَّ تصنيفُ غير اليهود إلى أعداءٍ يجب القضـاءُ عليهم، وغرباء يمكن قبولهم بـشروطٍ صارمة. وقد أثَّر هذا التصورُ بشـكلٍ مباشر على الفكرِ الصُّهيـوني الحديث، حيثُ تم توظيفُ هذه النصوص لإضفاء شرعيَّةٍ دينيَّةٍ على الاستيطان والتمييز العُنصري ضد الفلسطينيين.

---

١ - العهد القديم، سفر اللاويين، ٣٣:١٩-٣٤.
٢ - العهد القديم، سفر عزرا، ١٠:١٠.
٣ - ديفيد بن غوريون، مذكرات بن غوريون، ص١١٢.
٤ - إسرائيل شاحاك: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية-عبء ثلاثة آلاف سنة، ص٢٤٥.

إنَّ فَهمَ هذه الجذور الدينية ضروريٌّ لتحليلِ الخطابِ الصُّهيوني المعاصر، والكشفِ عن كيفيَّةِ استمرار توظيف النُّصوص التَّوراتيَّةِ في تشكيلِ السياسات «الإسرائيلية».

ثَانيًا: «الآخَرُ» في التَّلمُود وَالتَّفَاسير الحَاخَاميَّة

بعدما استعرضنا في المَبحث الأوَّل مفهومَ «الآخر» في النُّصوص التَّوراتيَّة، نجد أنَّ التَّلمودَ، باعتباره المصدر التشريعي والتفسيري الأساسي في اليهوديَّة بعد التَّوراة، لعب دورًا رئيسيًّا في تطويرِ هذا المفهوم وإعادة تأويله وفق سياقاتٍ تاريخيَّةٍ واجتماعيَّةٍ مختلفة. يُعتبر التَّلمود بمَثابة «التفسير العملي» للتوراة، حيثُ قامَ الحاخاماتُ بتوسيع الأحكام والقوانين اليهوديَّة وتفسيرها بما يتناسب مع احتياجاتِ المُجتمع اليهوديّ، وهو ما أدَّى إلى تطويرِ رؤيةٍ أكثر تعقيدًا تجاه غير اليهود.

يُمثل التَّلمودُ منظومةً واسعةً من التشريعاتِ والتَّفاسير، وتنقسمُ نصوصُه إلى التَّلمود البابلي والتَّلمود الأورشليمي، وكلاهما يحتوي على تعاليم تتعلق بموقف اليهود من «الأغيار» (غير اليهود). وقد انعكست هذه التفسيرات لاحقًا على الفكر الصُّهيونيّ الحديث، حيثُ وظَّفت العديدُ من الجماعاتِ الصُّهيونيَّةِ هذه النُّصوصَ لتعزيزِ سياساتِ التَّمييز والإقصاء. يهدف هذا المَبحثُ إلى تحليلِ صورة «الآخر» في التَّلمود والتَّفاسير الحاخامية، واستكشاف تأثيرها على الفِكر الصُّهيوني.

١. مَوقفُ التَّلمُود من غَير اليَهُود «الغوييم»:

يَردُ في التَّلمود العديدُ من الأحكام التي تُحدد العَلاقةَ بين اليهود وغير اليهود، وهي علاقةٌ قائمةٌ على مبدأ التمييز والتفوق اليهودي. ففي أحد نُصوصه الشَّهيرة، يقول التَّلمود: «أنتم تُدعَون الإنسان، أمَّا الأُمم الأخرى فليست إلا بهائم»[١]. كما يتبنى التَّلمود موقفًا صارمًا فيما يتعلق بمسألةِ التعامل الاقتصادي والاجتماعي مع غير اليهود. ففي موضع آخر، ورد: «الخيرُ الذي تفعله مع الغوييم ليس محسوبًا لك عند الله»[٢].

١ - التلمود البابلي، سنهدرين ٣٧ أ، التلمود البابلي، ج٢، ص٥٦.
٢ - التلمود البابلي، أبوداه زارا ٢٦ ب، التلمود البابلي، ج٤، ص١١٢.

تَعكس هذه النُّصوصُ رؤيةً حاخاميَّةً تسعى إلى الحفاظ على عُزلة المجتمعِ اليهوديّ عن المجتمعات الأخرى، وهو ما انعكس في العديدِ من الأحكام التي تمنعُ الزواجَ من غيرِ اليهود، أو التعاملَ التّجاري معهم إلا في حالات الضَّرورة.

٢. التَّقسيمُ الدّينيُّ لِلأُمَم وَدَورُه في التَّفسيرِ الحَاخَامِيّ:

تُصنِّفُ التَّفاسيرُ الحاخاميَّةُ الأممَ الأخرى وفق عدةِ فئات، وذلك لتحديد كيفيَّةِ التعامل معها. ومن بين هذه التصنيفات:

أ. الشُّعُوبُ الوَثَنِيَّةُ «الأغيار»:

يُنظَر إلى غير اليهود باعتبارهم «أغيارًا» لا يتمتعون بنفسِ الحُقوق الدينيَّةِ والأخلاقيَّةِ التي يتمتع بها اليهودُ. فقد جاء في أحد الشُّروحات التَّلموديَّة: «الغريب الذي لا يعترف بشريعة إسرائيل يجب أن يُعاملَ بحذر، لأنَّ اللَه ميَّز شعبَه عن بقية الأمم»[١].

ب. الشُّعُوبُ الَّتي يمُكِنُ قَبُولهَا بِشُرُوطٍ:

على الرَّغم من النَّظرة السلبيَّةِ لغيرِ اليهود، فإنَّ بعضَ الحاخاماتِ أقرُّوا إمكانيةَ قبولِ الشُّعوب الأُخرى في المجتمعِ اليهودي بشروط، مثل اعتناق الديانة اليهوديـة والالتزام بأحكامها. جاء في التَّلمود: «من أراد أن ينضمَّ إلى شعب إسرائيل، فعليه أن يتركَ عاداتَه الوثنيَّة ويَتبع تعاليمَ التوراة»[٢].

ج. الشُّعُوبُ الملَعُونَةُ:

يُعتبر التَّلمود بعضَ الأمم «ملعونة» ولا يمكن التعايش معها مثل: العمالقة والكنعانيين، حيثُ يَذكر: «لا عهدَ ولا سلامَ مع ذرية عماليق، فإنَّهم إلى يوم القيامة أعداء لشعب الله»[٣].

٣. تَأثِيرُ الفكرِ التَّلمُودِيّ عَلَى التَّشريعَاتِ اليَهُودِيَّة تَجَاهَ «الآخَر»:

مع تطوُّرِ الفِكرِ اليهودي، استمر تأثيرُ التَّلمود في التشريعات الدينيَّة والاجتماعيَّة داخل

---

١ - موسى بن ميمون: مشناه توراة، ج١، ص٢٣٣.
٢ - التلمود البابلي، يهودا ناسي، ج٣، ص٩٨.
٣ - التلمود البابلي، سنهدرين ٩٩ ب، التلمود البابلي، ج ٥، ص٣١٢.

المجتمعات اليهودية. وقد انعكس هذا التأثيرُ في مجموعةٍ من القوانين التي تُعزز العزلةَ الدينيَّةَ والاجتماعيَّة، مثل:

تحريم الزواجِ بين اليهودِ وغير اليهود، وهو ما نصَّ عليه التَّلمود في قولِه: «من تزوجَ من امرأة غريبةٍ فقد جلبَ العارَ على شعب إسرائيل»[١].

تحريم مشاركة غيرِ اليهودِ في الشعائر الدينيَّة اليهوديَّة، حيثُ ورد: «لا يجوز للغريبِ أن يقتربَ من المعبد، فإنَّ اللهَ لم يمنحه نصيبًا في إسرائيل»[٢].

وقد أثَّرت هذه القوانين بشكلٍ مباشر على الفِكر الصُّهيوني، حيثُ تم توظيفها لتبريرِ سياساتِ الفصلِ العنصري في «إسرائيل»، مثل منع الفلسطينيين من الحصول على حقوقٍ مساوية لليهود، وفرض القوانين التمييزية ضدهم.

٤. انعكَاسَاتُ الفكرِ التَّلمُوديّ عَلَى الصُّهيُونِيَّة الحَديثَة:

إنَّ الفِكرَ التَّلمودي لم يبقَ مجردَ نصوصٍ دينيَّة، بل تحوَّلَ إلى مصدرِ إلهامٍ للأيديولوجية الصُّهيونية. فقد استند الزعماءُ الصَّهاينةُ إلى بعض الأحكام التَّلمودية لتبرير سياساتهم ضدَّ الفلسطينيين، ومن ذلك تصريح الحاخام (أبراهام إسحق كوك) الذي قال: «إنَّ الأغيار في هذه الأرض هم مجرد عابري سبيل، أمَّا نحن فمُلاكها الشرعيون»[٣]. كما أنَّ العديدَ من القوانين «الإسرائيلية» تعكس هذا الفكر، مثل قانون «الدولة القومية للشعب اليهودي» الذي يعترف بـ«إسرائيل» كدولة لليهود فقط، ممَّا يعكس الامتدادَ الفِكريَّ للنصوص التَّلمودية في التَّشريعِ الصُّهيونيّ الحديثِ[٤].

٥. خُلَاصَةُ المبَحَث:

يظهر من خلال هذا التحليل أنَّ التَّلمودَ لعب دورًا رئيسيًّا في تطويرِ مفهومِ «الآخر» في الفِكر

١ - التلمود البابلي، كتوبوت ٢٤ ب، التلمود البابلي، ج ٤، ص٧٧.
٢ - التلمود البابلي، ترجمة يعقوب بن سينا، ج ٢، ص ١٨٧.
٣ - أبراهام كوك: أروت، دار الكتب اليهودية، ص٢٩.
٤ - شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي، ص٣٠١.

اليهوديّ، حيث أُرسي تصنيفاتٍ مختلفةً لغير اليهود، وقدَّم تشريعاتٍ صارمةً تحكمُ علاقتهم بالمجتمعِ اليهوديّ. وقد تمَّ استغلال هذه الأفكارِ في الخطابِ الصُّهيوني الحديثِ، ممَّا أدَّى إلى ترسيخِ سياساتِ التمييز والعَزل ضدَّ الفلسطينيين والعالم العربي.

ثَالثًا: تَطَوُّرُ مَفهُوم «الآخَر» في الفكرِ الدّينيّ اليَهُوديّ عَبرَ التَّاريخ

لم يكن مفهومُ «الآخر» في الفكرِ الدّينيّ اليهودي ثابتًا عبرَ العصورِ، بل شهدَ تحولاتٍ كبيرةً نتيجةً للظروفِ التَّاريخيَّةِ والسياسيَّةِ التي مرت بها الجماعاتُ اليهوديَّةُ. فمنذ العصور القديمةِ وحتى العصر الحديث، انعكست السياقاتُ الاجتماعيَّةُ والسياسيَّةُ على تفسير النُّصوص الدينيَّةِ، ممَّا أدَّى إلى تعديلاتٍ جوهريَّةٍ في رؤيةِ اليهود لغيرهم. في هذا المبحث، نستعرضُ تطورَ مفهومِ «الآخر» في الفكرِ الدينيّ اليهوديّ، مع التركيزِ على التحولاتِ التي طرأت عليه خلال فترات الشتاتِ اليهوديّ، وتأثير العواملِ الثقافيَّة والمجتمعيَّة على إعادة تشكيل هذه الرؤية، وأخيرًا العلاقة بين الفكرِ الديني اليهودي والصراعات السياسيَّة الحديثةِ.

١. مَفهُومُ «الآخَر» في اليَهُودِيَّةِ القَديمَة:

يَعودُ التَّصور الأوَّلي للآخر في الفكرِ اليهودي إلى العصورِ التَّوراتيَّةِ، حيثُ تم تصنيف غير اليهود إلى مجموعتين رئيسيتين: الأعداء الذين يجبُ إبادتهم أو استعبادهم، والغرباء الذين يمكن التعايش معهم بشروط. وقد تجلَّى ذلك في نُصوصِ التَّوراة، كما في قوله: «حين تَقرُب من مدينةٍ لكي تحاربها استدعها إلى الصُّلح، فإن أجابتك إلى الصُّلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتَّسخير ويُستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها»[1].

كما نصَّت التَّوراةُ على ضرورة مَحو بعض الشعوب من الوجود، كما في الأمر الإلهي الموجه إلى بني إسرائيل بشأن العمالقة: «اذكر ما فعله بك عماليق ... حين يريحك الرب إلهك من جميع أعدائك حولك في الأرض التي يُعطيك الرب إلهك نصيبًا لترثَها، تمحو ذِكر عماليق من تحت السماء، لا تنسَ»[2].

---

١ - العهد القديم، سفر التثنية، ١٠:٢٠-١٢.

٢ - العهد القديم، سفر التثنية، ١٧:٢٥-١٩.

في هــذه المرحلة، كان مفهوم «الآخر» يتمحور حولَ الــصراع الديني والقبلي، حيثُ تم ربط الشعوب الأخرى بالكُفر والعداوة المطلقة، ممَّا أسس لنظرة متشددة تجاههم.

٢.التَّغَيُّرَاتُ فِي العُصُورِ الوُسطَى.. مِن العَدَاءِ إِلَى الانعزَال:

مع دُخول اليهودِ في فتراتِ الشتات، تغيَّرت رؤيتهم للآخر بفعلِ العوامل التَّاريخيَّة والسياسيَّة. فقد فَرضت عليهم المجتمعاتُ الأوروبيَّةُ والعربيَّةُ قيوداً اجتماعيَّةً ودينيَّةً، ممَّا عزَّز لديهم الشعورَ بالتميُّز الديني والثقافي. ونتيجة لذلك، تحولت النظرة إلى «الآخر» من كونه عدوًّا يجبُ القضاءُ عليه إلى كونه عنصرًا غريبًا يجب تَجنُبه.

في هذا الســياق، ســاهم التَّلمود في تأطير هذه الرؤية، حيثُ جاء فيــه: «من يثق في الغريب كمن يضع ماله في جيبٍ مثقوب»[١]. كما شــدَّد على ضرورة الابتعاد عن غير اليهود في الشؤون الدينيَّة والاجتماعيَّة، كما في النَّص القائل: «لا تُصادق الأغيار، فإنَّهم لا يؤتمنون على العهد»[٢].

في المجتمعــات الإســلاميَّة، كانت العلاقــةُ بين اليهود وغيرهــم أقلَّ توترًا مــما كانت عليه في أوروبا، حيث سُــمح لهــم بالعيش في أحياءٍ خاصة بهم (المــلَّات)، ولكن ذلك لم يغيّر من التصورات الدينيَّة لديهم، حيثُ اســتمر التمييز بين اليهــودي وغير اليهودي في القوانين الدينيَّة اليهوديَّة، كما في فتوى (موسى بن ميمون) التي تنص على أن: «لا يجوز لليهودي أن يتشارك مع الغريب في عمل إلا إن كان ذلك في مصلحة شعب إسرائيل»[٣].

٣.الفِكرُ الدِّينِيُّ اليَهُودِيُّ وَالصِّرَاعَاتُ السِيَاسِيَّةُ الحَدِيثَةُ:

مع ظهــورِ الحركة الصُّهيونية في أواخر القرن التاســع عشر، حدثَ تحــوُّل جذري في مفهوم «الآخر». فبينما كان اليهودُ في الشَّتات يعتمدون على مبدأ العُزلة لحماية أنفسهم، جاءت الصُّهيونية وأعادت توظيفَ المفاهيم الدينيَّة لإضفاء شرعيَّة على المشروع الاســتيطاني في فلســطين.

بدأ القادةُ الصَّهاينة باســتخدام النُّصوص التَّوراتيَّة والتَّلمودية لتبرير الاستيلاء على الأراضي

١ - التلمود البابلي، ج٤، ص٧٦.
٢ - التلمود البابلي، أبوداه زارا ٢٦ ب، التلمود البابلي، ج٥، ص١١٢.
٣ - موسى بن ميمون: مشناه توراة، ج١، ص٢٣٣.

الفلسطينية. ففي خطاب لـ(ديفيد بن غوريون)، أول رئيس وزراء للكيان «الإسرائيلي»، قال: «إنَّنا نستمد حقوقنا في هذه الأرض من التَّوراة، فقد أعطاها الله لآبائنا»[١].

كما استخدمت الجماعات الصُّهيونية الدينيَّة، مثل حركة «غوش إيمونيم»، نصوصًا من التَّلمود لتبرير الاستيطان، حيث اعتبروا الفلسطينيين بمثابة «الكنعانيين الجُدد»، وهو ما انعكس في تصريح الحاخام (أبراهام إسحق كوك): «الأغيار في هذه الأرض هم مجرد عابري سبيل، أمَّا نحن فمُلاكها الشرعيون»[٢].

٤. تَأثيرُ الفكرِ الدّينيّ عَلَى القَوَانين وَالسّيَاسَات «الإسرَائيليَّة»:

يظهر تأثير الفكر الديني اليهودي بوضوح في القوانين «الإسرائيلية» التي تُميّز بين اليهود وغير اليهود. فمثلاً، قانون «الدولة القومية للشعب اليهودي» الصادر عام ٢٠١٨، ينصُّ على أنَّ «حق تقرير المصير في دولة «إسرائيل» هو حصري للشعب اليهودي»، مما يعكس الامتداد الفكري للنصوص التَّوراتيَّة والتَّلموديَّة في التشريع الصهيوني الحديث[٣].

٥. الخُلَاصَةُ وَالاستنتَاجُ:

يظهر من خلال هذا التحليل أنَّ مفهومَ «الآخر» في الفكر الديني اليهودي قد مرَّ بمراحل متعددة، حيثُ بدأ بتصورٍ عدائيّ صريح في العصور التَّوراتيَّة، ثم تحول إلى مبدأ العُزلة في العصور الوُسطى، ليعود لاحقًا إلى فكرٍ استيطاني تبريري في العصر الحديث. وقد لعبت النصوص الدينيَّة دورًا جوهريًّا في تشكيل هذه الرؤية، مما انعكس على السياسات الصهيونية تجاه الفلسطينيين والعالم العربي.

رَابعًا: الفكرُ الصُّهيُونيُّ وَالتَّوظيفُ السيَاسيُّ للنُّصُوص الدّينيَّة

شَهدَ الفكرُ الصُّهيوني تطورًا ملحوظًا في طريقةِ توظيفه للنُّصوص الدينيَّة، حيثُ اعتمد على

١ - ديفيد بن غوريون: مذكرات بن غوريون، ص١١٢.
٢ - أبراهام كوك: أروت، ص٢٩.
٣ - شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي، ص٣٠١.

التَّـوراة والتَّلمود في بناءِ مبرراته الأيديولوجية، خاصةً فيما يتعلَّقُ بمسـألة الاسـتيطان واحتلال فلسـطين. فمُنذ نشـأته، حاول المشروع الصهيوني الدَّمـجَ بين القوميَّة والديـن، ممَّا أدَّى إلى استخدام مُكثَّف للمرجعيَّات الدينية لتبرير الأهداف السياسية، سواء من قِبل المفكرين الصَّهاينة الأوائل أو الحاخامات الذين تبنوا هذا المشروع.

يهدفُ هذا المَبحثُ إلى تحليل كيفيَّة توظيف الصُّهيونية للنُّصوص الدينية اليهودية، وخاصة تلك المتعلقة بفكرة «أرض الميعاد»، و«الشعب المختار»، و«الآخر». كما يناقش كيفية دمج هذه المفاهيم في الخطاب السياسي «الإسرائيلي»، ممَّا أثَّر بشكل مباشر على السياسات الاستيطانية والتمييزية ضد الفلسطينيين.

١ .التَّورَاةُ وَالتَّلمُودُ كَأَسَاسٍ أَيدُيُولُوجيّ لِلصُّهيُونيّة:

لطالما استندت الصُّهيونية إلى نصوص التَّوراة والتَّلمود لتبرير مطالبها، حيثُ اعتبر المؤسسون الصَّهاينة أنَّ هذه النصوصَ توفر أساسًا دينيًّا للاستيطان وإقامة الدولة اليهودية.

أ. وَعَدُ الله لِإبرَاهِيمَ وَشَرعِيَّةُ الاستِيطَان:

يُعدُّ وعد الله لإبراهيم بأرض كنعان أحد الركائز الأساسية التي استندت إليها الصُّهيونية، فقد جاء في التوراة: «لنسلك أُعطي هذه الأرض»[١].

استخدم الزعماءُ الصَّهاينة هذا النصَّ للتأكيد على «الحق التاريخي» لليهود في فلسطين، كما ورد في تصريح (ديفيد بن غوريون): «إننا نستمد حقوقنا في هذه الأرض من التوراة، فقد أعطاها الله لآبائنا»[٢].

ب. فِكرَةُ «الشَّعب المُختَار» كَمُبرّر سِيَاسِيّ:

يُؤكد الفكر التَّوراتي على أنَّ بني إسرائيل هم «شـعب الله المختار»، وهو ما يتجلى في قوله: «لأنَّك أنت شـعب مقدَّس للرب إلهك، إياك اختار الرب إلهك لتكون له شعبًا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض»[٣].

---

١ - العهد القديم، سفر التكوين، ١٢:٧.
٢ - ديفيد بن غوريون: مذكرات بن غوريون، ص١١٢.
٣ - العهد القديم، سفر التثنية، ٦:٧.

هذا المفهومُ لم يبقَ مجردَ فكرة دينيَّة، بل تحوَّل إلى مبدأٍ سياسي أساسي للصهيونية، حيثُ برَّر السياسات «الإسرائيليةَ» التَّوسُّعية والإقصائية ضد الفلسطينيين والعرب.

ج. التَّلمُودُ وتَرسِيخُ فِكرَةِ التَّمييزِ بَينَ اليَهُودِ وَالأَغيَار:

يحتوي التَّلمود على العديد من الأحكام التي تُعزز فكرةَ التفوق اليهودي على غير اليهود، كما في النَّص القائل: «أنتم تُدعون الإنسان، أمَّا الأمم الأخرى فليست إلا بهائم»[1].

وقد استخدمَت الجماعاتُ الصُّهيونيةُ الدينيَّة هذا المبدأَ لتبرير المعاملةِ التَّمييزية ضد الفلسطينيين، وهو ما تَجسد في السياسات «الإسرائيلية» تجاههم.

٢. كَيفَ بَرر الفِكرُ الصُّهيُوني سِيَاسَاته تَجَاه غَيرِ اليَهُودِ اِستِنَادًا إِلَى النُّصُوصِ الدّينِيَّة؟:

أ. الاِستِيطَانُ بِوَصفِه «وَاجِبًا دِينِيًّا»:

اعتمدت الصُّهيونية على تفسيرٍ ديني لنُصوص التَّوراة والتَّلمود لتبرير الاستيطان، حيثُ اعتبر الحاخاماتُ أنَّ الاستيطان في فلسطين هو تنفيذٌ لوعدٍ إلهيّ. وقد وردَ في فتوى للحاخام (أبراهام كوك): «الاستيطان في أرض 'إسرائيل' ليس مجرد حق، بل هو واجب مقدس»[2].

وقد أدَّى هذا التفسير إلى شرعنة بناءِ المُغتصبات في الأراضي الفلسطينية، حتى بعد الاحتلال «الإسرائيلي» عام ١٩٦٧، حيثُ دعمت الحركات الصُّهيونية الدينيَّة مثل «غوش إيمونيم» هذه السياسة باعتبارها تنفيذًا لأوامر دينية.

ب. التَّعَامُلُ مَعَ الفِلَسطِينِيّين بِوَصفِهِم «الآخَرَ المَرفُوض»:

يرى الفِكر الصُّهيوني أنَّ الفلسطينيين يمثلون «الآخر» الذي يجب طرده أو إخضاعه، وهو ما تم تبريره استنادًا إلى نُصوص تَّلمودية، مثل ما ورد في التَّلمود: «لا عهد ولا سلام مع ذريَّة عماليق، فإنَّهم إلى يوم القيامةِ أعداءٌ لشعب الله»[3]. وقد انعكس هذا الموقف على السياسات «الإسرائيلية»، مثل قانون «يهودية الدولة»، الذي يُكرس التفوقَ اليهوديَّ في «إسرائيل» ويمنع الفلسطينيين من حقوق متساوية.

---

١ - التلمود البابلي، سنهدرين ٣٧ أ، التلمود البابلي، ج٢، ص٥٦.

٢ - أبراهام كوك: أروت، ص٤٢.

٣ - التلمود البابلي، سنهدرين ٩٩ ب، التلمود البابلي، ج٥، ص٣١٢.

٣.مَوقفُ الحَرَكَات الصُّهيُونيَّة المُختَلفَة من «الآخَر»:

أ. الصُّهيُونيَّةُ العلمَانيَّةُ وَالتَّوظيفُ السِيَاسِيُّ لِلدِّين:

رغــم أنَّ الحركةَ الصُّهيونيــةَ بدأت كحركةٍ علمانية، إلَّا أنَّها سُرعان ما لجأت إلى التفسـيرات الدينيــة لتبرير وجودِها. فقد أدرك القادةُ الصُّهاينــةُ أهميةَ الدين في تعبئةِ اليهود حول مشروعهم القوميّ، وهو ما ظهر في تصريحات (هرتزل) الذي قال: «إن لم يكن هناك إله، فيجب أن نخترعَ واحدًا لإقامة دولتنا»[١].

ب. الصُّهيُونيَّةُ الدّينيَّةُ وَتَوظِيفُ التَّلمُود:

أمَّــا الحركات الصُّهيونيــة الدينيَّة، فقد لعبــت دورًا محوريًّا في دمج الدين بالسياســة، حيثُ اعتبرت أنَّ تأسـيسَ الكيان «الإسرائيلي» وتنفيذ السياسات الاستيطانية جزءٌ من خطة إلهية. وقد أكــد الحاخام (مئير كاهانا) على ذلك بقوله: «لا مكان للأغيــار في أرض 'إسرائيل'، فقد منحها الله لنا وحدنا»[٢].

٤ .الخُلَاصَةُ وَالاستنتَاجُ:

يتضحُ من خلال هذا التحليلِ أنَّ الفكرَ الصُّهيونيَّ اعتمد بشــكلٍ كبير على النُّصوص الدينيَّة اليهودية لتبرير سياساته، ســواء في مسألة الاستيطان أو في التعامل مع الفلسطينيين. وقد لعبت التَّوراة والتَّلمود دورًا رئيســيًّا في صياغة هذا الخطاب، مما ســاهم في ترسيخِ سياسات التَوسُّع والتمييز في «إسرائيل».

خَامسًا: السّيَاسَاتُ «الإسرائيلية» تَجَاه الفلسطينيِّينَ عَلَى ضَوءِ الفكرِ الدّينيّ

منذ تَأسـيس الكيــان «الإسرائيلي» عــام ١٩٤٨، تَشــكَّلت السياســاتُ «الإسرَائيليَــة» تجاه الفلسطينيين بناءً على مزيجٍ من الأيديولوجيا الصُّهيونية والرؤية الدينيَّة التَّوراتية والتَّلمودية التي تُصور الفلســطينيين كـ«آخرٍ» يجب إقصاؤه أو إخضاعه. هذه السياسات لم تكن مجردَ قراراتٍ سياسيَّةٍ آنيَّة، بل امتدت جذورها إلى النُّصوص الدينيَّة اليهوديَّة التي تدعو إلى السيطرةِ على «أرض

١ - ثيودور هرتزل: دولة اليهود، ص٨٧.

٢ - مئير كاهانا: يهودية بلا مساومة، ص١٤٤.

الميعاد» واستبعاد غير اليهود منها، حيثُ تم توظيف هذه المفاهيم في القوانين والتشريعات «الإسرائيلية» التي تُعزز التمييز ضد الفلسطينيين.

يسعى هذا المَبحَثُ إلى تحليل السياسات «الإسرائيلية» تجاه الفلسطينيين على ضوء الفكر الديني اليهودي، من خلال استعراض ثلاثة محاور رئيسية: الاستيطان وادعاءات «الأرض الموعودة»، التمييز القانوني والاجتماعي ضد الفلسطينيين، وأخيرًا تأثير المرجعيات الدينية على السياسات الأمنية والعسكرية «الإسرائيلية».

١. الاستيطَانُ وَادعَاءَاتُ «الأَرضِ المَوعُودَة»:

أ. التَّبرِيرُ الدّينِيُّ للاستِيطَان:

يُعتبر الاستيطانُ اليهوديُّ في فلسطين من أبرز الممارسات التي استندت إلى مُبررات دينيَّة. فقد وظَّف الكيان «الإسرائيلي» النُّصوص التَّوراتية والتَّلمودية لتبرير الاستيطان، واعتبرت أنَّ الأرضَ «هبة إلهية» يجب استعادتها. فقد جاء في التوراة: «لنَسلِك أُعطي هذه الأرض»[١].

وقد أكَّد الزعماءُ الصهاينةُ على هذا المبدأ، حيثُ قال (دافيد بن غوريون): «لا يمكننا التفاوض بشأن أرض 'إسرائيل'، فهي ليست مجرد أرض، بل وعد إلهي لنا»[٢].

ب. الحَاخَامَاتُ وَالسِيَاسَاتُ الاستِيطَانِيَّةُ:

لعبت المرجعيَّاتُ الدينيَّة اليهوديَّة دورًا مهمًّا في دعم الاستيطان، حيثُ أصدر العديدُ من الحاخامات فتاوَى تُبرر بناءَ المُغتصبات على الأراضي الفلسطينية، مثل الحاخام (مئير كاهانا) الذي قال: «لا مكان للأغيار في أرض 'إسرائيل'، فإنَّها ملك للشعب اليهودي وحده»[٣].

كما اعتبر الحاخام (أبراهام كوك)، وهو أحد مؤسسي الصُّهيونية الدينية، أنَّ الاستيطانَ واجبٌ دينيٌّ، حيث قال: «الاستيطان في أرض 'إسرائيل' ليس مجرد حق، بل هو واجب مقدس يجب أن يؤديه كلُّ يهودي»[٤].

---

١ - العهد القديم، سفر التكوين، ١٢:٧، ص٨٨.
٢ - ديفيد بن غوريون: مذكرات بن غوريون، ص١٤٣.
٣ - مئير كاهانا: يهودية بلا مساومة، ص١٩٨.
٤ - أبراهام كوك: أروت، ص٥٥.

ج. الاِستِيطَانُ بَعدَ عَامِ ١٩٦٧م وَتَوسِيعُ «أَرضِ إسرائيل الكُبرَى»:

بعـد احتلال الضفة الغربيَّة وقطاع غزة عام ١٩٦٧م، تصاعدت عمليات الاسـتيطان بشـكلٍ كبـير، حيثُ تبنَّت الحكومة «الإسرائيلية» مفهوم «أرض إسرائيل الكبرى»، وهو مفهوم مسـتمد من النصوص التوراتية. فقد جاء في التوراة: «كل موضع تطؤه بطون أقدامكم يكون لكم»[١].

وقد قامت الحكومات «الإسرائيلية» المتعاقبة بتوسـيع المغتصبات بشكل مُمَنهج، في إطار خطة تهدف إلى تقليص الوجود الفلسـطيني في الضفة الغربية. وقد أشار الباحث «الإسرائيلي» (إسرائيل شاحاك) إلى أنَّ «التوسع الاستيطاني في الأراضي الفلسطينية هو تطبيقٌ عملي للمفاهيم التَّوراتية المتعلقة بامتلاك الأرض»[٢].

٢. التَّمييزُ القَانُونيُّ وَالاجتمَاعِيُّ ضِدَّ الفلَسطِينِيّينَ

أ. قَانُونُ «الدَّولَةِ القَومِيَّةِ لِلشَعبِ اليَهُودِيّ» كَأَدَاةٍ تَمييزِيَّةٍ

في عام ٢٠١٨م، أقرَّ الكنيست «الإسرائيلي» قانون «الدولة القومية للشعب اليهودي»، الذي ينـص على أنَّ «حق تقرير المصير في دولة 'إسرائيل' هو حصري للشـعب اليهودي»، ممَّا يعني إقصاء الفلسطينيين عن حقوق المواطنة الكاملة[٣].

ب. قَوَانِينُ مُصَادَرَةِ الأَرَاضِي:

تُعتبر القوانين «الإسرائيلية» الخاصَّةُ بمصادرة الأراضي الفلسطينية مثالاً صارخًا على التمييز القانوني، حيثُ تسـتند هذه القوانين إلى فتاوَى دينية تَعتبر أنَّ «الأرض ملك للشـعب اليهودي وحده، ولا يجوز للأغيار المطالبة بها»[٤].

٣. تَأثِيرُ المَرجعِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ عَلَى السِّيَاسَاتِ الأَمنِيَّةِ وَالعَسكَرِيَّةِ:

أ. اِستِخدَامُ الدِّينِ فِي تَبرِيرِ القَمعِ العَسكَرِيّ:

اعتمد الكيان «الإسرائيلي» على التفسيرات الدينية في تبرير سياساتها القمعية ضد الفلسطينيين،

١ - العهد القديم، سفر التثنية، ٢٤:١١.
٢ - إسرائيل شاحاك: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية: عبء ثلاثة آلاف سنة، ص٢٧٨.
٣ - شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي، ص٣٠١.
٤ - التلمود البابلي، سنهدرين ٩٩ ب، التلمود البابلي، ج٥، ص٣١٢.

حيثُ استخدمت بعضَ النُّصوص التَّوراتية لتبرير العمليات العسكرية، مثل ما ورد في سفر يشوع: «لا تتركوا نفسًا حية، بل استأصلوا كل ما في المدينة»[1].

ب. الحَاخَامَاتُ وَفَتَاوَى القَتلِ الجَمَاعِيّ:

أصدرَ العديدُ من الحاخاماتِ فتاوَى تدعو إلى قتل الفلسطينيين بناءً على تفسيرات دينيَّة، ومنهم الحاخام «يتسحاق شابيرا»، الذي قال: «قتل غير اليهودي، حتى الأطفال منهم، جائزٌ في الحرب، لأنَّهم قد يكبرون ليكونوا أعداءً لنا»[2].

٤. الخُلَاصَةُ وَالاستِنتَاجُ:

يَظهرُ من خلال هذا التحليل أنَّ السياساتِ «الإسرائيليةَ» تجاه الفلسطينيين ليست مجرد قرارات سياسيَّة بحتة، بل هي امتدادٌ لتفسيرات دينية تم توظيفها منذ تأسيس الكيان. فقد تم استخدام النصوص التَّوراتية والتَّلمودية لتبرير الاستيطان، ومُصادرة الأراضي والتمييز القانوني، بل وحتى القتل الجماعي. وهذا يعكس التداخلَ العميقَ بين الدينِ والسياسةِ في الكيان «الإسرائيلي»، ممَّا يُفسر استمرارَ السياسات القمعيَّة تجاه الفلسطينيين.

سَادسًا: الخطَابُ الصُّهيُونيُّ المُعَاصِرُ وَإِعَادَةُ إنتَاجِ صُورَة «الآخَر»

شهَدَ الخطابُ الصُّهيوني تطورًا كَبيرًا منذُ نشأة الحركة الصُّهيونية وحتى اليوم، حيثُ انتقل من كونه خطابًا يستند بشكل أساسي إلى التبريرات الدينيَّة المُستَمَدة من التَّوراة والتَّلمود إلى خطاب سياسيّ وإعلامي يُوظّف هذه المفاهيم بأساليب حديثة تتماشى مع الواقع الدولي. وقد أَدَّى هذا التطورُ إلى إعادةِ إنتاج صورة «الآخر» (غير اليهودي) بأساليب جديدة، تجمع بين إستراتيجيات الإعلام، والتعليم، والسياسات الرَّسمية، ممَّا عزز النظرة التمييزية تجاه الفلسطينيين والعرب.

يَهدفُ هذا المَبحَثُ إلى تحليل آليَّاتِ إعادة إنتاج صورة «الآخر» في الخطاب الصُّهيوني المعاصر، من خلال استعراض ثلاثة محاور رئيسية: خطاب الكراهية والشيطنة في الإعلام

١ - العهد القديم، سفر يشوع، ٦:٢١.

٢ - يتسحاق شابيرا: التوراة والملك، ص٦٧.

والتعليـم «الإسرائيلي»، تأثير الفكر الديني على العلاقات «الإسرائيلية» مع الدول غير اليهودية، والمواقف الصهيونية المتباينة بين الأيديولوجية الدينية والعلمانية.

١. خطَابُ الكرَاهيَة وَالشَّيطنَة في الإعلاَم وَالتَّعليم «الإسرائيلي»:

أ. الإعَلاَمُ «الإسرائيلي» وَتكريسُ الصُّورَة النَّمَطيَّة للفلسَطينيّينَ:

لعـبَ الإعلامُ «الإسرائيلي» دورًا رئيسـيًّا في تكريس صورة الفلسـطيني كعـدو خطر، حيثُ اسـتخدمت القنواتُ التلفزيونيـة والصحفُ «الإسرائيلية» مصطلحات دينيةً وسياسـيةً لوصف الفلسـطينيين بعبارات مثل «الإرهابيين»، و«المخربين»، و«أحفاد العمالقة». وقد استندت هذه الصـورة إلى نصـوص دينية تُعزز فكرةَ العداء، كما في سـفر يشـوع: «لا تتركوا نفسًـا حيةً، بل استأصلوا كل ما في المدينة»[١].

كما سـاهمت الأفلامُ الوثائقيَّـةُ والبرامج الحواريَّة في ترسـيخ هذه الصـورة، حيثُ صوَّرت الفلسـطينيين على أنَّهم تهديـدٌ وجوديٌّ لـ«إسرائيل». ويشـير الباحـث «الإسرائيلي» (إسرائيل شاحاك) إلى أنَّ «الإعلام 'الإسرائيلي' يتبنى خطابًا يعتمد على التخويف من الفلسطينيين، ويستند إلى نصوص دينيَّة لإضفاء شرعية على قمعهم»[٢].

ب. المنَاهِجُ التَّعلِيمِيَّةُ في «إسرائيل» وَتَعزيزُ التَّمييز:

إلى جانب الإعلام، تلعب المناهجُ الدراسيَّةُ «الإسرائيلية» دورًا كبيرًا في تشكيل وعي الأجيال القادمة تجاه الفلسـطينيين والعرب. إذ يتم تقديم الرواية الصُّهيونية على أنَّها «التاريخ الرسمي»، بينما يُصوّر الفلسـطينيون كغُزاة أو محتلين للأرض اليهودية. وتظهرُ هذه التَّوجُّهات في الكُتب المدرسية، حيثُ يتم التأكيد على أنَّ «أرض إسرائيل هي ملك لليهود فقط، وأن الأغيار لا يملكون أي حق فيها»[٣]. وقد خلصت دراسات متعددة إلى أنَّ المناهجَ التعليميةَ «الإسرائيلية» تُعزز صورةَ الفلسطينيين كعدو دائم، وتُبرر سياسات الاستيطان والتمييز ضدهم[٤].

---

١ - العهد القديم، سفر يشوع، ٦:٢١.
٢ - إسرائيل شاحاك: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية-عبء ثلاثة آلاف سنة، ص٣١٢.
٣ - وزارة التعليم «الإسرائيلية»، التاريخ اليهودي للصف الخامس، ص٨٨.
٤ - شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي، ص ٢٧٨.

٢. تَأثيرُ الفكرِ الدّينيّ عَلَى العَلاَقَاتِ «الإسرائيلية» مَعَ الدُّوَلِ غَيرِ اليَهُودِيَّة:

أ. اِستِخدَامُ المَفَاهِيمِ الدّينيَّةِ في العَلاَقَاتِ الدَّوليَّة:

يعتمد الكيانُ «الإسرائيلي» في علاقاته الخارجية على خطاب ديني موجه نحو الدول الغربية، حيثُ يسعى إلى تعزيز صورته كدولة «الشعب المختار» التي تُحقق نبوءات تَوراتية. وقد صرَّح رئيس وزراء الكيان «الإسرائيلي» (بنيامين نتنياهو) في أكثر من مناسبة بأنَّ «'إسرائيل' ليست مجرد دولة، بل هي تحقيق لنبوءة توراتية»[١]. وقد انعكسَ هذا الخطابُ على العلاقات بين «إسرائيل» والولايات المتحدة، حيثُ تحظى «إسرائيل» بدعمٍ كبيرٍ من الجماعات المسيحيَّةِ الإنجيلية التي تؤمن بأنَّ قيامَ «إسرائيل» هو شرطٌ لتحقيق نبوءات الكتابِ المُقدَّس.

ب. النَّظرَةُ الصُّهيونيَّةُ لِغَيرِ اليَهُودِ «الأغيار» في العَلاَقَاتِ الدّوليَّة:

رغم أنَّ «إسرائيل» تسعى لتقديم نفسها كدولةٍ حديثةٍ وديمقراطية، إلَّا أنَّ الفِكرَ الدينيَّ التَّلموديَّ لا يزال يؤثر على سياساتها تجاه غير اليهود. ففي التَّلمود، ورد: «الغريب الذي لا يعترف بشريعة إسرائيل يجب أن يُعامل بحذر، لأنَّ الله ميَّز شعبه عن بقية الأُمم»[٢].

وقد انعكسَت هذه النظرة في سياسات «إسرائيل» تجاه اللاجئين والمهاجرين غير اليهود، حيثُ يتم تفضيل اليهودِ في قوانين الهجرة والإقامة، بينما يتم تقييد دخول غير اليهود، خاصَّةً من الدول العربية والإفريقية.

٣. المَوَاقِفُ الصُّهيُونيَّةُ المتُبَاينَةُ بَينَ الأَيدُيُولُوجيَّةِ الدّينيَّةِ وَالعِلمَانيَّة:

أ. التَّيَّارُ الدّينيُّ الصُّهيُونيُّ.. رَفضُ الاندِمَاجِ مَعَ الأغيار:

تُمثّل الأحزابُ الصُّهيونية الدينية مثل: «شاس» و«المفدال» التيار الأكثر تشددًا في رفض الاعتراف بحقوقِ غير اليهود في «إسرائيل». حيثُ يدعو هذا التيار إلى تطبيق الشريعة اليهوديةِ في القوانين، ويرفض أيَّ تنازلات سياسية تتعارض مع التفسيرات الدينية للنُّصوص التَّوراتية.

ب. التَّيَّارُ العِلمَانيُّ الصُّهيُونيُّ: تَوظِيفُ الدّينِ لِخِدمَةِ الأَهدَافِ السِيَاسِيَّة:

على الجانب الآخر، تتبنى الأحزابُ الصُّهيونية العِلمانية مثل «الليكود» و«كاديما» موقفًا

---

١ - بنيامين نتنياهو: مكان تحت الشمس، ص٩٨.

٢ - التلمود البابلي، ج١، ص٢٣٣.

براغماتيًا، حيثُ تستخدم الدينَ كأداةٍ سياسيةٍ لتعزيز الهُوية القومية، لكنها لا تلتزم بالضَّرورة بالتَّفسيرات الدينية المتشددة. وقد عبرَّ (دافيد بن غوريون) عن هذا التوجه بقوله: «نحن لسنا بحاجةٍ إلى الدين، لكنَّنا بحاجة إلى رموزه لإبقاء وحدة الشعب»[1].

٤. الخُلَاصَةُ وَالاستنتَاجُ:

يَظهر من خلال هذا التحليل أنَّ الخطابَ الصُّهيونيَّ المعاصرَ يعتمد بشكلٍ كبيرٍ على إعادة إنتاجِ صورةِ «الآخر»، سواء من خلال الإعلام والتعليم، أو العلاقات الخارجية. وقد ساهمت النُّصوص الدينيَّةُ في تعزيز هذه الرؤية، ممَّا أدَّى إلى استمرار سياسات التمييز والإقصاء ضد الفلسطينيين. وبينما تَتباين المواقفُ بين الصُّهيونيةِ الدينيةِ والعِلمانيةِ، إلَّا أنَّ كليهما يُوظف الدينَ لخدمةِ الأهداف السياسيَّة والإستراتيجيَّة لـ«إسرائيل».

سَابِعًا: التَّفسيراتُ الحَديثَةُ للنُّصُوصِ الدّينيَّة وَتَأثيرُهَا عَلَى الفكر الصُّهيُونيّ

شَهدت التفسيراتُ الدينيةُ للنُّصوص اليهودية تحوُّلات كبيرةً منذ العصور التَّوراتيَّة وحتى العصر الحديث، حيثُ لعبت هذه التَّفسيراتُ دورًا محوريًّا في تشكيل الفكر الصُّهيوني والسياسات «الإسرائيلية» تجاه الفلسطينيين والعالم العربي. ومع ظهور الحركة الصُّهيونية، أُعيدَ تأويل النُّصوص الدينيَّة بشكلٍ يخدم الأيديولوجيا القومية، حيثُ جرى استغلالُ نصوصَ التَّوراة والتَّلمود ليس فقط كمرجعيَّةٍ دينية، بل أيضًا كأساس سياسي لتبرير الاستيطان، وتهجير الفلسطينيين، وفرض السيطرة العسكرية.

يسعى هذا المَبحَثُ إلى تحليلِ التفسيرات الحديثة للنصوص الدينيَّة اليهودية، وكيفية استخدامها في دعم المشروع الصهيوني، مع التركيز على التحوُّلات التي طرأت على فَهم هذه النصوص في القرنين الماضيين، وتأثير هذه التفسيرات على القرارات السياسية والقانونية «الإسرائيلية»، إضافةً إلى الموقف النَّقدي الذي طرحه بعض المُفكرين اليهودِ إزاء هذه التفسيرات.

---

١ - ديفيد بن غوريون: مذكرات بن غوريون، ص١٥٦.

١. التَّحَوُّلَاتُ في تَفسيرِ النُّصُوصِ الدّينيَّةِ اليَهُودِيَّةِ عَبرَ العُصُورِ:

أ. التَّفسِيرُ التَّقليدِيُّ (الطَّابِعُ الدّينِيُّ الصِّرفُ):

في القرون الأولى، كان تفسيرُ النُّصوص التَّوراتية والتَّلمودية يعتمدُ على السِياقات الدينيَّة الصرفة، حيثُ كان التركيزُ الأساسي على الأحكام الشرعيَّة المُتعلقة بالعبادات والعلاقات الاجتماعية داخل المجتمع اليهودي. ولم يكن لهذه التفسيرات أبعادٌ قوميَّةٌ واضحةٌ، بل كانت تُركز على «النَّجاة الروحية» والالتزام بالشريعة اليهودية.

على سبيل المثال، فسَّر الحاخام (موسى بن ميمون) مفهومَ «أرض إسرائيل» تفسيراً روحيًا، حيثُ قال: «الأرض المقدسة ليست مجرد إقليم جغرافي، بل هي مفهوم روحاني يرتبط بقرب الإنسان من الله، وليس بالملكية السياسية»[١].

ب. التَّحَوُّلَاتُ في العَصرِ الحَديثِ (مِن الدّينِ إلَى القَوميَّة):

مع صُعودِ الفكرِ القومي في أوروبا في القرن التاسع عشر، بدأ تفسيرُ النُّصوص الدينية يتغير ليخدُمَ الأيديولوجيا الصُّهيونيَّة الناشئة. وقد قاد هذه التَّحوُّلات مجموعةٌ من الحاخامات والمُفكرين اليهود الذين سعوا إلى تقديم قراءةٍ جديدةٍ للنُّصوص التَّوراتية والتَّلمودية بما يتناسب مع المشروع القومي اليهودي. فعلى سبيل المثال، أعاد الحاخام (أبراهام كوك) تفسيرَ مفهومِ «أرض الميعاد» ليجعله أساسًا للمطالبةِ السياسية بإقامة دولةٍ يهوديَّة، حيثُ قال: «الأرض ليست مجرد ميراث، بل هي مسؤوليَّة مقدَّسةٌ، وإقامة دولة يهوديَّة ليست خيارًا سياسيًّا، بل واجب ديني»[٢]. وقد تبنت الحركات الصهيونية هذا التفسيرَ واعتبرته مبررًا شرعيًّا للاستيطان وتهجير الفلسطينيين، حيث استُخدمت آياتٌ مثل: «كل موضع تطؤه بطون أقدامكم يكون لكم»[٣] كدليل ديني على مشروعيةِ التوسع الاستيطاني.

٢. التَّفسيراتُ الحَديثَةُ وَتَأثيرُهَا عَلَى الفِكرِ الصُّهيُوني:

أ. الصُّهيُونِيَّةُ الدّينِيَّةُ وَإِعَادَةُ تَأوِيلِ النُّصُوص:

مع صُعود التيارات الصهيونية الدينية مثل: «غوش إيمونيم» و«حزب البيت اليهودي»، تم

---

١ - موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، ص٢٨٩.
٢ - أبراهام كوك: أروت، ص٥٥.
٣ - العهد القديم، سفر التثنية، ١١:٢٤.

تقديم تفسيرات أكثر تشددًا للنصوص الدينية، حيثُ ركزت هذه التفسيراتُ على أنَّ اليهودَ مكلفون دينيًّا باستعادة «أرض إسرائيل الكبرى»، حتى لو كان ذلك بالقوة.

وقد أصدر الحاخام (إسحق غينسبيرغ) فتوَى شهيرةً قال فيها: «قتل غير اليهود في أرض 'إسرائيل' ليس جريمة، بل هو تنفيذ لوصايا الرب بحماية الشعب المختار»[1].

وقد انعكس هذا التوجُّه في القوانين والسياسات «الإسرائيلية»، حيثُ استخدمت الحكومةُ «الإسرائيلية» هذه التفسيرات لتبرير التَّوسع الاستيطاني في الضفة الغربية، متجاهلةً القوانين الدولية التي تَعتبر الاستيطان غيرَ شرعي.

ب. التَّفسيراتُ الصُّهيُونِيَّةُ لِلنَّكبَةِ الفلَسطِينِيَّة:

في أعقاب نكبة ١٩٤٨م، حاول الفكرُ الصُّهيونيُّ تقديمَ تفسيرات دينيَّة لما حدث، حيثُ اعتبر الحاخام (زفي يهودا كوك) أنَّ تهجيرَ الفلسطينيين كان «تحقيقًا لنبوءات التوراة»، وقال: «كما طرد يشوع الكنعانيين، نحن اليوم نطرد من احتل أرضنا لقرون»[2].

٣.التَّفسيراتُ النَّقديَّةُ الحَديثَةُ في الأَوسَاط اليَهُودِيَّة:

أ. نَقدُ التَّفسيرات الصُّهيُونِيَّة مِن دَاخِلِ الفكرِ اليَهُودِيّ:

رغم هيمنة التفسيرات الصُّهيونية، إلَّا أنَّ هناك مفكرين يهودًا اعترضوا على هذا التوظيف السياسي للدين. ومن أبرز هؤلاء، (إسرائيل شاحاك) الذي قال: «الصُّهيونية لم تستخدم الدين إلَّا كأداة سياسية، ولو كانت تلتزم بالمبادئ الأخلاقية اليهودية لما شرعنت الاحتلال والتمييز العنصري»[3].

ب. مَوقِفُ الجَمَاعَاتِ اليَهُودِيَّةِ المُنَاهِضَة لِلصُّهيُونِيَّة:

تعُارض جماعاتٌ يهوديةٌ مثل «ناطوري كارتا» التفسيرات الصهيونيةَ للنُّصوص الدينية، وترى أنَّ إقامةَ دولة «إسرائيل» قبل قُدوم المسيح هو «تمردٌ على مشيئة الرب». وقد قال الحاخام (موشيه بيرغر): «الصُّهيونية هي تحريف للتوراة، وهي ليست سوى مشروع استعماري يتغطى بالدين»[4].

---

١ - إسحق غينسبيرغ: الشريعة والسياسة، ص٩٨.

٢- زفي يهودا كوك: "إسرائيل" والأغيار، ص٢٣١.

٣- إسرائيل شاحاك: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية-عبء ثلاثة آلاف سنة، ص٢٧٨.

٤ - موشيه بيرغر: الصهيونية ضد اليهودية، ص١٤٤.

٤. الخُلَاصَةُ وَالاستِنتَاجُ:

يتضح من خلال هذا التحليل أنَّ التفسيراتِ الحديثةَ للنُّصوص الدينيَّة اليهوديَّة لعبت دورًا رئيسيًّا في تشكيلِ الفكرِ الصُّهيوني والسياسات «الإسرائيلية». فقد تم الانتقال من التفسير الديني التقليدي إلى تأويلات قومية تخدم المشروعَ الصهيونيَّ، ممَّا أدَّى إلى تبرير سياسات الاستيطان، والتمييز، وتهجير الفلسطينيين.

ثَامنًا: أَثَرُ الفكرِ الدّينيّ اليَهُوديّ عَلَى السيَاسَاتِ العَسكَرِيَّة «الإسرائيلية»

لم تكن السياساتَ العسكرية «الإسرائيلية» مجردَ قراراتٍ تستندُ إلى اعتباراتٍ إستراتيجيةٍ وأمنيَّة، بل ارتبطت بشكلٍ وثيق بالفكر الديني اليهودي، الذي يُقدم مبرراتٍ دينيةً للحروب والتوسع والعدوان على الفلسطينيين والدول العربية. فقد لعبت التفسيراتُ التَّوراتيةُ والتَّلموديةُ دورًا حاسمًا في صياغة العقيدة العسكرية «الإسرائيلية»، حيث تم توظيف النُّصوص الدينيةِ لتبرير العملياتِ العسكريةِ -الاستيطان المسلح- وارتكاب جرائم الحرب ضد الفلسطينيين، بل وإضفاء طابع «القداسة» عليها.

يهدف هذا المَبحَثُ إلى تحليلِ العَلاقةِ بين الفكرِ الديني اليهودي والسياسات العسكرية «الإسرائيلية»، من خلال استعراض كيفية استخدام التَّوراةِ والتَّلمود في تبرير الحرب، دور الحاخامات في رسم العقيدة العسكرية، وأمثلة على الفتاوى الدينية التي أجازت القتلَ الجماعيَّ. كما يُناقش النقدَ الموجهَ إلى هذا التوظيف الديني للعُنف من داخل الأوساط اليهوديَّةِ وخارجِها.

١. التَّبريرَاتُ الدّينيَّةُ للحُرُوب في العَقِيدَةِ اليَهُودِيَّة:

أ. مَفهُومُ الحَربِ المُقَدَّسَةِ في التَّورَاة:

مُنذ العصورِ التَّوراتيَّة، تم تقديم الحرب كجزءٍ من الإرادةِ الإلهية، حيثُ أمر الربُّ بني إسرائيل بالقضاءِ على أعدائِهم واستئصالِهم بالكامل. فقد ورد في سِفر يشوع: «لا تتركوا نفسًا حيةً، بل استأصلوا كلَّ ما في المدينة، الرجال والنساء، الأطفال والشيوخ، حتى البهائم، بحد السيف»[1].

كما جاء في سفر التَّثنية أمر مباشر بالإبادة الجماعيةِ للشعوب غير اليهودية: «حين تدنو من

١ - العهد القديم، سفر يشوع، ٦:٢١.

مدينة لكي تحاربها، ادعها إلى الصلح، فإن لم تستجب، فاضرب جميع ذكورها بحد السَّيف»[١].

ب. التَّلمُودُ وَالتَّشرِيعُ العَسكَرِيُّ لِقَتلِ «الأَغيَارِ»:

في التَّلمـود، تم تعزيز مفهوم الحـرب ضدَّ غيرِ اليهود، حيثُ ورد في أحـدِ نصوصه: «الأُممُ الأُخرى ليسـت سـوى بهائم، ودمهم مباح»[٢]. وقـد انعكس هذا الفكرُ في العَقيدَة العسـكرية «الإسرائيلية»، حيثُ تم توظيفه في الحروبُ ضدَّ الفلسطينيين وفي تبرير الاغتيالات والاعتداءات العسكرية.

٢. دَورُ الحَاخَامَات في تَوجِيه العَقِيدَة العَسكَرِيَّة «الإسرائيلية»:

أ. فَتَاوَى دِينِيَّةٌ تُشَرّعُ القَتلَ الجَمَاعِيَّ:

أصدر عددٌ من الحاخاماتِ «الإسرائيليين» فتاوَى تدعو إلى قتلِ الفلسطينيين باعتبارهم «أعداءً شرعيين»، مستندين إلى نُصوص دينيةٍ توراتيةٍ وتلموديةٍ. ومن أبرز هذه الفتاوى:

فتوَى الحاخام «إسحق غينسـبيرغ»، التي نصّت على: «قتل غير اليهود، حتى الأطفال منهم، جائز في الحرب، لأنَّهم قد يكبرون ليكونوا أعداءً لنا»[٣].

فتوَى الحاخام «موشـيه فايجنر»، التي قال فيها: «كل فلسطيني في أرض 'إسرائيل' هو دخيل يجب طرده، وإذا قاوم فدمه مباح»[٤].

ب. تَأثِيرُ الفَتَاوَى عَلَى قَرَارَاتِ الجَيشِ «الإسرائيلي»:

اعتمدت القياداتُ العسـكريَّةُ «الإسرائيلية» على هذه الفتاوَى في تبريرِ عمليَّاتها العسـكرية، حيثُ تم تنفيذ اغتيالات واسعة بناءً على تفسيراتٍ دينيةٍ تَعتبر القادةَ الفلسطينيين «أعداء الرب». كـما أنَّ بعضَ الجنودِ تلقّـوا توجيهات دينية من الحاخامات قبل تنفيذ عمليات عسـكرية، مثل العدوان على قطاع غزة عام ٢٠٠٨م، حيثُ تم توزيع كتيبات دينية تحثُّ الجنودَ على «عدم إظهار الرحمة تجاه الأعداء، لأنَّ الربَّ قد أمر بذلك»[٥].

١- العهد القديم، سفر التثنية، ١٠: ٢٠-١٣.
٢- التلمود البابلي، سنهدرين ٣٧ أ، التلمود البابلي، ج٢، ص٥٦.
٣ - إسحق غينسبيرغ: الشريعة والسياسة، ص٩٨.
٤ - موشيه فايجنر: «إسرائيل» والتوراة، ص١٨٧.
٥- وزارة الدفاع «الإسرائيلية»، عقيدة الجيش اليهودي، ص١٩٩.

٣.استخدَامُ العَقيدَة الدّينيَّة في تَبرير جَرَائمَ الحَرب:

أ. تَبريرُ الغَارَاتِ الجَوّيَّة عَلَى قِطَاعِ غَزَة:

تتكرر في الحروب «الإسرائيلية» على غزة استخدام نصوص دينية لتبرير الغارات الجوية التي تستهدفُ المدنيين الفلسطينيين. ففي فتوى للحاخام (دوف ليئور)، قال: «إذا كانت حياة جندي يهودي مهددة، فمن المسموح قتل المدنيين غير اليهود لحماية الشعب المختار»[١].

ب. تَسميَةُ العَمَليّات العَسكَريَّة بأَسمَاء تَوراتيَّة:

دَأبَ جيشُ الاحتلال «الإسرائيلي» على استخدام رموز توراتيَّة لتسمية عملياته العسكرية، مثل:

-عملية «عمود السحاب» (٢٠١٢م)، وهي إشارة إلى المعجزة التوراتية في خروج بني إسرائيل من مصر.

-عملية «السيف المقدس» (٢٠٢١م)، والتي تشير إلى النص التوراتي القائل: «ورفع الرب سيفَه ليبيدَ الأُمم»[٢].

٤.الاستيطَانُ المُسَلَّحُ وَالعُنفُ ضدَّ الفلَسطينيّينَ:

أ. تَبريرُ هَجَمَاتِ المُستَوطِنينَ ضدَّ الفَلَسطِينيّينَ:

تستخدمُ الجماعاتُ الاستيطانيَّةُ المسلحة، مثل «فتية التلال»، التفسيراتِ الدينيةَ لتبريرِ الاعتداءاتِ على القُرى الفلسطينية. وقد قال الحاخام (يوئيل بن نون) في تصريح له: «قتل العربي ليس جريمة، بل هو تنفيذٌ لأمر إلهي»[٣].

ب. دَعمُ الحُكُومَة «الإسرائيلية» للاستيطَانِ المُسَلَّح:

تَحظَى الجماعاتُ الاستيطانيَّةُ بدعمٍ مباشر من الحكومة «الإسرائيلية»، حيثُ يتم تسليحها وتوفير الحماية لها من قِبل جيش الاحتلال «الإسرائيلي»، ممَّا يعكس العَلاقةَ الوثيقةَ بين الفِكرِ الدينيّ والسياساتِ الاستيطانية.

---

١ - دوف ليئور: اليهود والأغيار في زمن الحرب، ص ٧٦.

٢- العهد القديم، سفر المزامير، ١٣ :١٧.

٣ - يوئيل بن نون: التهويد والتوراة، ص٥٤.

٥. النَّقدُ الدَّاخليُّ وَالخَارِجيُّ لِهَذَا الفِكرِ العَسكَرِيّ الدّينِيّ

أ. انتِقَادَاتُ المُفَكِرِينَ اليَهُود:

هنـاك تيارات يهودية ناقـدةٌ لهذا التوظيف الديني للعُنف، حيث يـرى الباحثُ «الإسرائيلي» (إسرائيل شاحاك) أنَّ «الصُّهيونيةُ استخدمت الدينَ كغطاءٍ لإخفاء سياساتها العنصرية»[١].

ب. إِدَانَةُ المُنظَّمَاتِ الدَّولِيَّة:

تَعتبر منظمات حقوق الإنسان، مثل «هيومن رايتس ووتش» و«العفو الدولية»، أن «التبريرات الدينيـة التي تقدمهـا 'إسرائيل' لعملياتها العسـكرية تمُثل غطـاءً لانتهاكات جسـيمة للقانون الدولي»[٢].

٦. الخُلَاصَةُ وَالاستِنتَاجُ:

يَظهـر من خلال هذا التحليل أنَّ الفكرَ الدينيَّ اليهـوديَّ لعب دورًا مركزيًّا في صِياغة العقيدة العسكرية «الإسرائيلية»، حيثُ تم توظيف النُّصوص التَّوراتية والتَّلمودية لتبرير القتلِ الجماعي، والاستيطان، وشـن الحُروب ضدَّ الفلسطينيين. كما ساهم الحاخامات بشكل مباشر في توجيه القرارات العسـكرية، ممَّا جعل «إسرائيل» دولة ذات طابع «ديني - عسـكري»، حيثُ يتم دمج العقيدةِ الدينيةِ في عملياتها الحربية وسياساتها الاستيطانية.

تَاسعًا: مُقَارَنَةٌ بَينَ الفِكرِ الصُّهيُونيّ وَالفِكرِ الاستِعمَارِيّ الغَربيّ

لَطالَما ارتبط المشروعُ الصهيونيُّ بالاستعمار الغربيّ، ليس فقط من حيثُ التوقيت التاريخي والتواطؤ السياسي، ولكن أيضًا من حيث الأيديولوجيا والممارسات العمليَّة. فالصُّهيونية لم تكن مجردَ حركة قوميَّة، بل هي امتدادٌ لنمط فكريّ استعماري استند إلى مبررات دينية وأيديولوجية، تمامًا كما فعلت القُوى الاسـتعمارية الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين عند احتلالها للأراضي في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينيَّة.

يهـدف هذا المَبحَـثُ إلى تحليلِ أَوجُه التشـابه والاختـلاف بين الفِكر الصهيـوني والفِكر

١ - إسرائيل شاحاك: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية: عبء ثلاثة آلاف سنة، ص٣١٢.
٢ - تقرير هيومن رايتس ووتش، ٢٠٢١.

الاستعماري الغربي، من خلال استعراض الأُسس الفكرية لكلا الاتجاهين، والتبريرات الأيديولوجية التي استخدمتها الصُّهيونية والاستعمار الغربي، إضافةٌ إلى المقارنة بين الممارسات الاستعمارية في فلسطين والمستعمرات الغربية الأخرى.

١. الأُسُسُ الفكريَّةُ للصُّهيُونيَّة وَالاستعمَارِ الغَربيّ:

أ. الأَيْدُيُولُوجيَا القَوميَّةُ وَالاستعمَاريَّةُ:

مثلما استندت الصُّهيونيةُ إلى الفكرة القومية في تبرير الاستيطان وإقامة «وطن قومي لليهود»، استند الاستعمارُ الغربيُّ إلى القوميَّة الأوروبيَّة في تبرير احتلال الشعوب الأخرى. فقد اعتمد الأوروبيون على فكرة «الرسالة الحضارية» (Mission Civilisatrice) التي تُبرر استعمار الشعوب غير الأوروبية بدعوى أنَّها شعوب "متخلفة" تحتاج إلى "التَّمدُّن".

أمَّا الصُّهيونية، فقد استندت إلى فكرةٍ مشابهة، وهي أنَّ اليهودَ هم "الشعب المختار" الذي له "حق تاريخي" في فلسطين. وقد جاء في التَّوراة: "لِنَسلِكَ أُعطي هذه الأرض"[1]. وقد استخدمت الصُّهيونيةُ هذا النص كأساس أيديولوجي لتبرير احتلال فلسطين وطرد سكانِها الأصليين.

ب. التَّبريرَاتُ الدّينيَّةُ وَالسّيَاسيَّةُ:

مثلما استخدم المستعمرون الأوروبيون الدينَ لتبرير غزو الأراضي الجديدة، استخدمت الصهيونية النصوصَ الدينيةَ اليهوديةَ لتبرير الاستيطان وطرد الفلسطينيين. ففي التَّلمود وَردَ: «الأرض المقدَّسة ليست للأغيار، بل لشعب إسرائيل الذي اختاره الرب»[2]. وهذا مشابه لمقولة المستعمرين الأسبان في القرن السادس عشر، الذين اعتبروا أنَّ «العالم الجديد» هو هدية من الله للمسيحيين، مما أعطى الأسبان «الحق الإلهي» في احتلال أمريكا اللاتينية وإبادة سكانها الأصليين.

٢. التَّبريرَاتُ الأَيْدُيُولُوجيَّةُ للاستعمَار وَالاستيطَان:

أ. الصُّهيونيَّةُ و«تَحريرُ الأَرضِ» مُقَابِلَ الاستِعمَار و«تمَدُّن الشُّعوب»:

كان المستعمرون الأوروبيون يرون أنَّ الشعوبَ الأصليَّةَ في المُستعمرَات غير متحضرة،

١ - العهد القديم، سفر التكوين، ١٢:٧.

٢ - التلمود البابلي، ترجمة يوسف نصر الله، ج ٢، ص٢٣٣.

وبالتالي فإنَّ احتلالَ أراضيها ضروريٌّ لنشر «الحضارة الغربية».

الصُّهيونيةُ قدمت طرحًا مشابهًا، حيثُ زعمت أنَّ فلسطين كانت «أرضًا بلا شعب»، وبالتالي فإنَّ استيطانها لم يكن احتلالاً، بل كان «تحريرًا» لأرض اليهود من «الغرباء».

ب. سِيَاسَاتُ الإِقصَاءِ وَالتَّمييزِ العُنصُرِيّ:

في المستعمرات الأوروبيَّةِ مثل: الجزائر والهند وجنوب أفريقيا، تم فرض قوانين تمييزية تفصل بين المستوطنين الأوروبيين والسكان الأصليين، حيثُ مُنح المستوطنون حقوقًا كاملةً، بينما حُرم السكان الأصليون من المواطنة الكاملة.

في «إسرائيل»، ينصُّ قانونُ الدولة القومية للشعب اليهودي الصادر عام ٢٠١٨م على أنَّ «حق تقرير المصير في دولة 'إسرائيل' هو حصري للشعب اليهودي»، مما يعكس نفسَ السياسة الاستعمارية للإقصاء العنصري[١].

٣.الُمقَارَنَةُ بَينَ المُمارَسات الاستعمَارِيَّة فِي فلسطِينَ وَالمُستَعمَرَاتِ الغَربِيةِ الأُخرَى:

أ. تَهجِيرُ السُّكانِ الأَّصلِيّينَ وَاستِبدَالُهُم بِالمُستَوطِنِينَ:

في فلسطين: تم تهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين قسرًا خلالَ نكبةِ ١٩٤٨م، وتم بناءُ المُغتصبات «الإسرائيلية» على أنقاض القرى الفلسطينية المدمرة[٢].

في أمريكا الشمالية: قامَ المستعمرون البريطانيون بتهجير السكان الأصليين من أراضيهم واستبدالهم بالمستوطنين الأوروبيين، حيثُ تم القضاءُ على القبائل الأمريكية الأصلية بالكامل في بعض المناطق.

ب. السِيَاسَاتُ العَسكَرِيَّةُ القَمعِيَّةُ ضِدَّ السُّكَانِ الأَصلِيّينَ:

في فلسطين: يستخدم جيش الاحتلال «الإسرائيلي» العقوبات الجماعية، مثل هدم المنازل، وفرض الحصار، واغتيال القادة الفلسطينيين، وهي ممارساتٌ تُشبه إلى حدّ كبيرٍ سياسات الاحتلال الفرنسي في الجزائر.

في الجزائر: استخدمت فرنسا سياسةَ العقوباتِ الجماعيَّةِ، مثل قصف القُرى الجزائرية، وهدم

---

١ - شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي، ص٣٠١.

٢ - إسرائيل شاحاك: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية-عبء ثلاثة آلاف سنة، ص٢٧٨.

المنازل، واعتقال السكان الأصليين دون محاكمة[1].

٤. لِمَاذَا نَجحَت بَعضُ المَشَاريع الاستعمَاريَّة بَينَما وَاجَهت الصُّهيُونيَّةُ مُقاوَمةً شَرِسةً؟

أ. الفَشَلُ النِسبيُّ للصُّهيُونيَّة مُقَارنةً بِالمَشَاريع الاستِعمَاريَّة الأُخرَى:

على الرغم من أنَّ الصُّهيونية تمكنت من إنشاء دولة «إسرائيل»، إلاَّ أنَّها لم تتمكن من القضاء على الهُوية الفلسطينية أو استيعاب الفلسطينيين بالكامل، على عكس المشاريع الاستعمارية الأخرى التي نجحت في استئصال الشعوبِ الأصليَّةِ. ويعود ذلك إلى عدة عوامل:

١. **الهُوية الفلسطينية المتجذرة، التي قاومت الاستعمار منذ البداية.**
٢. الوعيُ العالميُّ بحقوق الشعوب الأصليَّة، والذي جعل القضيَّةَ الفلسطينيَّةَ تَحظى بدعمٍ دولي واسع، على عكس الشعوب الأصليَّة في أمريكا الشمالية التي أُبيدت قبل ظهور القوانين الدولية الحديثة.
٣. فَشل السياساتِ الاستيطانيةِ في تحقيق التفوق الديموغرافي، حيث لا يزال الفلسطينيون يشكلون نسبةً كبيرةً من سكان الأرض، ممَّا يعكس فشلَ الصُّهيونيَّةِ في تحقيق استعمار كامل على النمط الأوروبي في المستعمرات السابقة.

٥. الخُلَاصَةُ وَالاستنتَاجُ:

يَتَّضحُ من خلال هذا التحليلِ أنَّ الصُّهيونيةَ ليست حركةً قوميةً يهوديةً فقط، بل هي امتدادٌ للفكرِ الاستعماري الغربيّ، سواء من حيثُ المُبررات الأيديولوجية، أو من حيثُ الممارسات الاستعمارية. فقد استخدمت الصُّهيونيةُ نفسَ الحجج التي استخدمها المستعمرون الأوروبيون لتبريرِ احتلال الأرض وإقصاء السكان الأصليين، مما يجعلها مشروعًا «استيطانيًا – استعماريًا» بامتياز.

---

١ - فرانز فانون، معذبو الأرض، ص ١٩٠.

خَاتِمَةُ البَحث: كَشفُ الوَجهِ الحَقِيقِيّ لِلصُّهيُونِيَّةِ وَأَثَرهَا عَلَى الفِلسطِينِيّين وَالعَالمِ

على مـدارِ البحث، تمَّ تحليـلُ الجـذورِ التَّوراتية والتَّلمودية لإشـكاليةِ «الآخـر» في الفِكرِ الصُّهيـوني، وتوضيحُ كيف اسـتُخدمت النصوص الدينيَّةَ لتبريرِ سياسـات الاحتلال، والتمييز العُنصري، والعُنف ضدَّ الفلسطينيين. كما تم تسليط الضَّوء على التشابُه بين الصُّهيونيَّة والمشاريع الاستعمارية الغربية، مع اسـتعراض الأساليب التي اسـتخدمتها «إسرائيل» لإعادة إنتاج صورة الفلسطيني بوصفه «الآخر» الذي يجب استبعاده أو القضاء عليه.

تُؤكدُ نتائجُ البحثِ أنَّ الصُّهيونية ليسـت مجردَ حركةٍ قوميَّةٍ تسعى إلى إقامةِ وطن لليهود، بل هي مشروع اسـتيطاني - إحلالي يستندُ إلى مفاهيم دينية متشـددة، ويتبنى سياسات استعمارية عنصرية تهدف إلى محوِ الوُجودِ الفلسطيني من أرضه. إنَّ الوجهَ الحقيقيَّ للصُّهيونية يتجلى في جرائمَ الحربِ والتمييزِ العِرقي والاستيطانِ والتطهيرِ العرقي، ما يجعلها نموذجًا حديثًا للعُنصرية المُؤسسية التي تتناقض مع كل القِيَم الإنسانية والشرائع الدولية.

كما ظهر لنا أنَّ أحدَ أخطر جوانب الفِكر الصُّهيوني هو التلاعبُ بالنُّصوص الدينيَّةِ وتوظيفها لخدمةِ أهداف سياسـيةٍ وعسـكريةٍ. فمن خلال تحليلِ المباحث السَّـابقة، نجد أنَّ الصُّهيونيَّةَ اسـتندت إلى مفاهيم توراتيَّة مثل «الشـعب المختـار» و«أرض الميعاد» لتبرير الاسـتيلاء على فلسطين وطرد أهلها. كما استُخدمت نصوصُ التَّلمود في تعزيز فكرة أنَّ الفلسطينيين هم «أغيار» لا حقوق لهم، ممَّا أدَّى إلى ترسيخ نظام تمييز عنصري ممنهج داخل «إسرائيل».

لقـد لعبت الحاخاميـةُ اليهوديةُ الصُّهيونيـة دورًا بـارزًا في تحويل هـذه المفاهيم إلى إطار أيديولوجي يُسـتخدم لتبرير السياسـات القمعية، حيثُ أَصدرت فتاوَى تُـشرّع القتل والتهجير والاستيطان. ومن الأمثلة الصارخة على ذلك فتوى الحاخام (إسحق غينسبيرغ) التي نصَّت على أنَّ «قتل غير اليهود، حتى الأطفال منهم، جائز في الحرب، لأنَّهم قد يكبرون ليكونوا أعداءً لنا»[1].

هذا النوع من التفسـيرات الدينية المتطرفة جعل «إسرائيل» ليست مجرد دولة قومية، بل كيانًا

١ - إسحق غينسبيرغ: الشريعة والسياسة، ص٩٨.

دينيًّا متطرفًا يُسوّغ سياساته الاستعمارية تحت غطاء «الوصايا الإلهية»، ممَّا يجعلها تتشابه إلى حد كبير مع الحركات الدينية المتطرفة التي تدَّعي أنَّها تُنفذ إرادةَ الله من خلال العُنف والإرهاب.

ومنذ نشأتها، اعتمدت «إسرائيل» على إستراتيجيات استعمارية هدفها إحلال المستوطنين اليهود مكان الفلسطينيين الأصليين. وقد تجلى ذلك في عدة سياسات رئيسية، أبرزها:

أ. التَّهجِيرُ القَسرِيُّ وَتَطهِيرُ فِلَسطِين مِن سُكَّانِها الأَصلِيّينَ:

بدأت هذه السياسة خلال نكبة ١٩٤٨م، حيثُ تم تهجير أكثر من ٧٥٠ ألفَ فلسطيني قَسرًا، وهُدّمَت قراهم، وتم بناء المغتصبات اليهودية على أنقاضها. هذه الممارسة لم تتوقف بعد قيام «إسرائيل»، بل استمرت في الضفة الغربية والقدس، حيث تسعى «إسرائيل» إلى تهويد المدينة عبر هدم المنازل الفلسطينية وطرد سكانها واستبدالهم بالمستوطنين.

ب. الاستِيطانُ العَسكَرِيُّ وَالقَانُونِيُّ لِفَرضِ الأَمرِ الوَاقِع:

تستخدم «إسرائيل» الاستيطانَ كأداةٍ استعماريةٍ لفرض سيطرتها على الأراضي الفلسطينية، حيثُ تم بناء مئات المُغتصَبَات غير الشرعيَّة التي تضم أكثر من ٧٠٠ ألف مستوطن يهودي في الضفة الغربية والقدس. ويُبرر الحاخامات هذا الاستيطان على أنَّه «تنفيذ لوصايا الرب»، كما جاء في فتوى الحاخام (أبراهام كوك): «الاستيطان في أرض 'إسرائيل' ليس مجرد حق، بل هو واجب مقدَّس يجب أن يؤديه كل يهودي»[١].

ج. الفَصلُ العُنصُرِيُّ وَالتَّمييزُ المُمَنهَجُ ضِدَّ الفِلَسطِينِيّينَ:

تُعامِل «إسرائيل» الفلسطينيين كمواطنين من الدرجة الثَّانية، حيثُ يخضعون لنظامٍ قانونيّ يختلفُ عن النّظامِ الذي يخضع له اليهود. ويتجلى ذلك في قانون «الدولة القومية للشعب اليهودي»، الذي ينصُّ على أنَّ «حق تقرير المصير في دولة 'إسرائيل' هو حصري للشعب اليهودي»، مما يؤكد أنَّ «إسرائيل» دولةُ فصلٍ عُنصري[٢].

وظهر الوجه القبيح للصهيونية (انتهاك القوانين الدولية وتبرير العنف) من خلال:

أ. جَرَائِمُ الحَربِ ضِدَّ الفِلَسطِينِيينَ:

لطالما استخدمت «إسرائيل» القوةَ العسكريةَ المفرطةَ ضدَّ الفلسطينيين، حيثُ تم تنفيذ

١ - أبراهام كوك: أروت، ص٥٥.

٢ - شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي، ص٣٠١.

اغتيـالات جماعيَّـة، وحروب مدمِـرة، وحصار خانـق على قطاع غـزة. كما أنَّ قتـلَ المدنيين الفلسطينيين مبررٌ دينيًّا في الفكر الصهيوني، كما جاء في فتوَى الحاخام (دوف ليئور): «إذا كانت حياة جندي يهودي مهددة، فمن المسموح قتل المدنيين غير اليهود لحماية الشعب المختار»[1].

ب. الإرهَابُ المُنَظَّمُ وَتَصفِيَةُ القِيادَاتِ الفِلَسطِينِيَّة:

نفذت «إسرائيل» مئات عمليات الاغتيال ضدَّ القادة الفلسـطينيين، مسـتندةً إلى فتاوًى دينية وعسكرية تُشرّعُ هذه الجرائم. وقد اعترفت القيادات «الإسرائيلية» بأنَّ «التصفيةَ الجسديةَ للقادةِ الفلسطينيين جزءٌ من العقيدة العسكرية 'الإسرائيلية'»[2].

يُثبت البحثَ أنَّ الصُّهيونيةَ ليسـت حركـةً قوميةً مشروعةً، بل هي نظام عنصري إحلالي يقوم على القتلِ والتمييزِ واحتقار الآخر. إنَّها ليست فقط عدوًّا للشعب الفلسطيني، بل خطر على الأمن الإقليمـي والعالمي، لأنَّها تسـتند إلى أيديولوجيا دينيةٍ متطرفةٍ تُبرر القتلَ والاسـتيطانَ والإبادةَ الجماعيةَ.

لذلك، فإنَّ تفكيكَ الفكرِ الصهيوني ضرورةٌ إنسانيَّةٌ وأخلاقيَّةٌ، تبدأ بـ:

١. كَشفُ زَيف المبررات الدينية التي تستغلها «إسرائيل» لشرعنة جرائمها.

٢. تعزيـز الوعي الدولي بالقضيَّةِ الفلسـطينية، وفضح ممارسـات «إسرائيل» العُنصرية والاستيطانية.

٣. دعم المقاومةِ الفلسـطينية بكل أشكالها، باعتبارها السـبيل الوحيد لوقف المشروع الصهيوني.

٤. إعـادة النظر في دعم الدول الغربية لـ«إسرائيـل»، من خلال فضح تورط الحكومات الغربية في حماية هذا النظام العنصري.

إنَّ الصُهيونيةَ ليسـت عدوًّا للفلسـطينيين فحسـب، بل هي عدوٌّ لكل قيـم الحرية والعدالة والمساواة، ولن يكون هناك سلام في المنطقة والعالم إلا بتفكيك هذا الفكر العنصري، ومواجهة نظام الفصل العنصري «الإسرائيلي» بكل الوسائل الممكنة.

---

١ - دوف ليئور: اليهود والأغيار في زمن الحرب، ص٧٦.

٢ - وزارة الدفاع «الإسرائيلية»، عقيدة الجيش اليهودي، ص١٩٩.

المَرَاجِعُ وَالمَصَادِرُ

- أبراهام كوك: أروت، دار الكتب اليهودية، الطبعة الخامسة، «تل أبيب»، ١٩٩٩.
- إسحق غينسبيرغ: الشريعة والسياسة، دار النشر اليهودية، الطبعة الأولى، القدس، ٢٠٠٣م.
- إسرائيل شاحاك: التاريخ اليهودي، الديانة اليهودية: عبء ثلاثة آلاف سنة، ترجمة أسامة العيسة، دار الجليل، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠١.
- بنيامين نتنياهو: مكان تحت الشمس، ترجمة إيلي بن غوريون، دار النشر اليهودية، الطبعة الثانية، القدس، عام ٢٠١٥م.
- ثيودور هرتزل: دولة اليهود، ترجمة محمد مصطفى، دار الفكر، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠١٠.
- ديفيد بن غوريون: مذكرات بن غوريون، ترجمة محمود عباس، دار الهلال، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٨.
- دوف ليئور: اليهود والأغيار في زمن الحرب، دار النشر الديني، الطبعة الثانية، القدس، ٢٠١٥م.
- زفي يهودا كوك: إسرائيل والأغيار، دار الكتب العبرية، الطبعة الثانية، تل أبيب، ١٩٨٢.
- شلومو ساند: اختراع الشعب اليهودي، ترجمة صالح علي، المركز القومي للترجمة، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠١٤م.
- فرانز فانون: معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي، دار النهضة، الطبعة الثالثة، بيروت، ٢٠٠٤م.
- مايكل بريور: الإرهابُ المقدَّسُ، ترجمة خالد أبو الفتوح، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٠م.
- موسى بن ميمون: مشناه توراة، ترجمة يوسف القطان، دار الفكر العبري، الطبعة الثانية، بيروت، ٢٠٠٥م.
- مئير كاهانا: يهودية بلا مساومة، ترجمة أحمد الجبوري، دار النشر العبري، الطبعة الأولى، القدس، ٢٠١١م.

- موسى بن ميمون: دلالة الحائرين، ترجمة عبد الغني الدقر، دار القلم، الطبعة الثالثة، دمشق، ٢٠١٢م.
- موشيه بيرغر: الصهيونية ضد اليهودية، ترجمة أحمد محمود، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٠م.
- موشيه فايجنر: إسرائيل والتوراة، دار الفكر العبري، الطبعة الأولى، تل أبيب، ٢٠٠٥.
- وزارة الدفاع الإسرائيلية: عقيدة الجيش اليهودي، دار النشر العسكري، الطبعة الثالثة، تل أبيب، ٢٠١٠م.
- وزارة التعليم الإسرائيلية: التاريخ اليهودي للصف الخامس، دار النشر الإسرائيلية، الطبعة الرابعة، تل أبيب، ٢٠١٩م.
- يوئيل بن نون: التهويد والتوراة، دار النشر الديني، الطبعة الأولى، القدس، ٢٠١٧م.
- يتسحاق شابيرا: التوراة والملك، دار النشر اليهودي، الطبعة الأولى، القدس، ٢٠٠٩م.
- تقرير هيومن رايتس ووتش، ٢٠٢١.
- العهد القديم، سفر التثنية، الترجمة العربية المشتركة، دار الكتاب المقدس، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٩٥م.
- التلمود البابلي، سنهدرين، ترجمة يوسف نصر الله، دار الحكمة، الطبهة الأولى، القاهرة، ٢٠١٨م.
- التلمود البابلي، أبوداه زارا ترجمة يوسف نصر الله، دار الحكمة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٨م.
- التلمود البابلي، يهودا ناسي، ترجمة يعقوب بن سينا، دار التراث العبري، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠١٢م.

عقيدةُ الإبادة الصّهيونية: بينَ جذور الفِكر وانعكاساتِ التَّطبيق في غزة ولبنان

■ أ.د. أنور محمود زناتي[1]

ملخّص

يُشكِّلُ هذا البحثُ خلاصةَ جولةٍ ذاتِ بُعدَينِ على قضيّة الإبادةِ التي يمُارِسُها الصَّهاينةُ، والتـي بِتنا نَسـمعُ عنها كثيراً في محافلِ الفِكرِ والسِّياسـة، فقد سَـعينا من خـلال الجَولةِ الفكريّةِ على المُتون الدِّينيّة الأصليّة للفِكر اليهوديِّ الصّهيونيِّ إلى بيان جذورِ هذا السُّلوكِ اللاإنسـانيِّ، ثم انتقلنا بعد ذلك إلى بيانِ آلياتِ التَّطبيق التي اعتمدَها الصَّهاينةُ في دولتِهم المَزعومـةِ منذُ ما قبلَ الإعلان عن تأسيسـها إلى يومنا هـذا، حيثُ تَجري حربُ إبادةٍ على شعبَي فلسطين ولبنان.

إنَّ جولةً سريعةً في الفِكر الصهيونيِّ الدِّينيّ، وعندَ المُؤسِّسينَ الأوائل للكيان المَزعوم، تُشـير بوضـوح إلى صبغةِ الحربِ الدِّينيّـة التَّطهيريّة التي يَقوم بها، والتـي لا تَعكسُ فقط مطامعَ سياسـيّةً أو توسُّـعية، بل تقوم على أسـاس إبـادةٍ تَطهيرية، ولـذا لا يُمكِنُ تَحليلُ مُجرياتِ الأحداث الدّائرة اليوم من مَنطقِ البراغماتية السِّياسية فقط.

الكلمات المفتاحية: الإبادة، التَّطهير العرقي، الصهيونية، حرب غزة، حرب لبنان.

1 - كاتب وأكاديمي مصري، أستاذ التاريخ والحضارة بجامعة عين الشمس - مصر.

مقدّمة

تَدور إشـكاليّةُ البحث الرَّئيسة حولَ عقيدة الإبادة في الفكر الصّهيوني، وانعكاسها على الحرب في غزة ولبنان، وتُحاولُ أن تُجيبَ عن السُّـؤال المُحيِّر كيفَ يمُكنُ لمجموعةٍ من البشر أن يَتركبوا كلَّ تلكَ المَجازر الوَحشيّة بحقِّ الأطفال والنِّساء والشُّيوخ، التي تَرقى لجريمةِ إبادةٍ جماعيّةٍ دون أن يَطرف لهم جفنٌ؟ وتَنتهي الدَّهشة والحَيرةُ حين نعلمُ أنَّ عقيدة الإبادة والتَّطهير العرقيِّ مُتجذِّرةٌ في الفِكر اليهوديِّ الصهيونيِّ، وذلك استنادًا إلى نصوصٍ تَوراتيّةٍ تمُجِّدُ القتلَ والإبادةَ والتَّطهيرَ العرقيَّ.

أولًا: جذور عقيدة الإبادة والتطهير العرقي في الفكر اليهودي الصهيوني

١ - النُّصوص التَّوراتيّة المُؤسِّسة

عقيـدةُ الإبادة والتَّطهـير العرقيِّ مُتجـذِّرةٌ في الفكر اليَهوديِّ الصهيونيّ، وذلك اسـتنادًا إلى نصوصٍ توراتيّة تَتبنَّى فكرةَ الإبادة الجماعية، ومن أخطر تلك النُّصوص: "حينَ تَقرُبُ من مَدينَة لكيَ تُحاربَها استَدعها إلىَ الصُّلح، فإنْ أجابَتْكَ إلىَ الصُّلح، وفتَحَتْ لَكَ، فكُلُّ الشَّعب المَوجُود فِيها يَكُونُ لَكَ للتَّسخير ويُستَعبَدُ لَكَ. وإنْ لَم تُسالمْكَ، بَل عَملَت مَعَكَ حَربًا، فحاصرْها. وإذا دَفعَها الرَّبُّ إلهُكَ إلىَ يَدكَ فاضربْ جَميعَ ذُكُورها بحَدِّ السَّـيف. وأمَّا النِّساءُ والأطفالُ والبَهائمُ وكُلُّ مـا في المَدينَـة، كُلُّ غَنيمَتها، فتَغتَنمُها لنَفسـكَ، وتَأكُلُ غَنيمَةَ أعدائـكَ الَّتي أعطاكَ الرَّبُّ إلهُكَ. هكَذا تَفعَلُ بجَميع المُدُن البَعيدَة منكَ جدًّا، الَّتي لَيسَـت من مُدُن هؤُلاء الأُمَم هُنا. وأمّا مُدُنُ هؤُلاء الشُّعُوب الَّتي يُعطيكَ الرَّبُّ إلهُكَ نَصيبًا فلا تَستَبق منها نَسَمةً ما، بَل تُحَرِّمُها تَحريمًا: الحِثِّيِّينَ والأمُوريِّينَ والكَنعانيِّينَ والفرِزِّيِّينَ والحوِّيِّينَ واليَبُوسيِّينَ، كَما أمَرَكَ الرَّبُّ إلهُكَ ..."[1].

١ - [التثنية ١٠-١٨].

وعقيـدةُ الإبادةِ هي السَّـبيلُ الأمثلُ لتحقيق حلـمِ إسرائيلَ الكُبرى التي تمَتـدُّ من النَّهر إلى البحر، وفقَ نصوص سـفر التَّثنية: "تَحَوَّلُوا وارتَحِلُوا وادخُلُوا جَبَـلَ الأمُوريِّينَ، وكُلَّ ما يَلِيهِ مِنَ العَرَبَةِ والجَبَلِ والسَّـهْلِ والجَنُوبِ وسـاحِلِ البَحرِ، أَرضَ الكَنعانيِّ ولُبنانَ إلَى النَّهرِ الكَبيرِ، نَهرِ الفُراتِ»[1]، وكذلك ما في سـفر يشـوع: «مُوسَى عَبدِي قَد ماتَ. فالآنَ قُمِ اعبرْ هذا الأُردُنَّ أنتَ وكُلُّ هَذا الشَّعبِ إلَى الأرضِ الَّتي أنا مُعطيها لَهُم أي لِبَني إسرائيل»[2].

وفي عقيدتهم "كُلُّ مَوضِعٍ تَدُوسُـهُ بُطُونُ أقدامِكُم لَكُـم أعطَيتُهُ"[3]، «وإلَى البَحرِ الكَبيرِ نَحوَ مَغرِبِ الشَّمسِ يَكُونُ تُخمُكُم»[4]. وأيضًا في سفر التثنية: «يَطرُدُ الرَّبُّ جَميعَ هؤُلاءِ الشُّعُوبِ مِن أمامِكُم، فتَرِثُونَ شُعُوبًا أكبرَ وأعظَمَ منكُم»[5].

و"كُلُّ مَكانٍ تَدُوسُـهُ بُطُونُ أقدامِكُم يَكُونُ لَكُم، مِنَ البَرِّيَّةِ ولُبنانَ، مِنَ النَّهرِ، نَهرِ الفُراتِ، إلَى البَحرِ الغَربيِّ يَكُونُ تُخمُكُم"[6].

فـتَرَى عقيدةُ الإبادة في الفكر الصّهيونيِّ أنَّ فلسـطينَ ولبنانَ جزءٌ من إسرائيل ومن الأراضي اليهودية، ولا بدَّ من إبادة الشَّـعبِ السّـاكنِ فيهما، وعندَ تحقيق ذلك «١- تَفرَحُ البَرِّيَّةُ والأرضُ اليابسَـةُ، ويَبتَهِجُ القَفرُ ويُزهِرُ كالنَّرجسِ. ٢- يُزهِرُ إزهارًا ويَبتَهِـجُ ابتِهاجًا ويُرَنِّمُ. يُدفَعُ إلَيهِ مَجدُ لُبنـانَ، بَهاءُ كَرمَلَ وشـارُونَ، هُم يَرَونَ مَجدَ الرَّبِّ، بَهاءَ إلهِنا. ٣- شَـدِّدُوا الأيادِيَ المُسـتَرخِيَةَ، والرُّكَبَ المُرتَعِشَـةَ ثَبِّتُوها. ٤- قُولُوا لِخائِفِي القُلُوبِ: «تَشَدَّدُوا لا تَخافُوا، هُوذا إلهُكُمُ، الانتِقامُ يَأتِي، جزاءُ اللهِ، هُو يَأتِي ويُخَلِّصُكُم"»[7].

وهكذا وجدنا فعلَ الإبادةِ الصهيونيةِ اتَّخذَ من العقيدة التَّوراتيّةِ مَرجعيّةً له، يَسـتوحي منها ما فعلَ الأسلافُ لتَطبيقِه على الواقعِ الرّاهنِ، في الإبادةِ الجماعية في غزة ولبنان.

وإسرائيـلُ تتعامَلُ مـعَ كتابِها التَّوراة بوَصفِـه مَرجِعًا تاريخيًّا يجبُ تكـرارُ أحداثِه التاريخية.

---

١ - [تثنية ١: ٧].
٢ - [يشوع ١: ٢].
٣ - [يشوع ١: ٣].
٤ - [يشوع ١: ٤].
٥ - [تثنية ١١: ٢٣].
٦ - [تثنية ١١: ٢٤].
٧ - [إشعيا ٣٥: ١-٤].

ووفـقَ هذه الرِّوايــة فإنَّ إبراهام -نبــيّ الله إبراهيم عليه الســلام- كانَ أوَّلَ مَن عَهِــدَ إليه "يَهوه" (الإله التَّوراتي) بأرض فلسطينَ التاريخية، واختصَّ بهذا العهد من ذريّته إسحاقَ، ثم يعقوبَ -أو إسرائيل- لتكونَ هذه الأرضُ من بعده مُلكًا لبني إسرائيلَ بحقٍّ إلهيٍّ مُقدَّس[١].

إنَّ هذه القوانينَ الكتابيّةَ هي التي يتَّخِذُها القادةُ الإسرائيليُّونَ مصدرَ وحيٍ، وشريعةً مُقدَّســةً لاستئناف البَعثِ الإسرائيليِّ في فلســطين، على أساس أنَّ كلَّ جريمةٍ تُصبِحُ شرعيّةً وقانونيّةً من أجل تحقيق وعدِ الربِّ[٢].

بموجبِ هذه العقيدة التَّوراتيّةِ نجدُ أنَّ شخصيةَ "يشوع" التَّوراتية، بما نُسِبَ إليها من جرائم إبادةٍ واستئصالٍ للآخَر، تَبدو الشَّــخصيةَ التَّوراتيّةَ الأبرَزَ لقادة المَشروعِ الصهيونيِّ، ومَحلَّ إعجابِهم الأوّل، وسِفر يشوع من الأسفار التي تُشجِّعُ على الإبادة والتَّطهير العرقيِّ وانتزاع المِلكيّة بطريقةٍ همجيّةٍ من السُّكان الأصليِّين[٣].

٢ - امتدادات عقيدة الإبادة في الخطاب الصهيوني

لم تَقتــصِرْ تلك العقيدةُ الاســتئصاليةُ المَدعومةُ بالأســاطير الدِّينيّة على القرارات السِّياســيّةِ والعَسكريّة فحســب، بل امتدَّتْ عبرَ عقودِ الاحتلال إلى صُلبِ المُؤسَّسة التَّعليميّةِ ذاتِها، حتى إنَّ أســتاذَ علمِ النَّفس بـ«جامعة تل أبيب» (جورج تمارين - George Tamarin) أجرى دراســةً اســتقصائيّةً على نحو ألــفِ طالبٍ وطالبةٍ من المدارس الثانويــة في إسرائيل، لرَصدِ تأثير أفعال الإبادةِ المَنسوبةِ إلى "يشوع" في تَفكيرهم، فوجدَ أنَّ نحوَ ٨٠٪ من الطلاب وافقوا على صِحَّة ما هو منســوبٌ إلى "يشوع" في أريحا ومكيدة، ورأى ٣٨٪ منهم أنَّ على الجيش الإسرائيلي تكرارَ الإبادةِ نفسِها بالقُرى العربية التي يَدخلُها[٤].

كما يَذهب أغلبُ المُفكِّرينَ إلى أنَّ السَّــببَ هم اليهود أنفسُــهم، فهم يَعدُّونَ أنفسَهم "شعبَ

1 - Benjamin Beit-Hallahmi: Original Sins: Reactions on the History of Zionism and Israel, p.34.

٢ - رشاد الشامي: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، ص١٤٩.

٣ - عصام سخنيني: الجريمة المقدسة: الإبادة الجماعية من أيديولوجيا الكتاب العبري إلى المشروع الصهيوني، ص٤٤.

4 - David Wetherell: The Use and Misuse of Religious Language: Zionism and the Palestinians, vol. 4, p.25.

الله المختار"، والوحيدَ على الأرض الذي استودعَهُ اللهُ الوَحيَ، أمّا البشرُ الآخَرونَ فهُم في مرتبةٍ أدنى تكادُ تَقتربُ من الحيوانات، ويُسمُّونَهم "الأقوام" أو "الأغيار".

واستمدُّوا الفكرةَ من التَّوراة: «وقَد اختارَكَ الرَّبُّ لكيَ تكُونَ لَهُ شَعبًا خاصًّا فوقَ جَميعِ الشُّعُوبِ الَّذينَ عَلَى وجهِ الأرضِ»[1]، و «أنَّ الربَّ أمرَ كلَّ أجنبيٍّ إذا لَقِيَ يَهودِيًّا أنْ يَسجُدَ له على الأرضِ ويَلحَسَ غُبارَ نَعلَيه»[2].

وهكذا شعرَ اليهودُ بالتميُّزِ والتَّفرُّد عن غيرِهم؛ ومارسوا فكرةَ «الإبادة» بمُتعةٍ حَيَوانيةٍ لا تُعطي قيمةً لبشرٍ أو حجرٍ.

وفكرةُ الإبادة مُتجذِّرةٌ في الفِكر السِّياسيِّ الصهيونيِّ، وقد أكَّدَ المُفكِّرُ الصّهيونيُّ البريطانيُّ (إسرائيلُ زانجويل - Israel Zangwill) (ت١٩٢٦م)، في كتاباته الأولى -١٩١٧م- على ضرورة طردِ العربِ وترحيلِهم، فيقول: "يَجبُ ألاّ يُسمَحَ للعرب أن يَحولوا دون تحقيقِ المَشروع الصهيونيِّ؛ ولذا لا بدَّ من إقناعهم بالهجرة الجماعية، أليسَت لهم بلادُ العربِ كلُّها، ليسَ ثمّةَ مِن سببٍ خاصٍّ يَحملُ العربَ على التَّشبُّثِ بهذه الكيلومترات القليلة، فهم بَدوٌ رُحَّلٌ يَطوون خيامَهم ويَنسَلُّونَ في صمتٍ ويَنتقلونَ من مكانٍ لآخَر"[3].

ودَعا الصَّهاينةَ إلى انتهاجِ سياسةِ القوّةِ لاعتقادِهم بأنَّ القوةَ وحدَها هي اللُّغة الوحيدة التي يَفهمُها العربُ لإجبارهم على الرَّحيل من وطنهم، وأخذوا يَعتمدون عليها لتَحقيقِ أهدافِهم العنصريّةِ والاستيطانيّة[4]، وكانَت فكرةُ نَفي الوجود الفلسطيني بتَشتيته قد عبرَّ عنها (مناحيم أوسيشكين - Menahen Ussishkin) (١٨٦٣ - ١٩٤١م) [5] -أحد قادة الاستيطان ١٩٣٠م- بقوله: «من المُحتَّم بالدرجة الأولى أن تكون جميعُ أراضي فلسطين أو معظمُها ملكًا لشعب

---

١ - [التثنية ١٤: ٢].

٢ - [أشعيا ٢٣: ٤٩].

3 - David McDowall: Palestine and Israel, p. 186.

٤ - إبراهيم أبو لغد: تهويد فلسطين، ص١٨٦.

٥ - ولد عام ١٨٦٣م في بلدة دوفروفنا في روسيا البيضاء. وانتقلت عائلته إلى موسكو عام ١٨٧١م، ودرس في مدرسة عبرية فيها باسم (الريئالي). وتأثّر بكتابات مفكرين صهيونيين أمثال مابو وشولمان وسمولنسكين، وتوفي أوسيشكين عام ١٩٤١م. (عبد الوهاب المسيري؛ وسوسن حسين: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القاهرة ١٩٧٥م، ص٧٦).

إسرائيل. وبدون حقِّ ملكية الأراضي لا تكون فلسطينُ يهوديّةً أبدًا»[1].

وأكَّدَ الزَّعيمُ الصّهيونيُّ (فلاديمير جابوتنسكي - Ze'ev Jabotinsky) (ت١٩٤١م) وجوبَ ترحيلِ العرب بالقوة؛ لأنَّ تَرحيلَهم شرطٌ أساسيٌّ لقيام الدَّولة؛ فاقترحَ في رسالةٍ بعثَ بها إلى السناتور الأميركي (جرانسبيرغ - Grantsburg): "إنَّ تأسيسَ أكثريّةٍ يهوديّةٍ في فلسطين يجبُ أن يتمَّ عنوةً عن إرادة الأكثرية العربية الموجودة في البلاد. وسيرَعى عمليةَ إنجاز هذه الأكثرية جدارٌ حديديٌّ من القوة اليَهودية المُسلَّحة" لتحرير فلسطين بحدِّ السَّيف. ونادى جابوتنسكي بأمرَينِ جوهريَّينِ ضروريَّينِ، وهما تعلُّم اللُّغة العِبرية والتحدُّثُ بها، والضَّربُ بقوةٍ وبقَسوةٍ وقطعُ رقاب الفلسطينيين.

واعتبرَ (يوسف فايتس - Yosef Weitz) -مديرُ دائرة الاستيطان في الصُّندوق القوميِّ اليهوديِّ- (ت١٩٧٢م) الإنسانَ العربيَّ الفلسطينيَّ حجرَ عثرةٍ أمامَ تحقيق المشروع الصهيوني، وأنَّ عمليات وصفقات شراءِ الأراضي قد اصطدمَت عشراتِ المرّاتِ بمُعارَضةِ الفلسطينيين من أبناء فلسطين، الذين تمَّ ترحيلُهم عن بيوتهم[2].

وفي عددها الصادر لشهرَيْ مايو ويونيو ٢٠٠٩م، نشرَت مجلةُ "مومنت Moment" اليهودية الأميركية حوارًا مع الحاخام الصهيونيِّ (مانيس فريدمان - Manis Friedman) حولَ الطَّريقةِ المُثلى لتعامُل اليهود بفلسطين المحتلة مع جيرانهم من العرب، وقد أتَت إجابةُ (فريدمان) صريحةً: «إنَّني لا أُومنُ بالأخلاقيات الغربية، بمعنى أنَّ عليكَ ألا تَقتُلَ المَدنيِّينَ أو الأطفالَ، وألا تُدمِّرَ الأماكنَ المُقدَّسةَ، وألا تُقاتلَ في المناسبات الدِّينية، وألا تَقصفَ المَقابرَ، وألا تُطلقَ النّارَ قبل أن يُطلقَها عليكَ الآخَرون.. إنَّ الطَّريقةَ الوحيدة لخوض حربٍ أخلاقيّةٍ هي الطَّريقةُ اليهودية: دمِّرْ أماكنَهم المُقدَّسة، واقتُلْ رجالَهُم ونساءَهم وأطفالَهم ومَواشيَهُم». وقد علَّل "فريدمان" ذلك بأنَّه الرّادعُ الوحيد والحقيقيُّ للتخلُّص من ثبات الفلسطينيِّينَ ومقاومتهم المستمرّة، وأنَّ تلك هي قِيَمُ التَّوراة التي ستَجعَلُ الإسرائيليينَ «النُّورَ الذي يَشعُّ للأُمم التي تُعاني الهزيمةَ بسبب هذه الأخلاقيات (الغربية) المُدمِّرة التي اخترعَها الإنسانُ»[3].

---

١ - أسعد عبد الرحمن؛ ونواف الزرو: موجات الغزو الصهيوني، ص٣.

٢ - جوني منصور: «منقذ الأرض وداعية ترانسفير للفلسطينيين، مجلة قضايا إسرائيلية»، ص١٦٣.

3 - Manis Friedman: Ask the Rabbis, How Should Jews Treat Their Arab Neighbors??, p.4.

وقد لجأ رئيسُ الوزراء الإسرائيليُّ بنيامين نتنياهو إلى التَّوراة لتَبرير وتَفسير العُدوانِ الذي تشنُّه إسرائيلُ على فلسطين ولبنان واليمن، مُتوعِّدًا بتَغيير المعادلاتِ بالمنطقة. وقال نتنياهو في مؤتمرٍ صحفيٍّ مع الوزير «الجديد» آنذاك في مجلس الوزراء الإسرائيلي (جدعون ساعر - Gideon Sa'ar): "كما هو مكتوب في التَّوراةِ سأُلاحِقُ أعدائي وسأقضي عليهم."[١].

ويَدخل ضمنَ العقيدة اليهودية ما أشارَ إليه (نتنياهو - Netanyahu) بقوله: "يجبُ أن تتذكَّرُوا ما فعلَه عماليقُ بكم". وعماليقُ تَعني في سفر صموئيل الأوّل قبيلةً تَرمز إلى الشرِّ الماديِّ والرُّوحيّ مُتجسِّدًا في رجالها ونسائها وأطفالها، ومن واجب اليهودِ إبادتُها بالبَدءِ أولاً بعَزلِ قادتِها واغتيالِهم واحدًا تلو الآخَر لزعزعةِ كيانِها، ومن ثمَّ تسهلُ إبادتُها.

من هاهنا تأخذ دلالةُ الإبادة الجماعيّة، واعتمادُ أسلوب الاغتيالات، تَسويغَهُما المُتحيِّز، الذي لا يَنظر إلى مسألة الصِّراعِ نظرةً سياسيّةً أو جيواستراتيجية ترتبطُ بالمنافع الماديةِ فحسب، وإنَّما يَنظر إليها نظرةً دينيّةً وعِرقيّةً تَنتصِرُ إلى الهويّة اليهودية المُطلَقة السّاعِيةِ إلى طَمسِ الكيانِ العربيِّ وتَفتيته[٢].

ثانيًا: عقيدة الإبادة وتطبيقاتها العملية في فلسطين

مارسَت الحركةُ الصهيونيّةُ أكبرَ عمليّة تطهيرٍ عِرقيٍّ عرفَها التّاريخُ، ومارسَت إرهابَها المُتواصِلَ ضدَّ الشَّعب العربي في فلسطين، وعملَت بصورة مستمرّةٍ على تَهجير أكبرِ عددٍ مُمكنٍ من المواطنين العرب الفلسطينيين بشتّى وسائل التَّرهيب[٣] لتَشتيتِهم في الأقطار المجاورة[٤]. أو كما قال أحدُ الباحثين كان مشروعًا كبيراً للتَّطهير العِرقيِّ لكي تَسودَ سيطرتُهم في البلاد، فيتمكَّنوا من صبغِ فلسطينَ بالصِّبغةِ اليهودية، ومن ثَمَّ إجلاء الفلسطينيين إلى خارج فلسطين، وسلب حقوقِهم[٥] حتى تَبقى لهم الأرضُ خاليةً من السُّكانِ، من أجل تحقيق كيانٍ يهوديٍّ مزعوم في فلسطين.

١ - موقع الجزيرة: نتنياهو كما هو مكتوب في التوراة، تاريخ الاطلاع (٢٩-٠٩-٢٠٢٤).
٢ - انظر: محمد المعزوز: «هل الإبادة الجماعية والاغتيالات 'وصايا تلمودية'؟».
٣ - نواف الزرو: موجات الغزو الصهيوني: صراع البقاء والإجلاء ١٨٨٢- ١٩٩٠، ص٧٥.
٤ - إلياس صنبر: فلسطين: التغيب ١٩٤٨، ص٢٠.
٥ - إيلان هاليفي: المسألة اليهودية، ص٢٣٧.

١ - بلورة «الخطة داليت»

كان (بــن جوريون - Ben-Gurion) قد أدركَ مع نهاية ســنة ١٩٤٦م أنَّ البريطانيين كانوا في طريقِهم إلى المغادرة، وأخذ يَعمل مع مساعديهِ على وضع استراتيجيّةٍ عامّةٍ يُمكِنُ تَطبيقُها ضدَّ السُّــكان الفلســطينيِّينَ في اللَّحظة التي يُغادِرُ فيها البريطانيون البلدَ، وتمثَّلَت هذه الاستراتيجيةُ في الخطة (ج) («غيمل» بالعبرية)، كانت الخطّةُ (ج) نســخةً مُطوَّرةً من خطتَينِ ســابقتَينِ، (أ) و (ب)، وكانَــتِ الخطّةُ (أ) تُســمَّى أيضًا «خطة إليميلخ»، على اســم (إليميلخ أفنير - Elimelech Avner)، قائد عصابات "الهاغاناه تل أبيب» الذي وضعَ في سنة ١٩٣٧م بناءً على طلب من (بن غوريون)، خططًا مُوجَّهةً للاستيلاء على فلسطين في حال انسحاب بريطانيا منها، أمّا الخطة (ب) فقد وُضعت في سنة ١٩٤٦م، وجرى دمجُ الاثنتَينِ معًا لتُشكِّلا الخطّةَ (ج)[١].

طمحَت الخطّةُ (ج)، مثل الخطتين (أ) و (ب)، إلى إعداد القوات المسلَّحةِ التابعة للمُجتمع اليهــوديِّ، من أجل القيام بحَملاتٍ هجوميّةٍ على مدن فلســطين وقراها، فورَ خروج البريطانيِّينَ من البلد، وكان الغرضُ من تلك الحَملاتِ رَدعَ السُّــكّان الفلسطينيِّينَ عن مهاجمة المُستعمرات اليَهودية، والردِّ الثأريّ على مهاجمة منازلَ يهوديّةٍ، أو طرقات، أو حركة سَير، وقد حدَّدَتِ الخطةُ (ج (بوضوح ما تتضمَّنُه الأعمالُ التأديبيّةُ من هذا النَّوع، كالتالي[٢]:

- قتل القيادة السياسية الفلسطينية.
- قتل المُحرِّضين الفلسطينيين، والذين يُقدِّمونَ لهم دعمًا ماليًّا.
- قتل الفلسطينيين الذين نشطوا ضدَّ يهود.
- قتل الضُّباط والمُوظَّفينَ الفلسطينيين الكبار في النِّظام الانتدابي.
- إلحاق الضَّرَرِ بحركة النَّقل الفلسطينية.
- إلحاق الضَّرَرِ بمصادر عَيشِ الفلسطينيين: آبار المياه، الطَّواحين... إلخ.
- مهاجمة القُرى الفلســطينية المُجاوِرة التي من المُمكِنِ أن تُســاعِدَ عناصرَ مُعاديةٍ في هجماتٍ مُستقبليّة.

١ - إيلان بابه: التطهير العرقي في فلسطين، ص٣٧.
٢ - إيلان بابه: التطهير العرقي في فلسطين، ص٣٧.

- مهاجمة النَّوادي، والمَقاهي، وأماكن التجمُّع الفلسطينية، وما شابَهَ ذلك[1].

لكن خلال بضعةِ أشهرٍ، تمَّ وضعُ خطّة أخرى، الخطة د (داليت) في ١٠ مارس ١٩٤٨م.

كانَت الخطّةُ (د) الاسمَ الذي أطلقته القيادةُ الصهيونيّةُ العُليا على الخطّةِ العامّة للعَمليّاتِ العَسكريّة ضمنَ الإطار الذي وُضع كسلسلة من الهجمات الصّهيونيّة على مناطقَ مختلفة. هذه الهَجماتُ، التي استتبعَتْ تَدميرَ جسمِ الشَّعبِ الفلسطينيِّ، كانَ هدفُها السَّيطرةَ العَسكريةَ على المَنطقة، التي كان من المُفترَضِ أن تَقومَ عليها الدَّولةُ "الإسرائيلية"[2]، وكانَت هذه هي الخطّة التي حسمَت مصيرَ الفلسطينيين القاطنين داخلَ الأراضي التي أرادَ القادة الصهيونيُّونَ الاستيلاء عليها، لإقامة الدَّولة اليهودية العَتيدة، ومن أقسام هذه الخطة وعمليّاتِها ما يلي:

- «حملة نحشون» (٥ - ١٥ أبريل) ١٩٤٨[3].
- "حملة هرئيل» (١٥ - ٢٠ أبريل) ١٩٤٨[4].

وكانَت هاتانِ الحملتان تَهدفانِ إلى احتلال وتَدمير القرى الفلسطينية على امتداد الطَّريق الواصل بين يافا والقدس.

- «حملة حامتس» (٢٥ أبريل) لعَزلِ واحتلال يافا والقرى المحيطة[5].
- "حملة يبوسي» (٢٦ أبريل) لاحتلال الأحياء السَّكنية الفلسطينية في القدس الغربية والشرقية، خارجَ حدود البلدة القديمة، إضافةً إلى القرى الواقعة في الشَّمال والشَّرق.
- "حملة يفتاح» (٢٨ أبريل) لاحتلال الجليلِ الشَّرقيِّ بالكامل[6].
- "حملة مكابي» (٨ - ٩ مايو) لاحتلالِ وتدميرِ القُرى المُتبقِّيةِ في السَّهلِ الأوسطِ بينَ الرّملة واللّطرون[7].

وهناك إجماعٌ من كلِّ الكُتّابِ والمُفكِّرينَ المُنصِفينَ شرقًا وغربًا على أنَّ المَذابحَ التي ارتكبَتْها

---

١ - تَرجم الخطة دالت إلى الإنجليزية (وليد الخالدي)، ونُشرت في قسم "شؤون خاصة" في مجلة الدراسات الفلسطينية ص.ص ٤-٢٠.

٢ - هليل كوهين: الغائبون الحاضرون، ص١٣٦.

٣ - هليل كوهين: الغائبون الحاضرون، ص١٣٦.

٤ - جوني منصور؛ وفادي نحاس: المؤسسة العسكرية في إسرائيل، ص.ص ١٩ و١٤٧.

٥ - جوني منصور؛ وفادي نحاس: المؤسسة العسكرية في إسرائيل، ص١٤٨.

٦ - جوني منصور؛ وفادي نحاس: المؤسسة العسكرية في إسرائيل، ص١٤٩.

٧ - جوني منصور؛ وفادي نحاس: المؤسسة العسكرية في إسرائيل، ص١٥١.

العصاباتُ اليهودية -سـواء قبـلَ إعلان الدَّولـة أو بعدَها- كانَت أحدَ أبرز الأسـباب في هجرة عددٍ كبيرٍ من أصحاب الأرض الفلسـطينيين، وقـد قال عنها المُؤرِّخُ الفلسـطينيُّ إلياس صنبر (ولد ١٩٤٧م): "إنَّهـا مَثَّلَت الشَّريكَ الثابتَ في جميع المعارك، ومنحَـت العمليّات المُتعدِّدةَ عنصرَ التَّواصُل، لتُقيمَ ارتباطًا بين الفصول المُتواليةِ للطَّرد: الرَّحيل أو المَوت"[١]. وأصبحَ القتلُ والإرهـابُ من أمور الحيـاة اليوميّة الطَّبيعيّة. وكان اليهودُ يَسـتولونَ على أراضي الفلسـطينيِّينَ دون حقٍّ، ويُهجِّرونَهم دون مُبرِّرٍ، ويَتباهَونَ بذلك. وهو يُعَدُّ شـكلاً من أشـكال طردِ السُّـكانِ (الترانسفير) أو التَّطهير العِرقي.

جدير بالذِّكر أنَّه قبلَ سنتينِ فقط من الإعلان عن قيام الدَّولة اليهودية ١٩٤٨م لم يكن اليهودُ يُشـكِّلونَ سوى أقلَّ من ثُلث السُّـكان، معَ كلِّ المُحاولاتِ الصّهيونيةِ المُكثَّفة للعمل على رفعِ نِسـبتِهم، من خلال تشـجيعِ الهجرة اليهوديّة إلى فلسـطين، ولم يُشـكِّلوا أغلبيةً مُطلقةً في أيِّ مدينة من مدن فلسـطين[٢]. وكانَت العصابـاتُ اليهوديّةُ مُصمِّمةً على تدمـير المجتمعِ العربيِّ المَحليِّ الأصليِّ بقدرِ تَصميمها على بناء حياةٍ يهودية في فلسـطينَ، ورأى الصَّهاينةُ أنَّ صِراعَهُم مع الفلسـطينيِّينَ هو لعبة "حاصِل الجَمعِ يُساوي صِفرًا» أي أنَّ إقامةَ «إسرائيل» تَعني بالضَّرورةِ تَدميرَ فلسطين[٣].

٢ - قيام الدَّولة اليهودية الفاشية واتِّباع سياسة الإبادة والعُنف المُنظَّم

تعرَّضَت أراضي العربِ منذ قيام الدَّولةِ اليهوديّة للنَّهشِ المُتواصِل[٤]، وبدأ التحوُّلُ الكبير في السَّـيطرة على الأرض بعد حرب ١٩٤٨ وحدوث النَّكبة، ونُهبَت الأراضي الفلسطينية والمَزارعُ والقُرى والمُدن، كما دُمِّرَت المَحالُّ والبُنوكُ والمُستشـفيات والمَدارس، وكانَت سياسةُ العُنف والعملياتُ الإرهابية، التي نفَّذَتها المُنظَّماتُ العسـكريّةُ الصهيونية، وعلى رأسها كتائبُ الدِّفاع الذّاتيِّ (هاغانا)، والمُنظَّمةُ القومية العَسكرية «اتسل» المعروفة بـ «إرغون»[٥]، والمُحاربونَ لأجل

١ - إلياس صنبر: فلسطين: التغيب ١٩٤٨، ص١٦٧.
٢ - منصور الراوي: المالثوسية الجديدة والسياسة السكانية لإسرائيل تجاه الشعب العربي الفلسطيني، ص٣٩.
٣ - إدوارد سعيد؛ وآخرون: الواقع الفلسطيني الواقع والحاضر، ص١٣.
٤ - أورن يفتاحئيل: الأراضي: التخطيط وعدم المساواة، ص١٨.
٥ - عبد الوهاب المسيري؛ وسوسن حسين: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، ص٦٥.

حريّةِ إسرائيل «ليحي» المَعروفة بجماعة «شتيرن»، ثم جيشُ الدِّفاع الإسرائيليِّ «زاحل»[١].

وعملَت تلك العصاباتُ على طردِ النّاسِ بالقوّة، واستمرَّ الكيانُ اليهوديُّ بسياسة سحقِ كلِّ ما هو فلسطينيٌّ[٢]، وإثارةِ رُعبٍ واسع النِّطاق، ومحاصرةٍ وقصفِ قرًى ومراكزَ سُكانيّة، وحرقِ منازلَ وأملاكٍ وبضائعَ، وهدمِ (بيوت، منشآت)، وقد أرغمَت الفلسطينيِّينَ على تركِ ديارهم عنوةً، وزرعَت ألغامًا وسطَ الأنقاضِ لمنَعِ السُّكانِ المَطرودينَ من العودة إلى منازلهم[٣]، وهذا يَعني أنَّ الترَّحيلَ كان هدفًا مقصودًا، أسهمَت تلك العصاباتُ في تَنفيذِه، وأدَّى كلُّ ذلكَ إلى تَهجير مئات الآلاف من الفلسطينيين عن ديارهم.

وكان اليهودُ، بعدَ احتلال قريةٍ أو حيٍّ ما في مدينةٍ، كانوا هُم وحدَهُم الذينَ يُقرِّرونَ مصيرَ الأهالي: السِّجن أو الحرِّية، الحياة أو الموت، وقد أشرفَ على عمليّاتِهم في سنة ١٩٤٨ إيسر هرئيل، الذي أصبحَ لاحقًا أوَّلَ رئيسٍ للمُوساد والشّاباك، جهازَي استخبارات «إسرائيل» السِّرِّيَّين[٤].

وقامَت تلك العصاباتُ بتشريد حوالي ٦٠٪ من الشَّعب الفلسطينيِّ من أرضهم (شُرِّد بالقوة حوالي ٨٠٠ ألف من أصل مليون و٣٩٠ ألفًا) إلى خارج الأرضِ التي أقام اليهودُ عليها كيانَهم، وشرَّدوا ثلاثينَ ألفًا آخَرينَ إلى مناطقَ أُخرى في داخل الأرضِ المُحتلَّة نفسها. ودمَّرَ الصَّهاينةُ ٤٧٨ قريةً من أصل ٥٨٥ قريةً كانَت قائمةً قبل الحرب، وارتكبوا ٣٤ مجزرةً خلال حرب ١٩٤٨ بمدنيِّينَ فلسطينيين في أثناء عملية التَّهجير[٥]. ومَن يُحاولُ البقاءَ من الأهالي ويتمسَّكُ بأرضه يتعرَّضُ للموتِ المُحقَّق، ويَعترف (موشية دايان - Moshe Dayan) أنَّه: "لم تكنْ هناك قريةٌ يهوديّةٌ واحدة لم يَتمَّ بناؤُها فوقَ موقعِ لقريةٍ عربيّة»[٦].

أما دراسةُ (سلمان أبو ستة) (و١٩٣٧م)، فتُوضِّحُ أنَّه خلال حرب ١٩٤٧ – ١٩٤٨ احتلَّتِ

---

١ - فواز حامد الشرقاوي: نهج الصهيونية في العمل السياسي والتنظيمي، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، ج ١٥، ص٣٢٨.

٢ - شفيق الغبرا: «من الاقتلاع إلى الصراع من أجل البقاء»، مقال ضمن كتاب العربي "الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة"، ص١٢٢.

٣ - إيلان بابه: التطهير العرقي في فلسطين، ص٢.

٤ - إيلان بابه: التطهير العرقي في فلسطين، ص١٤.

٥ - إبراهيم أبو جابر: المجتمع العربي في إسرائيل، ص٤٢٧.

٦ - كليفورد رايت: حقائق وأباطيل في الصراع العربي الإسرائيلي، ص٨٥.

القواتُ الصهيونيّةُ ٥٣٠ مدينة وقرية عربية، تُشكِّلُ ٩٢٪ من مساحة «إسرائيل» سنة ١٩٤٩، وأنَّها شرَّدَت ٨٥٪ من مواطني تلكَ المُدن والقُرى ما بلغ ٨٠٥ آلاف. وأنَّه ما بينَ صدور قرارِ التَّقسيم في ١٩٤٧/١١/٢٩ ونهايةِ الانتداب في ١٩٤٨/٥/١٥ طردَت القواتُ الصهيونية ٥٢٪ من اللاجئين من ٢١٣ مدينةً وقريةً، وخلال الفترة المُمتدّة حتى توقيعِ اتِّفاقيّاتِ الهُدنة الدّائمة في ربيع ١٩٤٩ طردَت ٤٢٪ من اللاجئين من ٢٦٤ مدينةً وقريةً، وطردَت بعد توقيع تلك الاتِّفاقيات ٦٪ من اللاجئين[١]، وبعد كلِّ ذلك قرَّرَ اليهودُ منعَ عودةِ اللاجئين العرب إلى بيوتهم في فلسطين في الفترة ما بين أبريل حتى يونيو ١٩٤٨م، وأقرَّت من جديد في ١٨ أغسطس ١٩٤٨م[٢].

أمَّا دراسةُ (عاطف قبرصي)، فتُشير إلى أنَّ قيمةَ العقاراتِ والأموالِ المَنقولة، التي خلَّفَها اللاجئونَ في فلسطين سنة ١٩٤٨، تُقدَّرُ بأسعار ذلك الزَّمن بمبلغ ٥٧,٨ مليار دولار، وأنَّ عائدَها السَّنويَّ يومذاك يُقدَّرُ بمبلغ ٢,٣ مليار. وحين يُؤخَذ مُعدَّلُ نُموّ بنسبة ٤٪، وهو المُعدَّلُ الذي جَرى تجاوزُه في فلسطين بين سنتَي ١٩٤٤ – ١٩٤٨، تَرتفعُ قيمةُ الثَّروةِ العربية التي استولى عليها الصَّهاينةُ إلى ٦٣١ مليار دولار في نهاية ٢٠٠٥، وناتجُها السّنويُّ إلى ٢٥,٢٦ مليار[٣].

كان نحوُ ٦,٦٢٪ من مجموع القرى الفلسطينية، التي كانَت موجودةً في فلسطين، قد هُدِّمَت على أيدي السُّلطاتِ الصهيونية، وإذا أُخذ بعَينِ الاعتبارِ أنَّ بعضَ أقضيةِ فلسطينَ لم تقعْ بأكمَلِها تحتَ سيطرةِ العدوِّ عام ١٩٤٨، نجدُ القُرى الفلسطينية الـ٥٩٨ قريةً التي هُدِّمَت قبل ١٩٦٧م قد شكَّلَت ٤،٧٨٪ من مجموع القرى الفلسطينية الـ٥٩٨ التي خضعَت للسَّيطرةِ الصهيونيّة في ذلك العام[٤].

وفي بداية يونيو ١٩٤٨م، كانَت قائمةُ القُرى التي مُسِحَت من على وَجه الأرضِ تَشمُلُ كثيراً من القرى التي كانَت في حماية الكيبوتسات المُجاورة، ومن هذه القُرى في لواء غزة: نجد، وبرير، وسمسم، وكوفخة، والمحرقة، وهوج، ويَبدو أنَّ الكيبوتسات المجاورة أُصيبت بصَدمة حقيقيةٍ عندَما عرفَت أنَّ هذه القرى الصَّديقةَ هُوجِمَت بوَحشيّةٍ، ودُمِّرَت بيوتُها وطُرد سكانُها[٥].

١ - سلمان أبو ستة: حق العودة مقدس وقانوني وممكن، ص.ص ١٢٢ و١٢٣.
٢ - بني موريس: ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، ص١٥٤.
٣ - عاطف قبرصي: تقدير قيمة خسائر الفلسطينيين بدولارات اليوم، ص.ص ٣١٧ و٣١٨.
٤ - غازي السعدي: من ملفات الإرهاب الصهيوني، ص.ص ٣٥ - ٣٦.
٥ - إيلان بابه: التطهير العرقي في فلسطين، ص١٧٥.

ويمُكِـنُ القولُ إنَّ المكاسـبَ التي حصـلَ عليها اليهودُ بعد عـام ١٩٤٨م، من الممتلكات العربيـة الفردية فقط، تُقدَّرُ بحوالي ٧٥٦,٧ مليون جنيه إسـترليني في ذلـك الوقت، بالإضافة إلى حصّة العرب من المُمتلكات العامة، وموارد الرِّزق والنَّشـاط الاقتصاديِّ، ويمُكِنُ أن نَلمسَ حجمَ تأثير هذه الأموال من خلال المقارَنة مع ما أنفقَتْهُ الحركةُ الصهيونية في فلسطين من بدايتها حتى ١٩٤٨م (٢٠٠ مليون جنيه)، ومع المعلومات التي تُشير إلى أنَّ الموازنةَ السَّنويّةَ للانتداب في فلسـطين تَصِلُ إلى ٢ مليـون جنيه، وكذلك المقارنـة مع التَّقديرات التي تُشـير أنَّ إجماليَّ المُمتلكات الفلسطينية المُصادَرة وفَّرَتْ لكلِّ مُستعمِر "مستوطن" يَهوديٍّ ثروةً تصلُ إلى ١١٣٥ جنيه[١]. هذا إضافةً إلى عددٍ كبيرٍ آخَرَ من عمليّات تَفجيرِ القَنابلِ والسَّيّاراتِ المُتفجِّرة التي أودَت بحياة المئات وجرَحَت المئاتٍ أيضًا من المواطنينَ العرب[٢].

كانَت نكبةُ فلسـطين في أهلِها، وأرضِها، وثقافتها، وتاريخِها، وفي مَشـهدِها الحضاريِّ؛ فقد طمسَ الصَّهاينةُ آثارَ مئاتِ القُرى والبلدات والمُدن الفلسطينية، ماحينَ بذلك المراكزَ التاريخيّةَ، وما احتوتْهُ من مسـاجدَ وكنائسَ ومَقاماتٍ، ولم تَسـلَم المقابرُ كذلك، وهناك إحصائيّةٌ[٣] تَرصد مجمـوعَ المباني التـي دُمِّرَت، وكانَـت موجودةً عـام ١٩٣١م، وصـلَ إلى ٥٠,٣٩٩ مبنًى - المَقصود بالمَبنى هنا المَساكنُ فقط، حيثُ لا تَشمل المباني العامّةَ سواء الإدارية منها أو الدِّينية أو التَّعليمية- وإذا أخذنا بعَينِ الاعتبارِ ما بُني من مبانٍ خلال الفترة ١٩٣١م وحتى ١٩٤٨م، فإنَّ العددَ سـيَصِلُ بالتأكيد إلى حوالي ٧٠,٠٠٠ مبنًى قد دُمِّرَ في القُرى والبلدات الصَّغيرة - وهذا العددُ لا يَشـمل آلافَ المباني التي دُمِّـرَت في المُدن: حيفا ويافا واللُّـدّ والرَّملة وطبريّا وصفد وعكّا وبئر السَّبع والقُدس- ولذا فإنَّ تقديرَ العددِ الكُلِّيّ بحوالي ١٠٠,٠٠٠ ليس مُبالَغًا فيه على الإطلاق، وهذا يُعطي صورةً تقديريّةً لحَجمِ النَّكبة[٤].

وبعدَ قيام دولةِ «إسرائيل» عملَت بكلِّ الطُّرُق على سلبِ الأراضي الفلسطينية، حيثُ استولَتِ السُّلطاتُ الصّهيونيةُ على أراضي الفلسطينيين عبرَ أكبرِ عمليّةِ نهبٍ مُنظَّمٍ في التاريخ، وذلك من

١ - أحمد سعد، التطور الاقتصادي في فلسطين، ص١١٥.
٢ - وليد مصطفى، التدمير الجماعي للقرى الفلسطينية، ص١٣.
٣ - راجع: نظمي الجعبة: سجل رواق للمباني التاريخية واستعمالاته لرصد تاريخ القرى المدمرة، ص٣٩.
٤ - نظمي الجعبة: سجل رواق للمباني التاريخية واستعمالاته لرصد تاريخ القرى المدمرة، ص٥٠.

خلال سَـنِّ القوانين والأنظمة التي تُمكِّنُ سُلطات الدَّولة المُختلفةَ من الاستيلاء على الأراضي العربيّة ونقلِ ملكيّتِها إلى أيدٍ يَهوديّة[١]، ومن أهمِّ تلكَ القَوانين ما يلي:

- «قانون المناطق المَحميّة» الذي يُبيحُ لوزير الدِّفاع إخلاءَ المَنازل من سـاكنيها خلال ١٤ يومًا من تاريخ التَّبليغ، وبناءً على هذا القانون طُرِدَ سُكّانُ القُرى المُجاورة للحُدود بحجّة الحفاظ على الأمن.
- «قانون أراضي المَوات» لسنة ١٩٢١م: وهي الأراضي المُهمَلة أو غيرُ المُستصلَحة[٢]. لقد استغلَّت السُّلطةُ هذا القانون، واستولَت على مساحاتٍ شاسعة في الجليل والنَّقب بحُجّة أنَّها أرضٌ مواتٌ، مُستغلّةً بذلك عدمَ احتفاظ العديدِ من مالكي هذه الأراضي بالكواشين التُّركيّة التي أُعطيت لهم.
- «قانون تَسـوية الأراضي» لسنة ١٩٢٨م: وقد استغلَّت السُّـلطاتُ "الإسرائيلية" هذا القانونَ وأبقَت عليه، ثم أقرَّتْ نصًّا مُعدَّلًا ومُجدَّدًا له سـنة ١٩٦٩م بمُوجبه سـجَّلَت "دولة إسرائيل" ادِّعاءَها لمُلكيّة مساحاتٍ شاسعةٍ من الأراضي بصفتِها وريثةَ الحُكمِ البريطاني[٣].
- «قانون أملاك الغائبين»[٤] لسـنة ١٩٥٠م: لقد شـكَّلَ قانون الغائبينَ الأسـاسَ الذي بمُوجبـه اسـتولَت الدَّولـةُ على جميـع الأراضي التـي كانَت ملـكًا لسُـكّان البلاد الذين اضطـرُّوا إلى تَركِها والنُّزوح إلى مناطقَ أخرى لم تكن تحت سـيطرة السُّـلطة "الإسرائيلية"، أو إلى دُولٍ عربيّة. فوصفَتْهُم بالغائبين، فوَضعَت أملاكَهم تحت تصرُّفِ القَيِّم على أموال الغائبين[٥].
- «قانون أملاك الدَّولة» لسـنة ١٩٥١م: بمُوجب هذا القانون وضعَت الدَّولةُ يدَها على جميع الأراضي التـي لم تكنْ مَملوكةً من قِبَلِ أحدٍ (لم يكـنْ لها أَصحابٌ)، أو التي كانَت مُسجَّلةً باسم المَندوب السّامي البريطاني.

---

١ - أورن يفتاحئيل: الأراضي التخطيط وعدم المساواة، ص٢٩.
٢ - أورن يفتاحئيل: الأراضي التخطيط وعدم المساواة، ص٣١.
٣ - انظر: سليم واكيم: «دور القوانين الإسرائيلية في مصادرة الأراضي العربية»، الموقع.
٤ - هليل كوهين: الغائبون الحاضرون، ص٩.
٥ - هليل كوهين: الغائبون الحاضرون، ص١٠.

- «قانـون أسـاسي 'أراضي إسرائيل'» لسـنة ١٩٦٠م: بمُوجب هذا القانون وبحسـب نصوصِ المـادّة الأولى منـه، فإنَّ ملكيّـةَ «أراضي إسرائيل» المُسـجَّلة باسـم دولة "إسرائيل» أو باسم «دائرة الإنشاء والتعمير" أو "دائرة أراضي إسرائيل» لا تَنتقلُ بالبَيع أو بأيّـة طريقة أُخرى. لقد جاءَ هذا القانونُ ليَضمَنَ عدمَ نقلِ أملاكِ الدَّولة لأيِّ طرفٍ كان عن طريق البَيع أو أيِّ وسيلة أُخرى[١].
- «قانون تقادُم العَهد» لسـنة ١٩٥٨م: الذي تمَّ بموجبه الاستيلاءُ على أراضٍ جديدة، وطَردُ أصحابها العرب الشَّرعيِّينَ منها، واستبدالُهم باليهود المُهاجرين[٢].

وأعلنَت الدَّولةُ اليَهوديّةُ أنَّها ستَفتحُ بابَ الهجرة اليهودية لتَجميع المَنفيِّينَ «الشَّعب اليهودي» في كلِّ أنحاءِ الشَّتات، وناشـدتْهم أنْ يَقفوا إلى جوارِها في كفاحها الكبير من أجل تحقيق حلم الدَّهر القديم، وهو اسـتعادة «إسرائيـل»[٣]، وعملَت بجميع الطُّرُق عـلى تَغيير وتبديل المَعالِم الحَضاريّة بكلِّ أشـكالِها في المُجتمعات الفلسـطينية، وخاصّةً المجتمع المَدني، واسـتبدالِه بمَعالِمَ جديدةٍ غريبةٍ عن تلك التي كانت موجودةً لتأكيد عدمِ وجود المَعالِم العربيّة وإزالتِها من الوجود[٤].

ثالثًا: عقيدة الإبادة وتطبيقها في لبنان

منذُ منتصف الخمسينيّات كانَت إسرائيل تطمحُ بشِدّة إلى تَقسيم لبنان، وإيجاد دولة مسيحيّة داخلَه، تَدينُ بالولاء لـ «إسرائيل». وقد أرسل (ديفيد بن غوريون)، وهو أوَّلُ رئيسٍ وُزراءَ إسرائيليٍّ في فبراير من عام ١٩٥٤م إلى وزير الخارجية «الإسرائيلي» (موشيه شاريت - Moshe Sharett) يُوجِّهُه لإنشاء «جيب مسيحيّ» مُتمرِّد داخلَ لبنان. إذ كانت الفكرةُ هي إيجاد جيوب من الأقليّات الدِّينية داخلَ العالم العربيِّ، تكون حالتُها مشـابهةً لحالـة إسرائيل، لكنَّ خطّةَ (بن غوريون) لم تنجـحْ، بل تحـوَّلَ لبنانُ بعد ذلك إلى معقلٍ شـديدِ الأهميّةِ للمُقاومة الفلسـطينية، ومن بعدِها

١ - انظر: سليم واكيم: دور القوانين الإسرائيلية في مصادرة الأراضي العربية.
٢ - واصف منصور: مسألة اللاجئين جوهر القضية الفلسطينية، ص٤٧.
٣ - جامعة الدول العربية: الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين، المجموعة الثانية (١٩٤٧م - ١٩٥٠م)، ص.ص ١٣١-١٣٤.
٤ - جوني منصور: السياسة الإسرائيلية وتغيير معالم المدينة الفلسطينية، ص١٥.

للمقاومة اللُّبنانية ضدَّ جيش الاحتلال. وفي الوقت ذاته ظلَّتْ قُدرةُ اليَمين الدِّينيِّ في إسرائيل حاضرةً ومُتناميّةً وقادرةً على إعادة تَفسير آياتِ العَهدِ القَديم بشكل يَجعلُها وكأنَّها تحثُّ على الاستيلاء على لبنان[١].

وفي ليلة ٢٨ - ٢٩- أكتوبر ١٩٦٥م، قامَت قواتُ الطَّيران الإسرائيليّة بغارةٍ على جنوب لبنان، وذلك ردًّا على العمليّات الفدائيّة التي قامت بها المقاومةُ الفلسطينية، انطلاقًا من جنوب لبنان على القوات الإسرائيلية، وفي ١١ نوفمبر أرسلَت الحكومةُ اللُّبنانية مذكِّرةَ احتجاجٍ إلى (يو ثانت - U Thant) السكرتيرُ العامُّ للأمم المتَّحدة، تتعلَّق بالاعتداءات «الإسرائيلية» على لبنان، إلا أنَّ رئيس الحكومة «الإسرائيلية» (ليفي أشكول - Levi Eshkol) ادَّعى أنَّ تلك العملياتِ جاءَت ردًّا على تكرار الاعتداءات على الأراضي الإسرائيلية من القُرى اللبنانية، وأدت إلى قتلِ وجرحِ العديدِ من المَدنيِّينَ[٢].

وفي الفترة نفسِها نجحَت إسرائيل فعليًّا في تنفيذ مُخطَّطاتِها، وذلك عن طريق إيقاعِ المنظمات الفدائية الفلسطينية مع الحكومة اللُّبنانية في نزاعٍ دائمٍ، من أجل تحقيق أهدافِها السياسية والاستراتيجية في منطقة الشَّرق الأوسط بأكملِها[٣]، وأدَّى ذلك إلى توتُّر العلاقات بين الحكومة اللُّبنانية ومنظمة التَّحرير الفلسطينية.

وبعد انتهاء حرب عام ١٩٦٧م تطوَّرَتِ المقاومةُ الفلسطينية المسلَّحةُ، وتمكَّنَت من القيام بعَمليّاتها العسكرية داخلَ العُمق الإسرائيلي، مُنطلقةً من الأردن ومن لبنان[٤]. وبدأتْ «إسرائيل» بعمليّاتٍ عسكريّةٍ ضدَّ المَصالح اللبنانية الحيوية، لدفعِ الحكومة اللبنانية لأخذِ مواقفَ صارمةٍ من المُقاومة الفلسطينية، ومن أشدِّ هذه العمليات قيامُ قوات الصّاعقة الإسرائيلية بضَربِ وتَدميرِ ثلاثَ عشرةَ طائرةً مدنية في مطار بيروت في ٢٨ ديسمبر ١٩٦٨م، وأدَّت هذه العمليّةُ إلى زيادة حدّة التَّوتُّر القائم أصلاً بينَ الجيش اللبناني وقوات المقاومة الفلسطينية في لبنان، وأعقبَ ذلك وقوعُ أوّلِ صدامٍ عسكريٍّ جدِّيّ بين القوات اللبنانية والفلسطينية في ربيع عام ١٩٦٩م[٥].

---

١ - موقع الجزيرة: «المسيح سيخلف نتنياهو»، تاريخ الاطلاع (٠٥-١٠-٢٠٢٤).
٢ - محمود عادل أبو هلال: تطور العلاقات اللبنانية الفلسطينية (١٩٤٨م – ١٩٧٥م) دراسة تاريخية، ص١٢٣.
٣ - محمود عادل أبو هلال: تطور العلاقات اللبنانية الفلسطينية ١٩٤٨ - ١٩٧٥ دراسة تاريخية، ص١٢٤.
٤ - محمد علي تميم: المملكة العربية السعودية والحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥م - ١٩٨٩م)، ص١٢.
٥ - نادية فاضل عباس: تداعيات الأزمة اللبنانية، ص٥٠.

واستمرَّت الغاراتُ الإسرائيليّةُ المُتكرِّرةُ على لبنان، وأدَّى ذلكَ إلى تزايُد الانقسام بين اللبنانيين، فعَمَّت التَّظاهراتُ والاضطراباتُ المدنَ اللبنانية، ولا سيَّما بعد قيام القوات الإسرائيلية بغارة جويّة على مطار بيروت الدولي في ٢٨ سبتمبر ١٩٦٨، أدَّت إلى ردِّ فعلٍ قويٍّ من الجانب اللبناني، ووقعت اشتباكاتٌ مُتعدِّدة بين الجيش اللبناني والفدائيِّينَ الفلسطينيِّينَ، أثارَت سخطَ المُواطنينَ في البلاد العربية، واستنكرَها عددٌ من زُعماء العالم[١].

ومرَّ الاحتلال الإسرائيليُّ للبنان بمرحلتَين، تمثَّلَت الأولى بالاجتياح الذي وقع في عام ١٩٧٨م تحت مُسمَّى عمليةِ الليطاني، والثانية في عام ١٩٨٢م تحت تسميةِ عملية السَّلام للجَليل[٢].

وقد تعرَّضَ جنوبُ لبنان إلى غزوٍ إسرائيليٍّ في ١٤ مارس ١٩٧٨م، عُرف بعمليّةِ الليطاني، هدفُها ضربُ الوجود الفلسطيني في لبنان، وتنفيذُ المخطَّط الإسرائيليِّ بالسَّيطرة على مياه نهر الليطاني اللبناني[٣]من جهة إسرائيل، وإقامةُ حزامٍ أمنيٍّ لحماية المستوطنات الإسرائيلية الشَّمالية[٤]. وكان هذا بدايةَ التدخُّل الإسرائيليِّ في لبنان، وكان للغزو الإسرائيلي للجنوب اللبناني عام ١٩٧٨ دوافعُ عديدةٌ يُمكِنُ حصرُها بـ[٥]:

بعد فشل عمليّةِ الليطاني في تحقيق الأهداف الإسرائيلية، مع احتلال القواتِ الإسرائيلية أجزاءً واسعةً من الأراضي اللبنانية تحت مُسمَّى «دولة لبنان الحر»، انطلقَت إسرائيلُ في تنفيذ خطةٍ أوسعَ وأكبرَ لتحقيق أهدافها، فبدأ الإعدادُ لعملية عسكرية كبيرة، لضَربِ القُوى الفلسطينية واللبنانية، ولإخراج لبنان من دائرة الصِّراع العربيِّ الإسرائيلي، من خلال تمكين قوى اليَمين اللبناني من السَّيطرة على السُّلطة، تمهيدًا لتوقيع صلحٍ مُنفردٍ بين لبنان وإسرائيل[٦].

ومع مطلعِ الثَّمانينيّات تَصاعدَتْ حدّةُ الحرب الأهليّة في لبنان، ولم يبقَ أمام المسيحيِّينَ خيارٌ سوى التَّمهيد لإدخال إسرائيل، وبالفعل مهَّدوا الطَّريقَ لذلك من خلال قائد القوات اللبنانية بشير

١ - زينة إبراهيم حبلي: العلاقات اللبنانية السعودية (١٩٤٣م - ١٩٩٠م)، ص١٩٢.
٢ - جمال سعد نوفان: الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م، ص١١٣.
٣ - جمال سعد نوفان: الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م، ص١١٣.
٤ - جمال سعد نوفان: الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، ص١١٣.
٥ - أحمد فتحي الحميد: موقف الجمهورية العربية السورية من الحرب الأهلية في لبنان ١٩٧٥ - ١٩٨٣، ص١٣٥ - ١٤١
٦ - أحمد فتحي الحميد: موقف الجمهورية العربية السورية من الحرب الأهلية في لبنان ١٩٧٥ - ١٩٨٣، ص١٩٣.

الجميل[1] و(أريل شـارون - Ariel Sharon) وزير الدِّفاع الإسرائيلي، للبَدءِ بغزوِ لبنانَ، وتَدمير البنية العسـكرية لمنظمة التَّحرير الفلسـطينية، وبالفعل اجتاحَت إسرائيـلُ لبنانَ عام ١٩٨٢م، وأمَّنَت انتخاباتِ ذلك العام بغيةَ تَنصيب (بشير الجميل) رئيسًا للبنان[2].

وزادَ إصرارُ إسرائيلَ عـلى اجتياح لبنان عندما اتَّضح لها أنَّ حلَّ الأزمة اللبنانية الداخلية باتَ وشـيكًا، بفضل الجهود العربية، ومنها جهود المملكة العربية السعودية، ولجنة المتابعة برئاسة الرَّئيس (إلياس سركيس)[3] وبعضوية الأمينِ العامِّ للجامعة، من هنا اجتاحَت «إسرائيل» لبنان في ٦ يونيو ١٩٨٢م، وأطلقَت على العمليّة زورًا اسمَ «عملية السلام للجليل»، وهي حربٌ عصفَت بلبنان، فتحوَّلَت أراضيه إلى ساحة قتال بين منظمة التحرير الفلسطينية وسورية و«إسرائيل»[4].

وتذكـر وثائقُ الجامعة العربية في تلك المـدّة أنَّ «إسرائيل» اجتاحَت لبنان بمائة ألفِ مقاتلٍ، وتمَّ زرعُ الموتِ والدَّمار، وشقَّ العدوُّ لنفسِه بالعنف طريقًا إلى بيروت. ومَن لا يَذكر ما تجرَّعَته الأحيـاءُ الغربيةِ من عـذاب، وما أصابها من المُتفجِّـرات والقنابل العنقوديـة، ولا يَذكر كذلك المقاومةَ الباسـلة للبنانيِّين ومُقاتلي منظمة التَّحرير الفلسـطينية. وأسـفر كلُّ ذلك عن خمسـة وعشرينَ ألفَ قتيلٍ، على أنَّه كشفَ عن وجه «إسرائيل» الحقيقيِّ للعالَمِ أجمع، وتساءلَتِ الأمانةُ العامّـةُ للجامعة ما الذي كان يَبغيـه «الإسرائيليون»، من خلال هذه العملية التي أسـمَوها زورًا وخداعًا "السلام في الجليل"[5].

وبعد اغتيالِ (بشـير الجميل) في ١٤ سـبتمبر ١٩٨٢م، مع بعض مُعاونيه، نتيجةَ انفجارٍ في مركز «الكتائب اللبنانية» في بيروت الشَّرقية، دخلَتِ القواتُ الإسرائيليّةُ بيروتَ الغربية، وبين ١٦

---

١ - ولد (بشير الجميل) في بيروت عام ١٩٤٧، وهو نجل الوزير والنائب (بيار الجميل) مؤسس حزب الكتائب اللبنانية، درس القانون، وبدأ نشاطه الحزبي سنة ١٩٦٩م، وأسهم في إنشاء «القوات اللبنانية»، وأصبح رئيسًا للجمهورية في ٢٣ أغسطس عام ١٩٨٢م، وفي أثناء الاجتياح الإسرائيلي اغتيل في ١٤ سبتمبر عام ١٩٨٢م. (شادي خليل أبو عيسى: رؤساء الجمهورية اللبنانية: خفايا- وقائع- وثائق - صور، ص.ص ٨٢- ٨٣.

٢ - جمال سعد نوفان: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في لبنان ١٩٥٨ - ١٩٧٠ دراسة تاريخية، ص١١٣.

٣ - (إلياس سركيس) (١٩٢٤م – ١٩٨٥م)، رئيس الجمهورية اللبنانية من ٢٣ سبتمبر ١٩٧٦ إلى ٢٢ سبتمبر ١٩٨٢م. (كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص٩٠).

٤ - هيثم كيلاني: غزو لبنان في الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية، ص٧. & سعاد نور الدين: مفاعيل الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان، ص٨٤.

٥ - وثائق جامعة الدول العربية (الأمانة العامة): أزمات الشرق الأوسط وشروط السلام، ص.ص ٨-٩.

و١٨ من الشَّهر نفسه قُتل ما لا يقلُّ عن ألف مدنيٍّ فلسطينيٍّ ولبنانيٍّ في مُخيَّمَي صبرا وشاتيلا، اللَّذين اقتحمَتْهما ميليشياتُ «القوات اللبنانية المسيحية»[١].

وظلَّت «إسرائيل» تُعِدُّ العُدّةَ لتَدمير لبنان، خاصة بعد حرب ٢٠٠٦م مع حزب الله، وسنحَت لها الفرصةُ للانتقام بعدَ تدخُّلِ حزب الله لمساندة غزة، بعد هجوم السّابع من أكتوبر.

وحدثَ تصعيدٌ كبير في سبتمبر ٢٠٢٤م، بدءًا من انفجار أجهزة النِّداء في لبنان ٢٠٢٤م. وبعدَ أيّامٍ، شـنَّ الجيشُ الإسرائيليُّ غارةً في العاصمة اللبنانية بيروت، وقتلَ عضوًا بارزًا في حزب الله وهو إبراهيم عقيل، الذي كان مُتورِّطًا في تفجيرات بيروت عام ١٩٨٣م. وبعد مدّةٍ وجيزة، صرَّحَ الجيشُ الإسرائيليُّ: «أنَّ هجماته ستستمرُّ حتى يتمكَّنَ المواطنونَ الإسرائيليُّونَ في منطقة الصِّراع من العودة إلى منازلهم بأمان»، وتباعاً أسـفرَتْ غاراتٌ «إسرائيلية» عنيفةٌ، وقعَت يوم الإثنين ٢٣ سبتمبر، عن سقوط عددٍ كبيرٍ من الضَّحايا، حيث استشهد ما لا يقلُّ عن ٥٥٨ شخصًا، وأُصيب أكثرُ من ١٨٣٥ شخصًا، بما في ذلك الأطفال والنِّساء والمُسعِفُون.

واستطاعَت «إسرائيلُ» تنفيذَ الهجومِ السِّيبرانيِّ عبرَ تفجيرات «البيجر»، واغتيال كثيرٍ من قادة «حزب الله» من الصَّف الأول، وفي ٢٧ سبتمبر قصفَت القواتُ الجوّيةُ الإسرائيلية ودمَّرَت مقرَّ القيادة المركزية لـ"حزب الله" في بيروت، حيث أسفرَ القصفُ عن استشهاد زعيم «حزب الله» (السـيد حسـن نصر الله) وقادة آخرين. وفي ١ أكتوبر، بدأ الجيشُ «الإسرائيلي» غزوًا مَحدودًا لجنوب لبنان، وأعلنَ أنَّه كان يُنفِّذُ غاراتٍ سرّيةٍ صغيرة في لبنان منذ أشهر.

واجتاحَـت القـواتُ «الإسرائيليّةُ» جنـوبيَّ لبنان مرّةً أُخـرى، مع القصفِ العشـوائيِّ للقرى والبلدات اللبنانية دون وجود خطٍّ أحمر، وأسفرَ ذلك حتى الآنَ عن مقتل نحو ثلاثة آلاف شهيدٍ وأربعةَ عشرَ ألفَ جريحٍ، والأعدادُ مُرشَّحةٌ للازدياد كلَّ يوم.

ترافقَت كلُّ هذه الأحداث مع مؤشِّراتٍ لدى المُتطرِّفينَ في إسرائيل إلى أنَّ دولتَهم ربمَّا تُشهِرُ ورقةَ الوعدِ التَّوراتيِّ والحقِّ الإلهيِّ بالاستيلاء على لبنان قريبًا، في وقت لا يَزال فيه رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو يجرُّ إسرائيلَ إلى نشـوة نهايةِ العالَم بغَـضِّ النَّظرِ عن العواقب، من أجل تحقيق نبوءات أقصى اليَمين الدِّيني، والاستيلاءِ على جميع الأراضي التي يُبشِّرُ بها اليَمينُ ورجالُه، ومِن

١ - جوزيف أبو خليل: قصة الموارنة (سيرة ذاتية)، ص.ص ٢٣٠-٢٣٢.

ثمَّ يَستبدل «النِّظام الدّيمقراطي الإسرائيلي» بـ «مملكة بيت داود»، ويَبني «الهيكلَ الثالث»[1].

خاتمة

ممّا سبقَ، ومن دراسة عقيدة الإبادة في الفكر الصهيونيِّ، وانعكاسها على الحرب في غزة ولبنان، يتَّضح لنا ببساطة كيفَ قتلَت العصابةُ اليهوديّةُ بدم بارد أكثرَ من ٤٠ ألف فلسطيني، وكان غالبيّةُ الضَّحايا من المَدنيِّينَ، ومن الأطفال والنِّساء خاصّةً، بما في ذلك أكثر من ٣٠ ألف امرأة وطفل، بجانب آلاف الجُثث التي ما زالَت تحتَ أنقاضِ المَباني المُدمَّرة، فيما اقتربَ عددُ الجَرحى والمُصابين من نحو ١٠٠ ألف.

كما قتلَت مئات الصّحفيِّينَ والمُراسلينَ، ومئات أُخرى من العاملين في مجال الرِّعاية الصِّحية والطَّواقم الطبيّة، ودُمِّرَت سياراتُ الإسعاف والمُستشفياتُ في غزة. بجانب الاعتقالات العَشوائيّة والاحتجاز الجماعيِّ العَشوائيِّ، والحَرقِ العَمدِ، والقتلِ خارجَ نطاقِ القضاءِ للمُعتقلينَ الفلسطينيين العُزَّل والأطباءِ والعُمال.

كلُّ ذلك استناداً إلى نصوص التَّوراة وعَقيدة المُفكِّرينَ الصَّهاينة أصحابِ النَّظريّات التي تتبنَّى الإبادةَ والتَّطهيرَ العِرقيَّ لتَطبيقِه على الواقع الراهنِ في غزة ولبنان.

١ - انظر: موقع الجزيرة: المسيح سيخلف نتنياهو.

جداول وخرائط

جدول رقم(١)
المجاز الصهيونية في فلسطين ١٩٤٧م-١٩٤٨م

القرية/المدينة	تاريخ المجزرة
العباسية	١٩٤٧/١٢/١٣
أبو شوشة	١٩٤٨/٠٥/١٤
عين الزيتون	١٩٤٨/٠٥/٠٢
بلد الشيخ	١٩٤٨/٠٤/٢٥
بيت دراس	١٩٤٨/٠٥/٢١
بئر السبع	١٩٤٨/١٠/٢١
برير	١٩٤٨/٠٥/١٢
الدوايمة	١٩٤٨/١٠/٢٩
دير ياسين	١٩٤٨/٠٤/٠٩
عيلبون	١٩٤٨/١٠/٢٩
حيفا	١٩٤٨/٠٤/٢١

حواسة	١٩٤٨/٠٤/٢٥
الحسينية	١٩٤٨/٠٤/٢١
اجزم	١٩٤٨/٠٧/٢٤
أسدود	١٩٤٨/١٠/٢٨
جش	١٩٤٨/١٠/٢٩
الكابري	١٩٤٨/٠٥/٢١
الخصاص	١٩٤٧/١٢/١٨ ١٩٤٨/٠٥/٢٥
خبيزة	١٩٤٨/٠٥/١٢
اللد	١٩٤٨/٠٧/١١
مجد الكروم	١٩٤٨/١٠/٢٩
منصورة الخيط	١٩٤٨/٠١/١٨
خربة ناصر الدين	١٩٤٨/٠٤/١٢
قزازة	١٩٤٨/٠٧/٠٩ ١٩٤٧/١٢/١٩
قيسارية	١٩٤٨/٠٢/١٥

سعسع	١٩٤٨/١٠/٣٠
صفصاف	١٩٤٨/١٠/٢٩
صالحة	١٩٤٨/١٠/٣٠
عرب السمنية	١٩٤٨/١٠/٣٠
الطنطورة	١٩٤٨/٠٥/٢٢
الطيرة (حيفا)	١٩٤٨/٠٧/١٦
الوعرة السوداء	١٩٤٨/٠٤/١٨
وادي عارة	١٩٤٨/٠٢/٢٧

المصدر: حزب البعث العربي الاشتراكي، اللاجئون الفلسطينيون وحق العودة: معطيات وحقائق، ص.ص ٢٠- ٢١.

جدول رقم(٢)
شهداء مجزرة دير ياسين

تصنيف العمر	تصنيف العمر	ذكور	إناث	المجموع
الأطفال	١-٥	٧	٥	١٢
الأولاد	٦-١٥	٨	١١	١٩
الشباب	١٦-٢٠	٧	٢	٩

الشباب	٢١-٢٥	٩	٤	١٣
	٢٦-٤٥	٩	٧	١٦
الكهول	٤٦-٦٠	٩	٨	١٧
الشيوخ	٦١-٩٠	١٠	٤	١٤
المجموع		٥٩	٤١	١٠٠

المصدر: وليد الخالدي: خمسون عامًا على ملحمة دير ياسين: قرية أمام منظمات صهيون، المركز الفلسطيني للإعلام.
http://www.palestine-info.com/arabic/terror/history/deryasen.htm

جدول رقم(٣)
ملكية الأراضي التي أُقيمت عليها دولة اليهود

الأرض	المساحة بالدونم
الأراضي اليهودية عام ١٩٤٨	١,٦٨٢,٠٠٠
أراضي الفلسطينيين الذين بقوا	١,٤٦٥,٠٠٠ صادرت نصفها "إسرائيل"
أراضي الفلسطينيين الذين طُردوا	١٧,١٧٨,٠٠٠
مجموع أراضي دولة اليهود	٢٠,٣٢٥,٠٠٠

المصدر: سلمان أبو ستة: حق العودة مقدس وقانوني وممكن، ص١٢٢.

خريطة رقم (١)
مسار تهجير اللاجئين الفلسطينيين

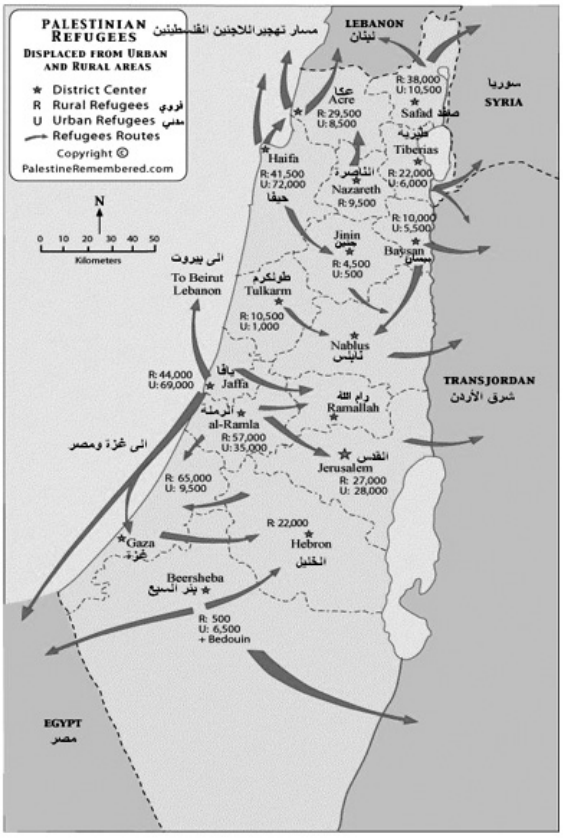

PASSIA. Documents on Jerusalem. Jerusalem: Palestinian academic Society for

PASSIA. Documents on Jerusalem. Jerusalem: Palestinian academic Society for the study of international affairs, 2001

المصادر والمراجع

- الوثائق والقرارات والتقارير
- الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين، المجموعة الثانية (١٩٤٧م – ١٩٥٠م) جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، إدارة فلسطين، القاهرة، ١٩٧٤م.
- وثائق جامعة الدول العربية (الأمانة العامة): أزمات الشرق الأوسط وشروط السلام، مجلة شؤون عربية، الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، تونس، ع(٣٨)، ١٩٨٤م.
- الدوريات والمجلات والندوات العلمية
- محمد علي تميم، «المملكة العربية السعودية والحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥م - ١٩٨٩م)»، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج٢٠، ع ٨، ٢٠١٣م.
- الحجيلان، جميل بن إبراهيم، «نظرات في علاقة المملكة العربية السعودية السياسية في المحيط العربي»، بحوث مؤتمر المملكة العربية السعودية في مئة عام، الرياض، ٢٤- ٢٨ يناير ١٩٩٩م.
- فواز حامد الشرقاوي، «نهج الصهيونية في العمل السياسي والتنظيمي»، مجلة الجامعة الإسلامية، غزة، مج١٥، ع١، ٢٠٠٧م.
- هيثم كيلاني، «غزو لبنان في الاستراتيجية العسكرية الإسرائيلية»، مجلة جامعة الدول العربية - الأمانة العامة، ع ٢٠,١٩، ١٩٨٢م.
- جوني منصور، «منقذ الأرض وداعية ترانسفير للفلسطينيين»، مجلة قضايا اسرائيلية، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ع ١١، ١٢، ٢٠٠٣م.
- سعاد نور الدين، مفاعيل الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان، مجلة شؤون الشرق الأوسط، مركز الدراسات الاستراتيجية، ع٩٥، بيروت، ٢٠٠٠م.
- جمال سعد نوفان، «الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢م»، مجلة آداب الفراهيدي، عدد ١٣، جامعة تكريت، ٢٠١٢م.

المراجع العربية والمعربة

- إبراهيم أبو جابر، «المجتمع العربي في «إسرائيل" في المدخل إلى القضية الفلسطينية، تح.

جواد الحمد، مركز دراسات الشرق الأوسط، سلسلة دراسات، رقم ٢١، عمان ١٩٩٧م.

- جوزيف أبو خليل، قصة الموارنة (سيرة ذاتية)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ١٩٩٠م.
- سلمان أبو ستة، حق العودة مقدس وقانوني وممكن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠١م.
- شادي خليل أبو عيسى، رؤساء الجمهورية اللبنانية: خفايا - وقائع- وثائق - صور، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠٠٨م.
- إبراهيم أبو لغد، تهويد فلسطين، تر. أسعد الزرو، رابطة الاجتماعيين، الكويت، ١٩٧٢م.
- أحمد سعد، التطور الاقتصادي في فلسطين، دار الاتحاد للطباعة والنشر، فلسطين، ط١، أيار ١٩٨٥م.
- إيلان بابه، التطهير العرقي في فلسطين، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، تر. أحمد خليفة، ٢٠٠٧م.
- ميخائيل بالمبو، كيف طرد الفلسطينيون من ديارهم عام ١٩٤٨م، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٠م.
- نظمي الجعبة، سجل رواق للمباني التاريخية واستعمالاته لرصد تاريخ القرى المدمرة، ضمن كتاب أوراق عائلية، دراسات في التاريخ الاجتماعي المعاصر لفلسطين، مؤسسة الدراسات المقدسية، بيروت ٢٠٠٩م.
- حزب البعث العربي الاشتراكي، اللاجئون الفلسطينيون وحق العودة: معطيات وحقائق، د.ن، ٢٠٠٨م.
- منصور الراوي، المالثوسية الجديدة والسياسة السكانية لـ"إسرائيل» تجاه الشعب العربي الفلسطيني، الخصائص السكانية للشعب العربي الفلسطيني، المعهد العربي للتدريب والبحوث الإحصائية، دار النضال، بيروت، ١٩٨٥م.
- نواف الزرو، موجات الغزو الصهيوني: صراع البقاء والإجلاء ١٨٨٢م - ١٩٩٠م، دار اللوتس، عمان، الأردن، ١٩٩٠م.
- عصام سخنيني، الجريمة المقدسة: الإبادة الجماعية من أيديولوجيا الكتاب العبري إلى

المشروع الصهيوني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر، ٢٠١٢م.
- غازي السعدي، من ملفات الإرهاب الصهيوني، دار الجليل للنشر، عمان، ٢٠١٦م.
- سعيد إدوارد؛ وآخرون، الواقع الفلسطيني، الواقع والحاضر، دار الفكر للدراسات، سلسلة كتاب الفكر رقم ٥، القاهرة، ١٩٨٦م.
- رشاد الشامي، الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٦م.
- كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر، بيروت، ٢٠٠٠م.
- الياس صنبر، فلسطين: التغيب ١٩٤٨، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧م.
- أسعد عبد الرحمن؛ و الزرو، نواف، موجات الغزو الصهيوني ١٨٨٢م - ١٩٩٠م، دار اللوتس، عمان، ١٩٩٠م.
- شفيق الغبرا، من الاقتلاع إلى الصراع من أجل البقاء، مقال ضمن كتاب العربي "الفلسطينيون من الاقتلاع إلى المقاومة»، ابريل، ١٩٨٨م.
- نادية فاضل عباس، تداعيات الأزمة اللبنانية، الملف السياسي، مركز الدراسات الدولية، بغداد، ٢٠٠٥م.
- عاطف قبرصي، تقدير قيمة خسائر الفلسطينيين بدولارات اليوم، في كتاب: اللاجئون الفلسطينيون حق العودة، تح. نصير عاروري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٣م.
- كليفورد رايت، حقائق وأباطيل في الصراع العربي الإسرائيلي، تر. عبد الله عريقات وعبد الله عيَّاد، دار الناصر، عمان، ١٩٩٢م.
- هليل كوهين، الغائبون الحاضرون، تر. نسرين مغربي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ٢٠٠٣م.
- عبد الوهاب المسيري؛ و حسين، سوسن، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، القـاهرة ١٩٧٥م.
- وليد مصطفى، التدمير الجماعي للقرى الفلسطينية، مركز القدس للدراسات الإنمائية،

لندن، ١٩٨٧م.

- جوني منصور؛ ونحاس، فادي، المؤسسة العسكرية في اسرائيل، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية (مدار)، رام الله ٢٠٠٩م.
- بني موريس، ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين: "وثيقة إسرائيلية"، دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، عمان، ١٩٩٣م.
- إيلان هاليفي، المسألة اليهودية، تر. فؤاد جديد، مكتب الخدمات الطباعية، دمشق، ١٩٨٦م.
- أورن يفتاحئيل، الأراضي، التخطيط وعدم المساواة، ترجمة: محمد حمزة غنايم، أوراق اسرائيلية، مؤسسة مدار، فلسطين، ٢٠٠١م.

المراجع الأوروبية الحديثة

- Beit-Hallahmi, Benjamin, Original Sins: Reactions on the History of Zionism and Israel, Interlink Pub Group Inc, 1993.
- Friedman, Manis , How Should Jews Treat their Arab Neighbors? Moment, May-June, 2009.
- McDowall, David, Palestine and Israel ,London, New York: I.B. Tauris & Co Ltd,1990.
- PASSIA. Documents on Jerusalem. Jerusalem: Palestinian academic Society for the study of international affairs, 2001.
- Robert, John, They Came from Everywhere, Twelve Who Helped Mold Modern Israel , New York , 1962.
- Robert, John, They Came from Everywhere, Twelve Who Helped Mold Modern Israel, Moment , May-June, 2009
- Wetherell, David, The Use and Misuse of Religious Language: Zionism and the Palestinians, Holy Land Studies, vol. 4, no. 1.2005.

الرسائل الجامعية

- محمود عادل أبو هلال، تطور العلاقات اللبنانية الفلسطينية ١٩٤٨م – ١٩٧٥م دراسة تاريخية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب الجامعة الإسلامية، غزة، ٢٠٠٦م.
- زينة إبراهيم حبلي، العلاقات اللبنانية السعودية ١٩٤٣م- ١٩٩٠م، رسالة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، ٢٠١١م.
- أحمد فتحي الحميد، موقف الجمهورية العربية السورية من الحرب الأهلية في لبنان ١٩٧٥م – ١٩٨٣م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠١٢م.
- جمال نوفان، الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في لبنان ١٩٥٨م – ١٩٧٠م دراسة تاريخية، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، ٢٠١١م.
- مواقع الانترنت المعتمدة
- قناة الجزيرة، نتنياهو كما هو مكتوب في التوراة، على الرابط التالي:
- <٣p٥n٩٧kw/https://tinyurl.com>
- محمد المعزوز، هل الإبادة الجماعية والاغتيالات "وصايا تلمودية"؟ موقع عروبة ٢٢ على الرابط التالي: <https://tinyurl.com/nv٥bedwp>
- وليد الخالدي، خمسون عامًا على ملحمة دير ياسين: قرية أمام منظمات صهيون، المركز الفلسطيني للإعلام.
- < http://www.palestine-info.com/arabic/terror/history/deryasen.htm>

الازدواجيّة الغربية في نظرية حقوق الإنسان والتَّماهي مع السِّياسة الصهيونيّة

■ د. رحمن عبد الحسين ظاهر[1]

ملخّص

رغم العُمق التّاريخيِّ لمكانة حقوق الإنسان في العُرف الأمميِّ والقَوانين الدَّولية، ومُحاوَلة تَصَديرها كمحور للكون في المَنظور العالميِّ والغربيِّ، وأنَّ المعايير التي وضعَها الإعلانُ العالميُّ لحقوق الإنسان تَقتضي من المنظومة الدَّولية الدِّفاعَ عن تلك الحقوق بكلِّ ما لديها من قوة، إلا أنَّ هذا المقدارَ من الأهمية لحقوق الإنسان بقيَ أسيرَ النَّظرية ولم يَخرجْ للتَّطبيق إلا في مواردَ قليلة جدًّا، فقد اتَّضحَ الفارقُ الكبيرُ بين الادِّعاء والحَقيقة في تطبيق حقوق الإنسان في القرون المُتأخِّرة، بل الواضحُ جدًّا أنَّ الدُّوَلَ الكُبرى تَرعى مصالحَها أكثرَ من أنْ تُحافظَ على حقوق الإنسان، وأبسطُ مثال على ذلك ما تعرَّضَ له السُّعوديُّ (جمال الخاشقجي) من إعدام وتَقطيع لجسده في السّفارة السُّعودية في تركيا، وهو يَحمل الجنسيّةَ الأمريكية، إلا أنَّ الأمريكيِّين غضُّوا النَّظرَ مقابلَ تقديم وليِّ العَهد السُّعوديِّ الولاءَ للولايات المتحدة الأمريكية، ودَفع مبالغَ كبيرة للأمريكيِّينَ، وهكذا يضيعُ الدِّفاعُ عن حقوق الإنسان بين المَصالح الغربيّة التي تتفوَّقُ على المبادئ، والتَّفرقة بينَ الإنسان الغربيِّ والإنسان الشَّرقيِّ، وبين المُسلم والمَسيحيِّ، وهذا ما تَجلَّى في الحرب الصَّربية على البُوسنة، حيث سمحَتِ القواتُ الأُمميّة للصَّربِ بقَتلِ المُسلمينَ أمامَ أعيُنِهم بدمٍ بارد.

الكلمات المفتاحية: حقوق الإنسان، الحضارة الغربية، المؤسَّسات الدَّولية، العَولمة.

1 - أستاذ التحليل السياسي في كلية العلوم السياسية الجامعة المستنصرية – العراق.

مقدمة

إنَّ الحديثَ عن القِيَمِ الإنسانيّةِ هو أمرٌ بَديهيٌّ، لأنَّه منذ فجر الإنسانية وضعَتِ المجتمعاتُ الإنسانية قِيَمًا ومَبادئَ، احترمَها الإنسانُ، ووَضعَ لها قواعدَ اجتماعية، تعارَفَت عليها الأممُ والمُجتمعات، واستمرَّت على مرِّ الزَّمان، ولا سيَّما بعد الحربَينِ العالميَّتَينِ الكبيرتَينِ، اللَّتينِ كان لهما تأثيرٌ كبيرٌ على تغيُّرِ مجرى حقوق الإنسان، بما نتجَ عنهما من تدميرٍ للدُّول والمُجتمعات وقَتلٍ للبشريّةِ بشكلٍ أعمى، وتمَّ التأكيدُ على حقوق الإنسان لا سيَّما بعدَ الحرب العالمية الثانية، لشِدّةِ ما رافقها من مآسٍ وجرائمَ وإبادةٍ وهَدمٍ وقَتلٍ للمَدنيِّينَ، لذلك جاء الإعلانُ العالميُّ باحترام حقوقِ الإنسان، وحمايةِ المدنيِّينَ، ومنعِ الإبادة الجماعيّة، متماشيًا مع مرحلة أممية جديدة.

لكنَّ هذا الإعلانَ لم يُطبَّق على كلِّ الدُّول والمُجتمعات على حدٍّ سواء، بل حصلَ فيه كثيرٌ من التَّجاوُز وغضِّ البصر حين يكون المُتضرِّرُ من المسلمين، كما حصل في «البوسنة والهرسك»، وفي الحروب التي قام بها الاحتلال الأمريكي في العراق وأفغانستان، وما يقوم به الكيان الصهيوني منذ عام ١٩٤٨م وإلى يومنا هذا، حيث نجد الغَربَ يُغضي عن جرائم الكيان الصهيونيِّ في غزّةَ ولبنانَ، ويُدافعُ عن حقوق الإنسان في الحرب الرُّوسيّة على أوكرانيا، ويَعُدُّ الأعمالَ القتالية في أوكرانيا جرائمَ حربٍ لا يُمكِنُ السُّكوتُ عليها.

إنَّ الغربَ يدَّعي أنَّه رائدُ الدِّفاع عن حقوق الإنسان، وأنَّه مُؤسِّسٌ لتلك القوانين التي تَحفظ كرامةَ الإنسان، وتَسعى لتنظيم حياته، وعدمِ التدخُّلِ في شؤونه ومعتقداته، مهما كان لونُه وجنسيّتُه، لكنَّ الواقعَ يُثبتُ غيرَ ذلك، فنرى الغربَ يُسوِّغ للإبادةِ الجماعيّة ويَعدُّها دفاعًا عن النَّفس، ويُنكرُ حقوقَ الشُّعوب ويُسمِّي سعيَها لنيل حقوقِها إرهابًا. لذلك نسأل:

السُّؤال الأوّل: هل حقوق الإنسان مُجزَّأة؟

السُّؤال الثاني: هل تقومُ مسألة حقوقِ الإنسان على المَصالح؟

السُّؤال الثالث: لماذا تختلفُ معاييرُ الغرب، فيما يخصُّ حقوقَ الإنسان، بين أوكرانيا والبُوسنة وغزة ولبنان؟

أولًا: الإطار المفهومي لنظرية حقوق الإنسان

١ - تعريف مفهوم حقوق الإنسان

يُمكِنُ تعريفُ حقوق الإنسان على أنَّها: الحقوقُ التي تُمنَحُ للإنسان لمُجرَّدِ كونِه إنسانًا، بغَضِّ النَّظرِ عن نوعِه أو عِرقِه أو عَقيدته أو دينه أو لَونه أو جِنسيّتِه أو لغته[١].

ويُمكِنُنا الإشارةُ إلى أنَّها مجموعةٌ من القِيَم والمَبادئ والمَعايير الاجتماعية، التي تصِف نموذجًا من السُّلوك البشريِّ، يكونُ المَنطقُ الحاكمُ فيه هو منطق الإنسانية، بمقدار احترام الآخَرينَ مَهما كانَ لونُهم أو انتسابُهم أو قَوميّتُهم أو دِينُهم، فيَتوجَّب احترامُ الإنسان لأنَّه حقٌّ أساسيٌّ لا يُمكِنُ تَجاوُزُهُ أو الاعتداءُ عليه، كما تَحتاج هذه الحُقوقُ إلى غطاءٍ قانونيٍّ من أجل حمايتِها وعدمِ انتزاعِها، فأُوجِدَت المُنظَّماتُ والأنظمةُ الدَّولية.

وهناك تعريفٌ لـ"حقوق الإنسان» على أنَّها: «حقوقٌ مُتداخِلةٌ ومُتكاملةٌ ومُترابطةٌ مع عمليّةِ خلقِ الإنسان، فهي كقَلبِه ورُوحِه مُرتبطةٌ بوُجوده وذاتيّتِه وخلقِه، وهي ضرورة من ضرورات الوُجود»[٢].

ومفهومُ حقوق الإنسان يُشكِّلُ اليومَ في العصر الحاضر مَصدرًا جديدًا للشَّرعيّة الدَّولية، ويُمثِّل واقعًا جديدًا في مسرح العلاقات الدَّولية، أدَّى إلى إنتاج تَعديلٍ في المفاهيم السِّياسية المَعمولِ بها على مستوى الدَّولة وواجباتِها، وجعلَ مِنَ الرَّقابة الدَّولية أمرًا حتميًّا، لتُصبِحَ حمايةُ حقوق الإنسان واقعًا بعدَما كانَت شعارًا.

وحقوقُ الإنسان ليسَت أمرًا قابلًا للتَّغاضي عنه، فقد وُجد في الشَّرائع السَّماوية قبل آلاف السِّنين، قبلَ إقراره من الأمم المتَّحدة، بل اتَّفقَت عليه سيرةُ العُقلاء منذُ أن خلقَ اللهُ البشريّةَ وإلى يومِنا هذا، تلكَ الحُقوقُ التي تتجسَّدُ من خلالها الكرامةُ البشريّةُ، فالنَّاسُ لا يُمكِنُهُم العيشُ من دون كرامة، لأنَّ قيمةَ الإنسان بكرامتِه، ولا تكون ثمّة حياةٌ كريمة دون احترامٍ لحقوق الإنسان،

١ - مجموعة مؤلفين: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الانتخابية والبرلمانية، ص١٣٨.
٢ - أحمد حسين يعقوب: حقوق الإنسان عند أهل بيت النبوة والفكر المعاصر، ص١٩.

والكرامةُ لا تُباع ولا تُشترى، بل هي مُتأصِّلةٌ في الإنسان، دون النَّظرِ إلى لونه أو جنسه أو مُعتقَده، ومما جاء في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: «يُولَدُ جميعُ النَّاسِ أحرارًا مُتساوِينَ في الكرامة والحقوق، وقد وُهبوا عقلاً وضميراً، وعليهم أنْ يُعامِلَ بعضُهم بعضًا بروح الإخاء»[1]، فهذا نصٌّ صريحٌ بقُدسيّة الكرامة الإنسانية.

ويمُكنُ أن نُعطِيَ تعريفًا جديدًا لحقوق الإنسان بمَجموعها بأنَّها: «كُلٌّ مُترابطٌ لا يَتجزَّأُ، وهي حقوقٌ مدنيّةٌ وسياسيّةٌ واقتصاديّةٌ واجتماعيّةٌ وثقافية، لا يُمكِنُ الفَصلُ بينها أَو التَّركيزُ على فئة دونَ أُخرى"، وتَرتبطُ هذه الحقوقُ على الصَّعيد الدّاخلي مع قضايا التطوُّر والتَّنمية لكلِّ بلدٍ من جهة، ومع القضايا الكبرى الدَّولية من جهة ثانية، وهذا ما يُعبرَّ عنه بالعلاقة المُترابطة بين الخصوصية المَحلِّية والعالمية، التي تَفرِضُ احترامَ نصِّ المواثيقِ والعهود والاتِّفاقيات الدَّولية الصّادرة وتَطبيقها[2].

٢ - أهميّةُ حقوق الإنسان في الشَّرائع

تَحظى حقوقُ الإنسان هذه بأهميّة كبيرة بفَضلِ الشَّرائع السَّماوية والقوانينِ الدَّولية التي وضعَتْها المُنظَّماتُ الدَّولية، وأقرَّتها الأمَمُ المتَّحدة، وصادقَت عليها أغلبُ دول العالَم، إن لم يكن جميعُها، والتي وُضعت من أجل حماية الإنسان، فمختلف القوانين المَعنيّة بمجال حقوق الإنسان تَحمي الأفرادَ والمجموعاتِ من مختلف الانتهاكات، التي تمسُّ الحريّات الأساسيّةَ أو الكرامةَ الإنسانية، وتَحفظُ الجنسَ البشريَّ من كلِّ أنواع الظُّلم، وهذه القوانين تُؤسِّسُ لحماية حقوق الإنسان، وليس إيجاد حقوق الإنسان، لأنَّ حقوق الإنسان وُجدت مع وجود الإنسان، وتَندرج ضمنَ ما يُعرَف بالقانون الدَّولي؛ فالإنسان هو محورُ الحقوق جميعِها، وكلاهما لا يَنفصل عن الآخر، فلا الحقوقُ تَنفصلُ عن الإنسان، ولا الإنسانُ يَنفصلُ عن الحقوق[3].

ويمُكِنُ بيانُ حقوق الإنسان في الديانة اليهودية على أنَّها حقوقٌ للفرد اليَهوديِّ فقط في مقابلِ

---

1 - United Nations, Human rights a basic handbook for un staff, p2.

٢ - سليمان الكريدي: «حقوق الإنسان في الوطن العربي من الواقع الراهن إلى ضرورة الانطلاق»، في: <http://www.banias.net>

٣ - كمال سعدي: حقوق الإنسان، ص٨.

سـائر البَشر؛ إذ جاء في «التلمود» ما معناه أنَّه يجبُ على كلِّ يهوديٍّ أن يَبذلَ جهدَه لمَنع تسلُّط باقي الأُمم على الأرض، لتُصبحَ السُّلطةُ لليهود وحدَهم، فإذا لم تكنْ لهم السُّلطةُ عُدُّوا كأنَّهم في حياةِ النَّفي والأَسْر، ويَعيشُ اليهودُ في حربٍ مع باقي الشُّـعوب حتى يَنتقلَ لهم الثَّراءُ والسُّلطانُ من الجميع، وحينئذٍ يَدخلُ النّاسُ أفواجًا في دين اليهود[1].

وجاء أيضًا في «التلمود»: أنَّ الحاخام يُجيزُ اللُّجوءَ إلى الغشِّ في المُعاملاتِ مع غير اليهود، ويَحلف أيمانًا كاذبًا، وأكَّدَ بأنَّ اليَمينَ الذي يُقسِمُ بها اليهود في معاملاتِهم مع باقي الشُّعوب لا تُعَدُّ يمينًا، إذ إنَّه أقسمَ لحيوان، وإنَّ القَسَم لحيوان لا يُعَدُّ يمينًا[2].

أمّا حقوق الإنسـان في الشَّريعة الإسـلامية فقالَ اللَّهُ تَعَـالىَ: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًـا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَـادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ۝ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَيَسْـعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُـوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [المائدة: ٣٢- ٣٣].

ونَختم هذا الإطارَ بتَعريفٍ مهمٍّ لحقوق الإنسـان بأنَّهـا: «جملةٌ من المعايير التي تَهدف إلى تنظيم العلاقاتِ بين البشرِ وإلى تأمين مصالح الإنسانية»[3].

٣ - الغرب وحقوق الإنسان

بدأت بوادرُ ظهور المُطالَبةِ بحقوق الإنسـان، في الفكر الغربيِّ، التي تتمحورُ حول الإنسان وحقوقِه، في القرن السـابع عشر في غرب القارة الأوروبية، بعد بروز فكرةِ المُواطَنةِ في الدَّولة، وتَـدور هذه الفكـرةُ حول حقوقِ المواطـن في الدَّولة، وأنَّ من واجبِ الدَّولـةِ احترامَ «حقوق المواطـن»، وعدمَ التعدِّي عليها، ثم كثُرَ الحديث عن هـذه الحقوق، وأصبح مصطلحُ حقوق الإنسـان أكثرَ رواجًـا في القرن الثامن عشر، وفي فترة الاسـتقلال الأميركي الـذي جاء إعلانُه

١ - السيد عبد الحميد فودة: حقوق الإنسان بين النظم القانونية والوضعية والشريعة الإسلامية، ص١١٣.
٢ - السيد عبد الحميد فودة: حقوق الإنسان بين النظم القانونية والوضعية والشريعة الإسلامية، ص١١٣.
٣ - عبد الهادي عباس: حقوق الإنسان، ج١، ص١٦.

بمقولة: "كلّ البشر خُلقوا مُتساوين"، رغم الإبادة الأمريكية لشَعبِ الهنودِ الحُمر في أمريكا الشَّمالية.

وبرزَت شعاراتُ الثَّورة الفرنسية ١٧٨٩م المُطالبةُ بالمُساواة والحقوق لجميع البشر، والعملِ لترتيب قواعدَ إنسانية تَحمي حقوقَ الأفراد والمُجتمعات، وتُعطي مجالاً لعَيش حياةٍ كريمة، وهذا المجتمع الفرنسيُّ صاغ فلاسفتُه مبادئَ الحرية والعدالة والمساواة، ووضعوا حجرَ الأساسِ لمَفاهيمَ متطوِّرة لحقوق الإنسان، وجعلوا مسؤولية حمايتِها على عاتق المجتمع الدوليِّ، وأُنشئتْ مُنظَّماتٌ وهيئاتٌ محليّةٌ ودَوليّة لهذا الغرض، مثل عصبة الأمم، والأمم المتحدة، وكان الإعلانَ العالمي لحقوق الإنسان في العام ١٩٤٩م.

ونصَّت المادة (١) من الإعلان العالميِّ على ما يأتي: «يُولَدُ جميعُ النَّاسِ أحرارًا مُتساويينَ في الكرامة والحقوق، وقد وُهبوا عقلاً وضميرًا، وعليهم أنْ يُعامِلَ بعضُهم بعضًا بروح الإخاء»[١].

وقد جاء في الإعلان العالميِّ أنَّه «لا يُمكِنُ التذرُّعُ بهذا الحقِّ إذا كانَت هناك ملاحقةٌ ناشئةٌ بالفعل عن جريمةٍ غيرِ سياسية أو عن أعمالٍ تُناقِضُ الأُممَ المتَّحدة ومبادئَها»[٢].

وقد أكَّد (توماس جيفرسون - Thomas Jefferson)، أبرزُ مُؤسِّسي الولايات المتحدة الأمريكية، أنَّ من حقِّ النّاسِ أن يتمتَّعُوا بالحياة والحرية وتحقيق السَّعادة بوَصفِهم بشرًا قبل خضوعِهم لأيّة سُلطة سياسيّة، وما على القابضينَ بالسُّلطة إلا توفيرُ الحماية لتلك الحقوق[٣].

ممَّا تقدَّمَ يتَّضحُ لنا مدى التطوُّرِ الفكريِّ لمفهوم حقوق الإنسان عند الغرب، وكيفيّةُ العملِ على الدِّفاعِ عن البشر، بغَضِّ النَّظرِ عن الانتماء والدِّين واللَّون والعِرق والجنسيّة، لكنَّ هذا الأمرَ بقيَ على المستوى النَّظريِّ، وأمَّا في المستوى التَّطبيقيِّ فكانَ هناك تمَييز بينَ اللَّون الأبيض والأسود، وبين الغربيِّ والشَّرقيّ، وبينَ ما يَعود بالمَصلحة لدُوَل الغرب وما يَضرُّ بالمَصلحة، فلم يتمكَّنِ المجتمعُ الدَّولي من وضع معاييرَ عالميّة تَنطبقُ على الجميع دون تمييز، بل بقيَت في مستوى الإطار المَفاهيميِّ، وقد تُطبَّق في حيِّزٍ زمانيٍّ أو مكانيٍّ تَبعًا للمصالح والمَفاسد التي قد تَصدر من هذا الحيِّز.

---

١ - أمير موسى: حقوق الإنسان مدخل إلى وعي حقوقي، ص١٩.
٢ - طه العنبكي وعبد الأمير الأسدي: حقوق الإنسان، ص٦١.
٣ - فرانسيس فوكاياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ص١٤٧.

ثانيًا: الانتقائية في تطبيق حقوق الإنسان

١ - حقوق الإنسان في النَّظرية

هناك مفارقةٌ في مفاهيم حقوق الإنسان العالميّة بين النَّظرية والتَّطبيق، إذ تُظهرُ أساليبُ بعض الدُّول الغربية، القائمةُ على الانتقائية، عمقَ النِّفاق الغربيِّ في استخدام تلك الحقوق في المناطق التي تمُثِّلُ مصالحَهم، ففي الوقت الذي يَنفعُهم يَستخدمون تلك الشعاراتِ لصالحهم، وفي الوقت الذي يُشكِّلُ خطرًا على مصالحهم يَصمتون، وكأنَّ الإبادةَ التي تحصل بعلمِهم وأسلحتِهم مسموحةٌ، وكذلك عندما تمُارس هذه الحقوق داخل بلدانهم، في حين أنَّها تتجاهلُها عندَما تتعامل بها خارجَ بلدانِهم أو تمُارسُها مع غير سكّانها الأصليين.

في العام ١٩٤٥م، صدرَ ميثاقُ الأمم المتحدة، الذي ينصُّ في فقرته رقم (٥٥) على أنَّ المجتمع الدَّولي يتحمَّلُ مسؤوليّةَ إشاعةِ احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسية للجميع، بلا تمييز بسببِ الجنس أو اللُّغة أو الدِّين.

أمّا على صعيد المجتمعات والأفراد والثَّقافة الشَّعبية، فقد سارعَت الشُّعوب في كثيرٍ من الدُّول الدِّيمقراطية إلى إنشاء مُؤسَّسات غيرِ حكومية، تُعنَى بمُراقَبةِ التزامِ الدُّول التي تدَّعي الدِّيمقراطية بمعايير حقوق الإنسان، فتمَّ تأسيسُ منظمةِ العَفوِ الدَّولية وغيرها من المُؤسَّسات التي تُعنى بحقوق الإنسان، حتى باتَت شعاراتُ الحريّات والمُساواة وعدم التَّمييز العنصري ثقافةً في العالم، وأصبحَ رائجًا على المستوى العالميِّ أنَّ الغربَ هو راعي حقوق الإنسان الرئيسيّ، وأنَّه لا يَتخلَّى عن تلك الحقوق، بل يُطالبُ بها إذ انتُهكَت في أيِّ دولة، والواقعُ يَكشفُ عكسَ ذلك، والمَقصودُ من نشرِ مثلِ ذلكَ الإعلام التَّرويجُ للنَّموذج الغربيِّ الذي يتوجَّب تَعميمُه على جميع البشر، لأنَّه، بحسبِ ما يتصوَّرُه، النَّموذجُ الأصلحُ والأمثل للإنسان صاحبِ القِيَمِ والمبادئ[1].

٢ - حقوق الإنسان في التَّطبيق، حرب البوسنة نموذجًا

لقد أظهرَ موقفُ الأمم المتَّحدة، برئاسة أمينها العام (بطرس غالي) آنذاك، مَوقفًا مُتخاذلًا للغاية، يُحسَب ضدَّ إدارة الأمم المتَّحدة في حينها؛ لأنَّه موقفٌ يَنمُّ عن نفاقٍ في ادِّعاء الدِّيمقراطية، وكون المُنظَّمة العالميّة تُدافع عن نوع البشرِ، وتُنفِّذُ أجنداتٍ لدُولٍ بعَينِها، إذ ثبتَ أنَّ المنظمةَ تسيرُ وَفق

١ - فؤاد محسن: حقوق الإنسان، قناة الميادين <https://www.almayadeen.net>.

إملاءات الـدُّول العُظمى، فقد تمَّ الاتِّفاقُ الضِّمنيُّ بين الغرب والأمم المتَّحدة على منع وُصول السِّلاح إلى شعب البوسنة والهرسك، على حين كان الصِّربُ يَمتلكون قدراتٍ عاليةً من التَّسليح.

فكانَ القرارُ الأوربيُّ والأُمميُّ يَعني تركَ مُسـلمي البوسنة، رغم قلّة عددهم، ونقصِ عتادهم، في العراء في مواجهة طائرات ومُدرَّعات ودَبّابات ومَدافعَ صربيّة، تقومُ بجريمة إبادةٍ جماعيّةٍ بلا رحمة، لقد ثبتتْ مسألةُ تواطُؤِ القوات الدَّولية في البوسنة مع مجرمي الحرب الصرب، إبان حرب الإبادة، ومن ذلك المشاركةُ في اغتصاب البوسنيّات، إذ احتفظَت الحكومةُ البوسنيّةُ بوثائقَ تُثبتُ إدانةَ قائد القوات الدَّولية في سراييفو الجنرال الكندي (ماكينزي - Lewis MacKenzie) في هذه الجرائم، وقد تمَّ التَّحقُّقُ من إدانته وإقالتُه في يوليو/تموز ١٩٩٢م.

والمفـروضُ أنَّ القوات الدَّولية موجودةٌ لحفظ المدنيِّينَ والنِّسـاء مـن وَيلات الحرب بقرارٍ دوليٍّ، وقد قامَت قوّاتُ اليونفل الموجودة بالاشتراك في عملية اغتيال رئيس وزراء البوسنة (حقي توايلديتش - Hakija Turajlić)، الذي كان يسـتقلُّ سيارةً مُصفَّحةً تابعةً للأمم المتحدة، وترفعُ علـمَ الأُمم المتَّحدة في طريقها إلى سراييفو، فاسـتوقفَتْها دبابتان صربيّتان ومُسـلحونَ صرب، وأخرجوا منها رئيسَ وزراء البوسنة وقتلوهُ بالرَّصاص على مرأًى من القوات الدَّولية، وجنود الفرقة الفرنسية، دون أن تُحرِّكَ ساكنًا، علمًا بأنَّ تعليمات القوافل الدَّولية تمَنعُ فتحَ المُدرَّعات وتَفتيشها أو إعطاء معلومات عن الأشـخاص الذين تُقلُّهُم، فمِن أينَ عَرف الصِّربُ شـخصيّةَ المسـؤول البُوسنيِّ، وكيفَ سُمح لهم بفتح المدرعة؟[1].

وقد أعلنَت الولاياتُ المتَّحدةُ الأمريكية أنَّ الحربَ الصِّربيّةَ على البوسـنة هو شـأنٌ أوروبيٌّ، فكان من مصلحتها تقليصُ الاستقرار الأوروبيِّ، حتى تُبقي أوربا ضعيفةً ومُنهَكةً وغير قادرة على لعب دور دوليٍّ يُنافس القوّةَ الأمريكيّةَ حفاظًا على المصالح الأمريكية في العالم، وأيضًا لإبقاء أوربا في حاجة إلى الولايات المتَّحدة الأمريكية، علمًا أنَّ التَّصريحات الأمريكية مُتضاربةٌ، فتارةً تُؤكِّدُ ضرورةَ الحلِّ العسكريِّ، وتارةً تَدعو البوسنة إلى التَّسوية القائمة على التَّقسيم.

وفي الوقت الذي كان المجتمعُ الدَّوليُّ يتوقَّعُ أن يكونَ موقفُ الرَّئيس الأمريكي الديمقراطي (بيل كلينتون - Bill Clinton) أكثرَ جدّيةً بعدَ تولِّيه الإدارة، إلا أنَّه خيَّبَ الظُّنونَ عندَما أكَّدَ بعدم إرسـال قوات أمريكية إلى مـكان الحرب، وكان أقصى مـا قدَّمَه الغربُ للبوسـنة هو الإعانات

١ - انظر: إحسان الفقيه: «مأساة البوسنة والهرسك العار الذي يلاحق الغرب».

والإغاثات، التي تُقدَّمُ لهم ليقتاتوا بها تحتَ القصف والذَّبح والدَّمار، وقد انتظرَ الغربُ أكثرَ من ثلاث سنوات رغم أنَّ الحربَ قد دمَّرَت الشَّعبَ المُسلمَ البوسنيَّ على مرأًى ومَسمَعٍ من الغرب، ولم يُحرِّكِ الغربُ ساكنًا، لأنَّها باعتقادهم حربٌ دينيةٌ عقائديةٌ، على حين أنهى الصِّراعَ الصربيَّ الكرواتيَّ في وقت قصير، وأرسل أكثر من ١٤ ألف جندي لهذا الغرض، لقد كان رئيسُ الصِّرب (سلوبودان ميلوفيتش - Slobodan Milošević) واثقًا من أنَّ العالَم لن يُحرِّكَ ساكنًا عندما قال: «العالَمُ لن يُشعِلَ حربًا بسبب محافظتِنا على حقوق الصِّرب، وإنَّ أوروبا لا تُريد الإسلامَ».

ولْنقارِنْ بين موقف الغرب من الحرب الرُّوسية على أوكرانيا، وتحرُّكِه السَّريع لدعم أوكرانيا، وموقفه من الحرب الصربيّة على البوسنة، ولماذا لم يكنْ موقفُ الغرب حاسمًا في غزة ولبنان، اللَّتينِ تواجهان أبشعَ المذابح، مُماثلاً لموقفه من حرب أوكرانيا.

٣ - الصهيونية وتبرير الافعال الإجرامية

أثبتَ كتابُ (بني موريس - Benny Morris)[١] الشَّهيرُ «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين»، الذي صدرتْ طبعتُه الأولى عام ١٩٨٨م، وعبر تنقيبه في الأرشيفات العسكرية الإسرائيلية، زيفَ الادِّعاء «الإسرائيلي» في مغادرة الفلسطينيين لأرضهم طوْعًا، وأنَّ الصُّورةَ التي رسَمَها «الإسرائيليون» لأنفسِهم بأنَّهم يَخوضون حربًا أخلاقية منذ سنة ١٩٤٨م ضدَّ عالَمٍ عربيٍّ بدائيٍّ غيرُ مطابقة للواقع، ويَمضي المُؤرِّخُ (إيلان بابيه - Ilan Pappé) خطوةً أكثرَ جُرأةً من (موريس) في تحليله أسبابَ تدمير المجتمع الفلسطيني عام ١٩٤٨م، إذ يُطلِقُ على النَّكبة تسميةً أكثرَ دِقّةً هي التَّطهيرُ العِرقيُّ، ويُوظِّف (بابيه) أنموذجَ «التَّطهير العِرقيِّ»، بدلاً من «أنموذج الحرب»، كمُوجِّه لنقاش الحَدث، ويَرى أنَّ غيابَ هذا الأنموذج، كأساسٍ للبحث العلميِّ في تلك الأحداث، يُفسِّر جزئيًّا لماذا يَستمرُّ إنكارُ النَّكبة طوال المدة الماضية[٢].

وتُعَدُّ النكبةُ إبادةً جماعية، ويَشرح (إيلان غريلسامر - Ilan Greilsammer)[٣] سياقَ ظهور أسطورة «حرب الاستقلال»، التي احتلَّت مكانةً مركزية في الثَّقافة السياسية «الإسرائيلية»، بوَصفِها

١ - مؤرخ "إسرائيلي".
٢ - سعد سلوم: الابادة الجماعية في الشرق الأوسط، ص١٣٣.
٣ - أستاذ العلوم السياسية في «جامعة بار-إيلان».

أسـطورةً مُناسـبةً تُعفي "إسرائيل" من فكرة الاحتلال لأرض فلسطين، ولكي تُفسِّر هذه المأساةَ على نحو يَحمي صورةَ الدَّولة الصهيونية، ونظافةُ حربٍ قامَت على التَّطهير العرقيِّ شجَّعَت القيادةَ «الإسرائيليـة» والحكومة و«الكنيسـت» والجيش والجامعات وجهـاز التَّعليم على دعم نظريةٍ مركزية تُعزِّزُ إنكارَ «إسرائيل» تحمُّلَها أيَّ مسـؤوليّةٍ على الإطلاق في الكارثة الفلسطينية، وإلقاء المسـؤولية على القادة العرب الذين شجَّعوا السـكانَ العربَ في فلسطين على مغادرة منازلهم، والاحتماء على الجانـب الآخر من الحدود في البلدان العربية، وقد غادرَ العربُ الفلسـطينيُّونَ منازلَهم وهربوا، مُعتقدينَ أنَّهُم سـيَعودونَ بعدَ بضعةِ أسـابيع، لكـنَّ هزيمةَ العرب جعلَت هذه العَودةَ غيرَ مُمكنة[1].

وهذه الإبادة والحرمان والتَّهجير القسريُّ لم تكن سوى البداية؛ إذ انطلقَت منذُ النَّكبة ديناميتُ إبـادةٍ جماعيـة مُتواصِلة طويلة الأمد، يَعيش معظمُ الفلسـطينيِّينَ في ظلِّها، مـن ظروفِ انعدام الجنسيّةِ والاحتلال والتَّشـتُّت، والنَّكبةُ لا تمُثِّل ماضيًا، بل تمُثِّلُ حاضرًا مُستمِرًّا بشكل واضح، عَبر سياسات التَّطهيرِ العرقيِّ المُستمرّة لـ«إسرائيل»، ولا تَزال نتائجُها تَتكشَّف، وتُؤثِّرُ على الحياة الفلسـطينية المعاصرة، وتكفي مطالعةُ أيِّ مصدرٍ يَتناول الواقعَ اليوميَّ الفلسطينيَّ، ليُدرِكَ المَرءُ كيف تَترك آثارَها من المُعاناة، والضَّعف السـياسي، على كلِّ أسرة فلسطينية، وعلى الفلسطينيين عمومًا كشعبٍ بشكلٍ يوميٍّ تقريبًا[2].

٤ - ازدواجية حقوق الإنسان الغربيِّ في غزة

إنَّ قضيّةَ حقوق الإنسـان في الغرب هي تلك الحقـوقُ التي لا تُؤثِّرُ على مصالح تلكَ الدُّوَل الغربية في أي مكان في العالم، فإذا تأثَّرَت مصالحُ الغرب الاقتصادية والسياسـية، فإنَّهُم سوف يُلقـون بتلـك الحقوقِ في البحر مـن أجل الحفاظ عـلى تلك المَصالح، ومتـى لم تُمسَّ تلك المصالحُ الغربية فإنَّهم سوف يُعلِنُونَ أنَّهم حاملو رايةِ حقوق الإنسان في العالم، فترَاهم يتظاهرون

1 - Ilan Greilsammer: The New Historians of Israel and their Political Involvement, p3.

2 - See: Noam Chomsky; et. Al.: Gaza in Crisis - Reflections on Israel›s War Against the Palestinians. & Noam Chomsky et. Al.: On Palestine. & Sharyn Lock; Sarah Irving: Gaza: Beneath the Bombs & Lisa Hajjar: Courting conflict: the Israeli military court system in the West Bank and Gaza & Gideon Levy: The Punishment of Gaza.

في الدِّفـاع عن حقـوقٍ مُزيَّفةٍ ومواضيعَ باهتةٍ لإظهار الشَّـفافية (مثل حماية حقوقِ السَّـلاحفِ البَحرية)، في الوقت الذي يَدعمون كياناتٍ وقَتَلةً من أجل تحقيق رغبات الجَشع والاستعمار.

وكثيراً ما أُثيرَت مسألةُ المعايير المُزدوجةِ في تَطبيق قواعد حقوق الإنسان، ولا سيَّما في سياق الحروب واعتراض المُنظَّمات الحقوقية؛ فقد ثبتَت الازدواجيةُ في مناطقَ مُتعدِّدة، فنرَى التَّصريح بالتزام حقوق الإنسـان تجاه قضايا معينة، وفي المُقابل تجدُ هناك قضايا لشـعوب يتمُّ تجاهلُها في أماكـن أخرى، وهو ما يَعود إلى سلسـلة من العوامـل تتعلَّق بالمصالـح الدَّولية والإقليمية والتَّحالفات العالمية، رغم أنَّ معظمَ المواثيق الدَّولية أكَّدت ضرورةَ الالتزام بتَطبيق هذه القواعد نصًّـا وروحًا، لكـنَّ المواقفَ المُختلفةَ للقـوى الدَّولية الكبرى، في آخر ثلاثة نزاعات مُسـلَّحة شهدها العالم، أوكرانيا وغزة ولبنان، تُوضِّحُ تلك الازدواجية.

فقـد مثَّلَ التَّعامُلُ الغربيُّ مع قطاع غزة خصوصًا مثـالاً صارخًا على هذا التَّضارب؛ إذ تجلَّت ازدواجيّـةُ المعايير والتَّناقض بين النَّظرية والتطبيق على أوضح صورة، ومثَّل ذلكَ فشـلاً حقيقيًّا للغرب في اختبار احترامِ حقوق الإنسان، وسوء تَطبيق معنى التَّحضُّر والدِّيمقراطية وقيمة الإنسان في المفهوم الغربيِّ، في ظروف عالمية لا تُفضي إلا إلى المزيد من العنف والمَزيد من الحروب.

ففي الوقت الـذي أدانَ أكثريّةُ زُعماءِ الدُّول الغربية هجـماتِ المقاومة في ٧ أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٢٣م، ووَصفوها بالوحشـية، لم يُدينوا الإبادةَ الجماعيةَ التي قام بها الكيانُ الصهيوني أمام أعينُهم في حقِّ المدنيين في غزة، فيما أعلنت الإدارةُ الأميركية عن دَعمِها للكيان الصهيونيِّ بمـا تعتبرُه حقَّ "إسرائيل" في الدِّفاع عن نفسِـها، بغضِّ النَّظَرِ عن العددِ الهائل وطبيعةِ شـهداء قطاع غزة[1].

فقد انتقدَ (عادل العسـومي) رئيسُ البرلمان العـربيِّ، المَعاييرَ المُزدوجةَ في التَّعامُل الدَّوليِّ، ولا سـيَّما الغربيُّ من القضية الفلسطينية والأزمة الأوكرانية، مطالبًا بوُجود معاييرَ عالميّةٍ مُوحَّدةٍ في التَّعامل مع كافة القضايا الدَّولية على حدٍّ سواء لتحقيق العدالة الدولية.

وقال (العسـومي) في كلمته أمام الجمعية الـ ١٤٤ للاتِّحاد البرلماني الدَّولي، في مدينة بالي بإندونيسـيا، أنَّ العالَمَ الغربيَّ انتفضَ خلال فترة بسـيطة دفاعًا عن الشَّـعب الأوكرانيِّ، بسـبب التطـوُّراتِ السَّريعـة في أوكرانيـا، ولم يتحرَّكْ من أجل الشَّـعب الفلسـطينيِّ، وجرائـمِ الإبادة

١ - إيمان العتويل: «ازدواجية الغرب والقضية الفلسطينية».

الإسرائيلية المستمرة تُجاه أبناء الأمة الاسلامية، ولم يكن له موقفٌ صارمٌ من أجل إنهاء المعاناة الطويلة لهذا الشَّعب.

ويَصفُ العسـوميُّ الموقفَ الدَّوليَّ تُجاه الأزمتين الأوكرانية والفلسـطينية بأنَّه نموذجٌ صارخٌ من الازدواجية في المعايير، في الوقت الذي يَجب أن تكون الإنسـانيةُ واحدةً في جميع الأمكنة والأزمنة، ومع جميع الشُّعوب حسب القوانين التي أقرَّتْها الشَّرائعُ السَّماويّةُ والمُنظَّماتُ الدَّولية[1].

٥ - الموقف الإعلامي الغربي من جرائم الكيان الصهيوني

إنَّ الإعلامَ الغربيَّ الذي يمُثِّلُ تلكَ الدُّول المُدَّعيةَ مُناصرةَ حقوق الإنسان نَراهُ اليومَ يَقف إلى جانب الكيان الصهيونيِّ، رغم عِظَم تلك الجرائم التي يَقوم بها في غزة وجنوبيّ لبنان، بل الأكثر من ذلك أنَّهم سخَّروا إعلام تلك الدُّول لتبرير وَحشيّة آلة القتل «الإسرائيلية»، وتَبرير تلك الإبادة الجماعية للمَدنيِّينَ، من خلال إظهار الخسائر «الإسرائيلية»، من دون تسليط الضَّوء على ما يَقوم به الكيانُ الصهيونيُّ، من مجازر دموية بحقِّ الأطفال والنِّساء وكبار السنِّ، وأدَّى ذلك إلى انتشار المَعلوماتِ المُضلِّلة حول الأزمة، وكأنَّ المدنيين هم مَن قام بقتل «الإسرائيلين» من دون وجود إبـادة صهيونية، بل الأكثرُ من ذلك قيامُ الإعلام الغربيِّ ببيان ما تعرَّضَ له الصهاينةُ من خسـائر دون بيان خسائر الطَّرفين، فهي عملية مُتعمَّدةٌ لتشويه حقيقة الدِّفاع عن النَّفس وتقديم سرديات خاطئةً، فوُصِفَت مسـألةُ الدِّفاعِ عن حقوق الإنسـان بأنَّها «عمل إرهابي بشكل قاطع»، في حين صُوِّرَ الهجومُ الصهيونيُّ على غزة أنَّه يَندرج ضمنَ «حقِّ الدِّفاع عن النَّفس».

وبعدَ مرور عامٍ كاملٍ على حرب الإبادة الجماعية، التي تشـنُّها قواتُ الكيان الصهيونيِّ على قطاع غزة، لا يَزالُ معظمُ الإعلام الغربيِّ مُؤطَّرًا، بالمَنظور الإخباريِّ الصهيونيِّ، على أنَّه الحقيقةُ المُطلَقةُ دون النَّظر إلى الشَّـعب الفلسطينيِّ في غزة، بل لا يَحقُّ للشَّعب أن يُدافِعَ عن نفسه، لذا فـإنَّ الإعلامَ الغربيَّ يَسـتمرُّ في تغطية الإبادةِ وكأنَّها عمليةُ تَرتيـبٍ للكيان الصهيونيِّ، وهي من صَميم حقِّه.

ورغم القتلِ المُستمرِّ والصُّوَرِ الكثيرة التي تُبَثُّ في الفضائيات للشُّهداء، من النِّساء والأطفال والمدنيِّـينَ، إلا أنَّ الإعلامَ الغربيَّ يُصِمُّ السَّـمعَ عن الرِّوايةِ المُخَالِفـةِ، ويَغضُّ النَّظرَ عن جرائم

١ - عادل العسومي: «المعايير المزدوجة في التعامل مع القضية الفلسطينية».

الكيان الصهيوني، بل بل ذهبوا إلى وضعِ محوريْن أساسيَّيْن للحرب: «محور الشَّر» الذي تَقوده الجمهورية الإسلامية في إيران، و«محور الدِّيمقراطية» الذي تَقودُه الولايات المتَّحدة الأمريكية وربيبتُها «إسرائيل»، وجعلوا المعيار أنَّه إذا سقطت "إسرائيل" في هذه الحرب فإنَّ ذلك يُعدُّ سقوطًا للنِّظام الغربيِّ الدِّيمقراطي وصعودًا للشَّر، وهذا ما لا تَقبله الدُّولُ الغربية، فسخَّرَت كلَّ إمكاناتها من أجل دعم الكيان الغاصب ومنعِ سقوطِه، ومنعِ اتِّهامِه بالإبادة رغم حقيقتها الواقعة.

إنَّ الإعلامَ الغربيَّ يَسير خلفَ الرِّوايةِ «الإسرائيلية» بأنَّ مقاتلي «حماس» قتلوا النِّساءَ والأطفال، وأنَّ الإعلامَ الغربيَّ لم يستطع التحرُّرَ من السَّرديّة الإخبارية «الإسرائيلية» لتَبرير الحرب، وشرعنةِ الجرائم الصهيونية ضدَّ الشَّعب الفلسطينيِّ في غزة، وبهذا فإنَّ الإعلامَ الغربيَّ يُحاولُ إبعادَ الفكرِ الإنسانيِّ عن حقيقة الصِّراع العربيِّ الصهيونيِّ، والأسباب الحقيقيّةِ للمقاومة الفلسطينية للكيان الغاصب.

ويتعمَّدُ الإعلامُ الغربيُّ إظهارَ الصَّهاينة على أنَّهم «ضحية»، ويَجبُ دَعمُهُم، وأنَّ «الإرهابيِّينَ» من «حماس» هم القَتَلة وهم أصحابُ الإبادة، وكأنَّ الطَّائراتِ التي تَقتل يوميًّا أهاليَ غزةَ ولبنان هي من «حماس»! وأنَّ الصَّواريخَ الفلسطينية لم تُبقِ مُدنًا يهودية! فيما أنَّه إذا نُظر إلى قطاع غزة نظرةَ تفحُّص وحياديّة، يَظهر للمُنصف ما حلَّ به من دمارٍ وتَهديم للبنى التَّحتيّة، وقتلٍ للنَّفس المُحرَّمة، وتَجويعٍ وانتشارٍ للأمراض، وتَهديمٍ للمساجد والمستشفيات والمدارس، وانتشارٍ للجثث في الشَّوارع.

يُمكنُ الجزمُ أنَّ الغربَ يَسعى لإرضاء الكيان الصهيونيِّ في حربه الإجرامية، لذلك كانَت وسائلُهم الإعلامية تُؤكِّدُ على دعم هذا الكيان الغاصب المحتلِّ بكلِّ قوة، لتَدمير الشَّعب الفلسطينيِّ ومَن يَقف معه من لبنان والعراق واليمن، وعدمِ السَّماح للَحاقِ أيِّ ضررٍ بالكيان الصهيونيِّ[1]، وإنَّ ما نشهدُه من قلبٍ للحقائق وتزييفٍ للوعي يَجعل من هذا الدَّمِ المُتدفِّق، دون مراعاةٍ لحرمة الإنسان وقدسيّته وحقِّه في الحياة وتَقريرِ مَصيره، واحدةً من أبشع ما مرَّ على الإنسانية من جرائم، وكان حريًّا بالوعي الإنسانيِّ أن يَستيقظ حينما اعتبرَ وزيرٌ في حكومة الحرب أنَّ الفلسطينيِّينَ مُجرَّدُ حيواناتٍ بشرية! فالوَصف بما هو دونَ الإنسان، أو نزعُ صفة الإنسانية والآدمية، هو مقدِّمةٌ لمُمارَسةِ عمليّةِ تَطهيرٍ وقتلٍ جماعيٍّ.

١ - محمد الراجي: الإعلام الغربي ومأسسة الإبادة الجماعية في المجال العام.

خاتمة

لا يمُكِـنُ إنكارُ ازدواجيّـةِ التَّعامُلِ الغربيِّ بـين الحربين القائمتين، حـربِ أوكرانيا والحرب عـلى غزة ولبنان، فقد رأينا الناتو والغرب يَدعمونَ الأوكرانيِّين، ويَصِفونَ الرُّوسَ بمُجرمي إبادة، ويُقدِّمونَ الدَّعمَ العسـكريَّ والماليَّ والمساعداتِ إلى الشَّـعب الأوكرانيِّ، في الوقت الذي لم يُقدِّموا للنّاس في غزة ولبنان أيَّ مسـاعدة، بل الأدهى هو تَقديمُ الدَّعمِ للنِّظامِ الصهيونيِّ بأنواع الأسـلحة لقتل المدنيِّينَ من الأطفال والنِّسـاء والشُّـيوخ، هذا هو حقيقةُ مفهوم حقوق الإنسان عند الغرب، الذي يرفعونَ شـعاراتِه متى تحققَّت مصالحُهم وأطماعُهم ولم يتهدَّدْها الضَّررُ، أمّا إذا مُسَّتْ مَصالحُهُم بأيِّ شكلٍ من الأشكال، أو خَرجتِ الشُّعوبُ لتأخذ حريّتَها من استعبادهم واحتلالهـم، فإنَّهم يَغضُّونَ الطَّرفَ عن تلك الحقوق، ويُقيمـونَ جرائمَ إبادةٍ بعنوان حقِّ الدِّفاع عن النَّفس.

وفي الختام يمُكِنُ القولُ أنَّ الغربَ هو الذي صنعَ النِّزاعَ في فلسطين ليَخدمَ مصالحَه، ونجحَ في السَّيطرة على المشرق العربي، وجعل من الكيان الغاصبِ كلبًا لحراسة مصالحِه في الشَّرق، وشمّاعةً يُعلِّقُ عليها شرورَه ووحشـيّتَه، فأمريكا وبريطانيا وفرنسا هي الدُّوَل المسؤولةُ عن زرعِ هذا السَّرطانِ الخبيثِ في جسد الأمة العربية والإسلامية، وهذا ما يُؤكِّدُ فرضيّتَنا أنَّ مسألةَ حقوق الإنسان هي مسألةٌ سيّالةٌ ومَطّاطة، يمُكِنُ استخدامُها في كِلا الحالتَينِ، ولا تُوجَدُ مَعاييرُ عالميّةٌ يمُكِنُ التَّمسُّكُ بها وتَطبيقُها على جميع الشُّعوب والبلدان، وفي جميع الأزمنة والأوقات، بشكلٍ عادل، يَضمنُ حقوقَ البشريّة، وما دامَتِ القُوى الكبرى موجودةً فلا مكانَ لحقوق الإنسان، فإنَّ المكان لديهم مُخصَّصٌ للمَصالح الغربية فقط.

الاستنتاجات

١. إنَّ للغربِ مَصالحَ استراتيجيّةً مع "إسرائيل"، تَدفعُهم لتبنِّي مَوقفًا مُتساهِلاً مع ما تقومُ به من مجازرَ ضدَّ المدنيِّين.

٢. تُريد أمريكا والغرب بقاءَ هذا الكيان الغاصب "إسرائيل" في المنطقة سـيِّدَ المَوقفِ، لذلك يُوافقونَه على التَّعامُلِ بتلك القَسوة مع مَن يُهدِّدُ أمنَه القوميَّ.

٣. تَعُدُّ الولاياتُ المتَّحدة الأمريكية "إسرائيلَ" من ضمن ركائز أمنها القوميِّ.
٤. يُصنِّفُ الغربيُّونَ «حماس» و«حزب الله» منظَّماتٍ إرهابيّةً يَجب القضاءُ عليها.
٥. يمُارسُ اللُّوبيُّ الصهيوني ضغطًا دوليًّا على دولِ الغرب، لتَشكيل تحالُفٍ دوليٍّ، لدَعمِ "إسرائيل"، واتِّخاذِ موقفٍ سياسيٍّ دوليٍّ مُوحَّد، من أجل حماية الكيانِ من أيِّ تهديد، وتَقديمِ الدَّعمِ العسكريِّ والماديِّ والسِّياسيِّ والاقتصاديِّ والإعلاميِّ لما يَقوم به.
٦. يَعمـلُ اللُّوبيُّ الإعلاميُّ الغربيُّ على إبراز الحرب في غزة ولبنان على أنَّها حربٌ دِينيّةٌ وُجودية، لذلك يَجبُ دعمُ اليهود في "إسرائيل" وحمايتهم من الزَّوال.
٧. يُصـوِّرُ الغربُ المجازرَ الإسرائيليةَ بحقِّ المدنيِّـينَ في غزةَ ولبنان على أنَّها حربٌ بين الغرب الدِّيمقراطيِّ و«محور الشرِّ» الذي تَقوده إيرانُ لتدمير الغرب.

التوصيات

١. على «خطِّ المُمانَعة» العملُ المُوحَّدُ من أجل تحرير القُدس وحِفظِ الشَّعب الفلسطينيِّ.
٢. لا يُمكنُ البناءُ والاعتمادُ على الدُّوَل المُطبِّعة، لأنَّها دولٌ خانعةٌ وخاضعةٌ، وربمَّا هي مَن تُقدِّمُ المَعلومات الكافيةَ للكيان الصهيوني.
٣. من المتوقَّع أنَّ الدُّوَلَ التي لها سفاراتٌ في الكيان الغاصب تقومُ بتقديم الدَّعمِ والعونِ للكيان ضدَّ الفلسطينيِّين.
٤. يَجب العملُ على استمرار المقاومة، لأنَّ الكيانَ مَهما كانَت ضرباتُه قاسيةً فإنَّ الرُّعبَ الذي يُصيبُه من ضربات المُقاومة أشدُّ قسوةً وإيلامًا، وأنَّ النَّصرَ مع الصَّبر.
٥. مهما نُقدِّمُ من تَضحياتٍ جسامٍ فإنَّها رخيصةٌ ما دام العملُ هو تحرير القدس.
٦. لا بدَّ للشُّـعوبِ العربيةِ والإسـلامية من موقفٍ يتجاوزُ حكوماتِهـا، في تقديم الدَّعم اللازم للشَّعبينِ الفلسطينيِّ واللُّبناني.
٧. في الختـام يَجب ألاّ ننتظـرَ الحلَّ من الغرب الذي يَنتهكُ حقوقَ الإنسـان، ويَتعامَلُ بازدواجيّةٍ واضحةِ المَعالِم مع كلِّ ما هو حقٌّ للشُّعوب المُضطهَدة.
٨. الحلُّ الوحيد هو حمل السِّلاح ومقاتلةُ العدوِّ الصهيونيِّ المحتلِّ، لأنَّه يُمثِّلُ الشَّيطان الأكبر في المنطقة، (وما النَّصرُ إلا مِن عندِ الله).

المصادر والمراجع

باللغة العربية

- القرآن الكريم.
- محمد الراجي، الإعلام الغربي ومأسسة الإبادة الجماعية في المجال العام، مركز الجزيرة للدراسات، <studies.aljazeera.net>.
- كمال سعدي، حقوق الإنسان، دار دجلة ناشرون، الأدرن، ٢٠١٠م.
- سعد سلوم، الإبادة الجماعية في الشرق الأوسط، دار الرافدين، بيروت- لبنان، ٢٠٢٤م.
- عبد الهادي عباس، حقوق الإنسان، دار الفاضل، دمشق- سوريا،١٩٩٥م.
- إيمان العتويل، ازدواجية الغرب والقضية الفلسطينية، نشر إلكتروني على موقع الجزيرة نت، (٣٠، يونيو، ٢٠٢٤)، <https://www.aljazeera.net>.
- عادل العسومي، «المعايير المزدوجة في التعامل مع القضية الفلسطينية»، نشر إلكتروني في وكالة الأنباء الفلسطينية (وفا)، (٢١، مارس، ٢٠٢٢).
- إحسان الفقيه، «مأساة البوسنة والهرسك العار الذي يلاحق الغرب»، نشر إلكتروني في القدس العربي، (٢٤، يوليو،٢٠٢٢).
- السيد عبد الحميد فودة، حقوق الإنسان بين النظم القانونية والوضعية والشريعة الإسلامية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية- مصر، ٢٠٠٦م.
- سليمان الكريدي، «حقوق الإنسان في الوطن العربي من الواقع الراهن إلى ضرورة الانطلاق»، نشر إلكتروني في <http://www.banias.net>.
- مجموعة مؤلفين: موسوعة المفاهيم والمصطلحات الانتخابية والبرلمانية، مركز الأهرام الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة- مصر، ٢٠٠٩م.
- فؤاد محسن، "حقوق الإنسان"، نشر إلكتروني على موقع قناة الميادين.
- أحمد حسين يعقوب، حقوق الإنسان عند أهل بيت النبوة والفكر المعاصر، دار الهدى، بيروت- لبنان، ١٤٢٨هـ.

باللغات الأجنبية

- Chomsky, Noam; et Al.: Gaza in Crisis: Reflections on Israel's War Against the Palestinians, USA, Haymarket Books, 2010.
- Chomsky, Noam; et Al.: On Palestine, USA, Haymarket Books, 2015.
- Greilsammer, Ilan, The New Historians of Israel and their Political Involvement, Bulletin du Centre de recherche français à Jérusalem, No, 23, 2012.
- Hajjar, Lisa: Courting conflict: the Israeli military court system in the West Bank and Gaza, University of California Press, 2005.
- Levy, Gideon: The Punishment of Gaza, Verso Books, 2010.
- Lock, Sharyn; Irving, Sarah: Gaza: Beneath the Bombs, Pluto Press, 2010.
- United Nations, Human rights a basic handbook for un staff, US: office of the high commissioner for human rights united nations staff college project, 1997.

العَقْلُ الأَداتـيُّ
مِن الدُّونِيَّةِ الأَخلاقِيَّةِ إِلَى الإِرهَابِ الصُّهيُونّي وأَكذُوبَةِ التَّفَوُقِ العِرقِيّ

■ د. محمود كيشانه[1]

ملخّص

يُحاول هذا البحثُ أن يُبيّنَ المقصود من العقل الأداتي، مُبينًا أثره السيئ في إشاعة اللا أخلاقيـة ودوره الخطير في الإرهاب الصهيوني، وعلاقته بقضيَّةِ التَّفوق العِرقي، عامدًا إلى بيان أثر الفلسـفة الماديَّةِ الغربيَّةِ في تشكيله وتوجيهه هذه الوجهة، مقارنًا بين جوهره في هذه الفلسـفة، وبين وجودِه في العقليَّـة اليهوديَّة الصُّهيونية. فالعقل الأداتيّ في الفلسفة الماديَّة هو ذلك العقل الأداتي الذي انطلقت منه العقليَّةُ اليهوديَّةُ منذ بدء نشـأتها، فالاهتمام بالوسـيلة التي يُتحصَّلُ من خلالها على الهدف، بغض النظر عن اتفاق هذا الهدف مع المبادئ الإنسـانية والضمير الإنسـاني، ومن ثَمَّ فقد أرجـع البحثُ اللا أخلاقيَّة والإرهـابَ ودعوى التفوقِ العِرقـي في المنظور الغربي والمنظور اليهودي الصُّهيوني إلى هذا العقل.

الكلمات المفتاحية:
اللا أخلاقية، اليهودية، التفوق العرقي، المادية الغربية.

1 - دكتوراه في الفلسفة، جامعة القاهرة.

مُقَدمَة

لا شــكَّ في أنَّ هناك حالةً من المُواءمَةِ بين العقيــدة اليهوديَّةِ والفكر الصُّهيوني من جانب، وبين الفلســفة الماديَّة الغربيَّة من جانب ثان. فهما ينطلقان من أفكار مُشتركة وأساسٍ فَلسفيّ وأخلاقــيّ واحد لا خلافَ عليه، تحقيقًــا لأهداف ومرام تضمنُ لهــم التَحكُّمَ في العالم دون مراعاةٍ لعقل أو أخلاق أو أبعاد إنســانيَّة. فالتيار اليهــودي الصُّهيوني والتيار المادي الغربي لا يألــوان جهدًا في محاولةِ الإجهاز على هذا العالم؛ اســتنادًا إلى مرتكــزاتٍ عرقيَّةٍ ولا أخلاقيَّة وعقلٍ مُغيَّب.

هــذان التياران يتبنيان نظريةَ العقلِ الأداتيِّ، وهو ذلك العقل الذي يهتمُّ بالوســيلة دون النظرِ إلى المضمون أو جوهرِ الغايات، فكلٌّ من الفكر اليهوديّ الصُّهيوني والفلســفة الماديَّة الغربيَّة يبحثان في قضيَّةٍ ما ويحاولان حَلَّها بصورةٍ مباشرة، دون النَّظر إلى مضمون هذه الحلول هل هي حلول إنسانيَّة أخلاقيَّة أم غير أخلاقية؟!

ومِــن هنا كانت أهميَّةُ هذا الموضوع تكمن في بيان الأســس الفلســفيَّة والأخلاقيَّة والأفكار المتوائمــة بين العقيدةِ اليهوديَّــة الصُّهيونية من جانب والفكر الغربي المــادي في ظلّ العقلانيَّة الأداتيَّة أو العقل الأداتي المُشــبع بتحقيق الأهداف ولو على حســاب القِيَم الأخلاقيَّة والمبادئِ الإنسانيَّة، وكيف كان لهذا العقل الأداتي تأثيره في قضايا: اللا أخلاق، التفوق العرقي، الإرهاب الصهيوني والمصالح المتبادلة؟

ومن ثمَّ فإنَّ الإشكاليَّةَ الرئيسةَ لهذا الموضوع تقوم على تساؤل مهم مؤداه: ما أثر العقل الأداتي في غياب الأخلاقيَّة والإرهاب الصُّهيوني وقضيَّةِ التَّفوق العِرقي في الغرب؟ وكيف صنع العقل الأداتي تَوأمة بين الغرب المادي واليهوديَّةِ الصُّهيونيَّة؟

وفي ضَوء هذه الإشكاليَّة الرئيسة تتحدد محاورُ موضوع البحث، وهي:

أ- مُقدمة
ب- العقل الأَداتي بين العقيدَة اليهوديَّة والفلسفة الغربيَّة.
ج- اللا أخلاقية بين الفلسفةِ الغربيَّةِ واليهوديَّةِ الصُّهيونيَّة.
د- قضيَّةُ التَّفوق العِرقِي.
ه-العقل الأداتي والإرهاب الصُّهيوني.
و- المصالح المُتبادَلة بين الصهيونيَّة والحضارة الغربيَّة.
ز- النَّتائج.

علمًا بأنَّ المنهج المُتَّبع هو المنهج التَّحليلي النَّقدي الذي يُحلل القضايا للكشف عن مكنونها وعمَّا تنطلق منه من مواقف، ممزوجًا بالنَّقد اللَّازم من النَّاحيَّة المعرفيَّة العِلمية والدينيَّة العَقَديَّة.

أَوَّلاً- العَقلُ الأَدَاتيُّ بَينَ الفَلسَفَةِ الغَربيَّةِ وَاليَهُوديَّةِ الصُّهيُونيَّة

العقــل الأداتي: هو ذلك العقل الذي يهتمُّ بالوسـيلة التي تُمكنه من تحقيـق أهدافه وغاياته دون النَّظـرِ في جوهر هـذه الغاياتِ وحقيقة هذه الأهـداف[1]. وهذا الأمر يقـود إلى شيءٍ من الخُطورة بمكان، لأنَّه في سـبيل تحقيق أهدافه وغاياته لا يهتمُّ بأيّ أبعادٍ إنسانيَّة ولا يحترم القِيَم الأخلاقيَّـة، فهو عقـلٌ نفعيٌّ في المقام الأول. ومن ثمَّ فإنَّ هذا العقـلَ له توجهٌ خاص في رؤيته للعالم، وأسـلوبٌ في التفكير يختلـف عن غيره. ويظلُّ هذا النوعُ من العقـل تحتَ طائلة النَّقد لما يَنطَّوي عليه من مُنطلقَات لا تناسـب معاني الإنسـانية في قِيَمها وأخلاقيَّاتها، ولذا فقد كان مسارُ تحليل ونقد عند عدد من المفكرين الغربيين أنفسهم، مثل: (ماكس هوركهايمر ـــــ Max Horkheimer)[2] و(تيـودور أدورنـو Theodor W. Adorno)[3] في كتابهـما «جدل التنوير»، و(هوركهايمر) في كتابه «أفول العقل»[4]، و(هربـرت ماركيوز ـــــ Herbert Marcuse)[5] في

١ - عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٢، ص٢١.
٢ - فيلسوف واجتماعي ألماني، من أشهر رواد مدرسة فرانكفورت الفلسفية.
٣ - فيلسوف واجتماعي ألماني وعالم نفس، من أشهر رواد النظرية النقدية في مدرسة فرانكفورت الفلسفية.
4 M. Hokhiemer: The Eclipse of Reaso , p 7.
٥ - فيلسوف ومفكر ألماني من رواد فلسفة فرانكفورت.

كتابه «الإنسان ذو البعد الواحد»[1].

وقد «حاول (هابرماس) أن يستخلصَ السِّمات العامَّة للعقل الأداتي ويُبيّن الطريقةَ الاختزاليَّةَ التي يُمارسها بحق الطَّبيعة والإنسان، فالعقلُ الأداتي يَنظر إلى الطبيعة والواقع من منظور التَّماثُل ولا يهتـم بالخُصوصية، كما يحاول العقلُ الأداتي تفتيـتَ الواقع إلى أجزاء غير مترابطة، وينظر إلى الإنسان باعتباره مجرد جزء يُشـبِه الأجزاء الطبيعية الماديَّة، فالإنسان بالنسبة للعقل الأداتي شيءٌ ثابتٌ وكميٌّ»[2].

ومن ثمَّ فإنَّ هذا النوع من العقلِ يهتمُّ بالإجابة على السؤال «كَيف؟»، دون الإجابة على السؤال «ما النتائج المُترتبة على؟»، وبالنَّظر إلى الحكومات الغربيَّة المُعاصرة نجدها دائمًا تغوصُ في بحرٍ من العقل الأداتي، ومن ثمَّ فقد شاع في المجتمعات الغربيَّة الماديَّة المُقيتة التي غذَّتها إضافة إلى ذلك الفلسفات المادية الغربية. هذا العقل كان محورًا للدراسة من قبل مدرسة فرانكفورت -وأهم أعلامها (هابرماس ـــــ Habermas)[3]- التي نظرت إليه على أنَّه يقوم على رافدين: الأوَّل، الانفراد في أسلوب رؤية أتباعه للعالم. الثَّاني، تصورهم للمعرفة النظرية[4]. لعلَّ هذا هو ما دفع (هابرماس) إلى بيان أثر العقل الأداتي على الرأسماليَّة الغربيَّة الحديثة، التي اهتمت بالأهداف والغايات دون أي اعتبارٍ قِيَمي أخلاقي، واللجوء إلى كل ما هو مادي، ومن ثمَّ تجسدت عقلانيَّةُ هذا العقل في مجال الصناعة والتكنولوجيا[5]، كونه المجال الخَصْب الذي لا يستطيع هذا العقل الأداتي العيش بدونه. ومن النتائج المترتبة على ذلك «أنَّ العقلَ الأداتي يصبح عاجزًا تمامًا عن إدراك العمليَّات الاجتماعيَّة والسياسيَّة والتاريخيَّة في سياقها الشامل الذي يتخطى حدوده المباشرة، بل إنَّه يعجز تمامًا عن إدراك أي غايات نهائية أو كُليات متجاوِزة للمُعطيات الجزئية الحسيَّة والمعطيات الماديَّة

---

١ - حسام الدين فادي: نقد هابرماس للعقل الأداتي.. محاولة لتنمية البعد التواصلي للعقل الإنساني، على الرابط التالي: >https://www.researchgate.net/publication/359847456

٢ حسام الدين فياض: فلسفة هابرماس.. نقد أسس العقلانية الأداتية، دراسة منشورة على الرابط التالي:

<https://fikrmag.com/article_details.php?article_id=1547>

٣ - فيلسوف واجتماعي ألماني معاصر، من أهم منظري مدرسة فرانكفورت الفلسفية.

٤ - إيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ص ٣١٥.

٥ - حسن مصدق: يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت «النظرية النقدية التواصلية»، ص ١٣٣.

الآنية. ولذا يمكن تسميته بالعقل الجزئي، أي أنَّه يُصبح عاجزًا تمامًا عن تحقيق أي تجاوزٍ معرفيّ أو أخلاقيّ».[1] وربما كان هذا العوار واحدًا من الأسباب التي أدت إلى نزوع (هابرماس) إلى ما اصطلح على تسميته بالعقلِ التواصليّ، الذي يحاول به الوصول إلى تواصلٍ إنساني بَنَّاء[2]. ومن ثمَّ «فإن هذا العقلَ يتجاوز العقلانيَّة الغربيَّة التي أعطت أولوية مطلقةً للعقلِ الغَائي، والتي تهدف إلى تحقيق مصالح وغايات معينة، فهذا العقل يبنى على فعل خلّاق يقوم على الاتفاق بعيدًا عن الضغط والتعسف وهدفه بلورة إجماع يُعبر عن مساواة داخل فضاء عام ينتزع الفرد جانبًا من ذاتيته ويدمجها في المجهود الجماعي الذي يقوم بالتفاهم والتواصل العقلي».[3]

ويمُكن أن نُلَخصَ خصائصَ أو مرتكزاتِ العقلِ الأداتي أو العقلانيَّة الأداتيّة في الآتي:

أ - الالتزامُ الشَّكلي بالإجراءاتِ على حسابِ الغاياتِ والأهداف.

ب - يَقتفي أثرَ نَموذجٍ عمليّ في تحقيق غاياتِه.

ج - السَّيطرةُ على الإنسانِ والعالَم.

د - النَّظرُ إلى الإنسانِ على أنَّه جزءٌ ماديٌّ من الطبيعةِ أي شيءٌ كميٌّ ثابت.

ه - الانتصارُ للمادَّةِ على حسابِ الرُّوح.

و – التَّحلُّل من القِيَم الأخلاقية والمعاني الإنسانيَّة.

وهــذه الخصائصُ هي المفردات الرَّئيســة للعقل الأداتي في الفلســفةِ الماديَّة الغربيَّة ، وهذه الخصائص لم تجتمعْ في هذه الفلسفةِ فقط، بل التقت بالعقيدةِ اليهوديَّة ذات العقلِ المتعصب والفِكــر الصُّهيــوني الذي لا يرى غيرَ ذاتِه. ومــن ثمَّ نجدُ هذا العقلَ الأداتي هو المســيطر على العقليَّةِ اليهوديَّةِ الصُّهيونية. والمُتتبِع لخصائص هذا العقل التي استخلصناها نجد ذلك واضحًا. فالاهتمام بالإجراء الشَّكليّ دون مراعاةِ التبعات والنتائج المُترتبة عليه خِصيصةٌ من الخصائص التي تجمع العقلَ اليهودي الصُّهيوني –كما العقل المادي الغربي- فكم من الممارسات الإجرائية

---

١ - حسام الدين فياض: ممارسات العقل الإنساني ما بين العقل الأداتي والنقدي والتواصلي (رؤية تحليلية – نقدية(، بحث منشور على موقع مؤمنون بلا حدود، على الرابط التالي:

<https://www.mominoun.com/articles/84-9199>

٢ - أبو النور حمدي أبو النور حسن: يورغن هابرماس «الأخلاق والتواصل»، ص١٣٥.

3 - Habermas: The Theory of Communicative Action., p. 9.

التي تمارسها اليهودية والصُّهيونية في العالم لا تراعي إلا أهدافها الخبيئة، ولذا فلا غضاضة من استخدام وسائل الجنس والدعارة والمخدرات والقتل في سبيلِ تحقيقها دون مراعاةٍ لأيّ أبعادٍ أُخرى، دون النَّظرِ في حقيقةِ هذه الوسائل هل تراعي الأبعاد الإنسانية أم تتغول عليها؟! وهو الأمر ذاته الذي لا تَنفَّك عنه العقليَّة السياسيَّة الغربيَّة التي ترى في تحقيقِ أهدافِها بكل الوسائل المُمكنة سواء المشروعة أو غير المشروعة، وما أكثر الوسائل غير المشروعةِ التي تنتهجها تجاهَ الشَّرقِ الإسلاميّ! وما أكثر الشواهد التاريخيَّة والآنيَّة التي تَدلُّ على ذلك! بدليلِ ما نراه من تربصٍ بفلسطين أرضًا وشعبًا.

ومن ثمَّ تَغلُب على العقليَّة اليهوديَّة الصُّهيونيَّة جانبَ التطبيقِ العلميّ ذي البُعدِ الإجراميّ[1] القائم على العقل الأداتي، بعد أن ظلَّت عقودًا تَرسُم الخطط، هذا الجانب ملازمٌ للتَّدمير والقتلِ وسفكِ الدماء، فهذه العقليةُ لا تتورع في أن تطبقَ أهدافَها، ولو على آلاف القتلى والجرحي، بل ولو على الملايين، مادامت نظرتها نظرة مقيدة بهذا الجانب. وعلى الرغم من أنَّ هذا الجانبَ التطبيقيَّ الإجراميَّ الذي تَنزَع إليه هذه العقلية[2]، فإنَّ الحكوماتِ الغربيَّةَ والأمريكيَّةَ زكتها وأجَّجت نيرانها بمباركتها حينًا وبدفعها دفعًا إليها حينًا آخر، طلبًا لمصالح مشتركة في المِنطقة العربيَّةِ خاصة والعالم عامَّة. ولعلَّ هذا التعاون بين العقل الأداتي الغربيّ المادي من جانب والعقل اليهودي الصُّهيوني من جانبٍ آخر كانت له تطلعاته المشتركة في السَّيطرةِ على العالم والإنسانِ معًا، فالعقل الأداتي الغربي يقوم على رافدي: الصناعة والتكنولوجيا، فبهما يتحكمُ في مُقدرَات الشعوب سواء على الجانب الإغرائي (الترغيب) أو الجانب التحذيري (الترهيب)، وفي سبيل هذه السَّيطرةِ يتخذ من العقل اليهودي الصهيوني ومن رغبته في التدمير تكأة ووسيلة لتحقيق هذه السيطرة على الشَّرق الإسلاميّ، فضلاً عن العالم أجمع.

بيدَ أنَّه من المهم أن نُدركَ أنَّه مهما بالغ المبالغون في استخدام الصناعات والمُخترعَات الحديثة في أوروبا، والإعجاب والثناء على مكتشفيها ومخترعيها، فإنَّ هذا يجب ألَّا يصرف أنظارَنا عن أنَّ هذه الصناعاتِ والمُخترعاتِ ليست غايةً في حدّ ذاتِها، وإنَّما هي وسائل وأدوات

١ - أحمد عمار عبد الجليل: الأخلاق في القرآن والتوراة والتلمود، ص٩.

٢ - أحمد إبراهيم الديبو: المتفق والمختلف في القيم الأخلاقية بين اليهوديَّة والمسيحية والإسلام.. دراسة مقارنة، ص ١٥٩.

لغايات أخرى نحكم عليها بالخير والشر أو النفع والضر، ونحكم عليها بالنجاح أو الفشل بالنَّظر إلى الغاية التي وضعت لها وبالنظر في النتائج التي ترتبت عليها والدور الذي لعبته في حياة الناس والمجتمع وفي أخلاقهم وسياساتهم، ولكن ما هذه الغاية؟ يقول (الندوي) مجاوبًا: «أمَّا الغاية فعلى ما أرى هي التغلب على العقبات والصعوبات في سَير الحياة التي سببها الجهل والضعف، والانتفاع بقُوى الطبيعة المُودَعة في هذا الكون، وخيراتها وخزائنها المبثوثة فيها، واستخدامها لمقاصد صحيحة من غير علوٍ في الأرض ولا فساد»[1].

لكن لا يمكن الانتفاع بقُوى الطبيعة أو المخترعات الحديثة ما لم يكن هناك دينٌ نؤمنُ به، ويدعونا إلى توجيه هذا كلّه في الخير لا الشر، وهذا هو سبب ما تُعانيه الحضارةُ الغربيَّةُ الآن، إنَّها لمَّا انتصرت على الديانة الكَنسيَّة اتخذتها عدوًا، واتخذت كلَّ الأديان أعداءً، فمنعها ذلك من البُعد الرُّوحي الذي يمكن أن يزنَ لها أفعالَها بميزان حساس، ويقودها إلى منافع الإنسانيَّة بدلاً من قيادتها إلى مجاهل الظلام والشرور[2].

ولعلَّ هذا ناتجٌ عن النَّظر إلى الإنسان على أنَّه جزءٌ ماديٌّ من هذا العالم أو هذه الطبيعة، «يَنظر العقل الأداتي إلى الطبيعة والإنسان باعتبارهما مادة استعمالية يمكن توظيفها واستغلالها لخدمة أي هدف»[3]. ومن ثمَّ تعمل فيه الفلسفةُ الماديَّةُ الغربيَّةُ ما تشاء باعتبارها تنظر إليه على أنَّه مُكوِّن بلا روح، والحقيقة أنَّ هذه هي طبيعة العقل الأداتي الغربي، فهو عقلٌ ماديٌّ بامتياز يغفل بالكلية الجانب الروحاني في الإنسان، ويغفل الجوانب المعنويَّةَ فيه، ومن ثمَّ كان النظرُ إليه على أنَّه مجرد كَمّ ثابت هو النتيجة الطبيعيَّة لذلك. وهذا هو سبب الإشكاليَّة في علاقة الغرب بالعالم وعلاقة العقليَّة الصُّهيونية بالعالم، فنظرتهما للإنسان على أنَّه جزءٌ ماديٌّ من الطبيعة جعلت الطريق ممهدة لقتله وإزهاق روحه دون أدنى وازعٍ من ضميرٍ أو إنسانيَّة. ولو كانتا ترعيان الجوانب الروحيَّة والإنسانيَّة فيه ما طغت هذا الطُّغيان ولما تجبَّرت ذاك التجبر.

---

١ - أبو الحسن على الحسني الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٨٨.

٢ - محمود كيشانه: الإسلام والغرب عند الندوي، ص ٤٨.

٣ - حسام الدين فياض: ممارسات العقل الإنساني ما بين العقل الأداتي والنقدي والتواصلي (رؤية تحليلية – نقدية)، بحث منشور على موقع مؤمنون بلا حدود، على الرابط التالي:

<https://www.mominoun.com/articles/84-9199>

ثَانيًا- اللاَ أَخلاَقيَّة بَينَ الفَلسَفَة الغَربيَّة وَاليَهُوديَّة الصُّهيُونيَّة.

إنَّ العقَل الأداتي عقلٌ «أَنَويٌّ» تَغلبه الأَنَا والنرجسية، ومن ثَمَّ كان الهدفُ النهائيُّ من وُجوده هو «الحفاظ على بقاء الذَّات وهيمنتها وتفوقها، ومن هنا جاءت تسميته بالعقل الذَّاتي أيضًا.[1]" وفي سبيل هذا البقاء والتَّفوُّق وتلك الهيمنة راح يرتكب من اللاَّ أخلاقي الكثير، وهذا يُعد نتيجة طبيعة لتلك النظرة، وكذلك لنظرته للإنسان على أنَّه مجرد كَمٌّ ثابت كأي شيء كَميّ في هذا الكون. انظر في تعامل الغرب مع القارَّة الأفريقيَّة مثلاً، فهو يستغل خيراتِ شعوبها واستعمالهم كعبيدٍ وهم أصحابُ الثَّروة الحقيقيون وفق نظريَّة الهيمنة والتَّفوق، بل انظر إلى العقل الأداتي الأمريكيّ الذي يُلقي القمحَ الفائضَ في المحيط ولا يدفع به إلى الدول الفقيرة التي تموت جوعًا، حتى لا يقل سعره.

إنَّ هـذا العقلَ وما نتج عنه من فَوقيَّة مقيتة أورث لا أخلاقية لا حدودَ لها، لا تحترم إنسانيَّةَ الإنسان، ولا تضع لنفسها معيارًا أخلاقيًّا تتعامل مع العالم من خلاله، إلاَّ معيار المنفعة والبرجماتيَّة اللَّعينة. وهذا ما تكشف عنه تعاملات الغرب المتوحشة تجاه القضيَّة الفلسطينيَّة على سبيل المثال لا الحصر، فكم مرة أُستخدم حقُّ الفيتو لمناصرة العدوان اليهودي الصُّهيوني الجائر ضد أصحاب الأرض؟! كم مرة أُستخدم حقُّ الفيتو لمنع توقيع أي إدانة على المُغتصب الغاشم رغم ما يرتكبه من قتال وحصار وتجويع؟! إنَّ الأمرَ أمر غياب الإنسانية وتدني أخلاقي لا نجد له مثيلاً ربما عبر التاريخ الإنساني. من ثمَّ تعاضدت قُوى الشر: اليهوديَّة الصُّهيونيَّة والغرب المادي في النيل من القِيَم والأخلاق الإنسانيَّة، فذُبحتا على مائدة العقل الأداتي المادي. ومن ثمَّ فإنَّ العقلَ الأداتي المادي الذي سمح للشذوذ بأن يرتعَ في الأرض دون حسيب أو رقيب، بل لقد سنَّ من القوانين ما شَرعنت له وجوده، لا مانع لديه من أن يُغيّبَ ضميرَه وإنسانيتَه والجانبَ الروحي فيه، والذي بدونه يفقدُ الإنسانُ الحقيقيُّ كينونتَه. ذلك أنَّ الذي فَطر المادةَ والروحَ قد فرض على المادةِ أن تخضعَ للروح[2]، ومن ثمَّ فإنَّنا ننقد الحضارةَ الغربيَّةَ لقيامِها على

---

١ - انظر حسام الدين فياض: ممارسات العقل الإنساني ما بين العقل الأداتي والنقدي والتواصلي (رؤية تحليلية – نقدية(، بحث منشور على موقع مؤمنون بلا حدود، على الرابط التالي:

<https://www.mominoun.com/articles/84-9199>.

٢ -أبو الحسن الندوي: الأمة الإسلامية وحدتها ووسطيتها وآفاق المستقبل، ص.ص ٨ -١٠.

الظُّلــم والعُدوان وإنكار الروح وعبادة المادة[1] ، فالعقلُ الغربيُّ في ماديَّته عقلٌ شــيطانيٌّ، عقلٌ مدمّرٌ، عقلٌ ماديٌّ يشكو فراغ القلب المؤمن العقل الواعي بالإيمان، فراغ الإخلاص، فراغ التَّألم للبشرية[2]. بما يعني أنَّه عقلٌ ماديٌّ أداتي لا يرى إلاَّ ذاته.

إنَّ فلسفةَ ما بعد الحداثة الابن البكر للفلسفة الماديَّة الغربيَّة، تلك الفلسفةُ التي جعلت النسبيَّةَ هي السِّمة المُطلقة في مجال الأخلاق -فضلاً عن مجالي: المعرفة والجمال- فقلبت الحقَّ باطلاً والباطــلَ حقًا، وجعلت الأخلاقَ نســبيَّةً ليس لها معيارٌ عام حاكم، فصــارت تائهةً ضالةً تبحث عن نفســها وسط ركام من السفسطة الجديدة التي مارستها هذه الفلسفة في إطار فكري زينَهُ لها العقل الأداتي ربيبها وسيدها في آن. هذا يعني أنَّ «العقل الأداتي يسقط تمامًا في النسبيَّة المعرفيَّة والأخلاقيَّة والجماليَّة إذ تُصبح كل الأمور متساوية، ومن ثمَّ تظهر حالةٌ من 'اللا معيارية الكاملة'، فيمكن القول بأنَّ النَّموذجَ الكامنَ والمهيمنَ على الإنســان الذي يصبح مع تســاوي الأمور هو: 'الطبيعة - المادة - السلعة - الشيء في ذاته - علاقات التبادل المجردة'".[3]

وهذا يفسر لنا طُغيانَ المادة في الحضارة الغربيَّة، وهو أمرٌ لا ينكره مُنكِر، ذلك أنَّ الفلسفات التي بنــى عليها هذا الغــرب حضارته هي فلســفات ماديَّةٌ صرفــة، تقوم على مبدأي: الحِســيَّة (المحســوس) والمنفعة، حتى كادوا أن يقولوا لا وجود إلا للمادة ، ولا نهم إلا في النَّفعية ، وقد تســلط عليها سلطان الجشع، وشيطانُ الحرص. وربما كان ذلك أيضًا نتيجة أنَّ تلك الفلسفات تعمل للدُّنيا، ولا تعمل للآخرة، لكونها مادية صرفة، ومن ثمَّ فإنَّ البابَ مفتوحٌ فيها على مصراعيه لجلب المنافع الدنيوية، مغلق إغلاقًا شديدًا أمام جلب منافع أخروية.

والمجتمع الذي تَسُوده الماديَّة تختل فيه المعايير، فلا الصَّواب فيه صواب، ولا الخطأ خطأ، "وهــذا المجتمع لا تزال مقاييســه للــشَّرف والظرافة تتغير، ومعاييره للإنســانية تتبدل وتتحور، ومطالبه تتنــوع وتتكثر، حتى يضيق الإنســانُ بها ذرعًا، ويلجأ إلى طرق غــير شريفة؛ لتحصيل

١ - أبو الحسن الندوي: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ص ٩.

٢ - أبو الحسن الندوي: الإنسانية تنتظركم أيها العرب ، ص٥ .

٣ - حسام الدين فياض: ممارسات العقل الإنساني ما بين العقل الأداتي والنقدي والتواصلي (رؤية تحليلية – نقدية(، بحث منشور على موقع مؤمنون بلا حدود، على الرابط التالي:

https://www.mominoun.com/articles/84-9199.

المال وإلى كدح وكد في الحياة، وهناك أمور تتوالى ولا تنتهي ومتاعب تتسلسل ولا تنتهي"[1].

بمـا يعنـي أنَّ طابعَ الحياةِ الشَّـكلي لايزال يتغلَّب عـلى الطابع الجوهـريّ الذي يجبُ على الحضارةِ الغربيَّة وعقلانيتهـا الأداتيَّة الالتزام به ، وكلَّما زاد الأوَّل على الثَّاني زاد بُعد النَّاس عن الرَّوحانيَّةِ والأخلاق ، واقتربوا من الماديَّةِ بكلّ قوة وفي وقت أسرع؛ كما أنَّ هذا يعني أنَّ الطابعَ الغالبَ في هذه الحضارةِ ذي العقلانيَّةِ الأداتيَّةِ هو الطابعُ الآليُّ الصناعيُّ، هذا الطابع من شـأنه أن يقودَ إلى شـيوع الماديَّة، ما لم يكن هناك عقيدة تمتلك القلوبَ، ودين يقودها وإيمان راسخ بالقِيَم والمُثُل الإنسانيَّة التي لا يمكن الاختلاف عليها.

نعم، إنَّ لهذا النظامِ الآليّ مردوده على الجانب الاقتصادي، بيدَ أنَّ سـلبياته على المُستويات الأخرى كبيرة، فعلى المسـتوى الاجتماعي مثلاً يزداد الوضعُ الغربيُّ بؤسًا وشقاءً، «فالمنبهرون بالحيـاة الغربيَّةِ عليهم أن ينظروا للكوب كله، لا إلى الجانـب المملوء فقط، حتى يمكن تقييم الموقف بشكلٍ كليّ ومتوازن»[2]. وعلى المستوى الأخلاقي تتدني الأخلاقيَّاتُ والقِيمُ الإنسانيَّةُ لتحتلَ أدنى مستوياتها.

ولكـن بالنَّظـر إلى أنَّ الطابعَ الآليَّ الإنتاجـيَّ الصناعيَّ نجـده يرتبط ارتباطًا وثيقًـا بالناحيَّة الاقتصاديـة، فالاقتصاد هو العامـلُ المحركُ لكل مظاهر الحياةِ الغربيَّـة، بل واقتصاد كل دولة، وبما أنَّ الأمرَ مرتبطٌ بالاقتصاد، فلابدَّ كذلك أن تكون مرتبطةً بالمال؛ إذ إنَّ بريق المال هو الأقوى في هـذا الزمان، فهو لغة «الجيب» التي لا تُضاهيهـا لغة أخرى، وليس لها في أي مجتمع مادي منافـسٌ أو منازعٌ. وهذا ما يفسر لنا لماذا كانت العقلانيَّـةُ الأداتيَّةُ الغربيَّةُ تتجه دومًا إلى مُحاولة السَّيطرةِ على الشَّرق بكل الوسائل غير المشروعة.

إنَّ الصفةَ التي تمُثل واحدةً من الصفات الرئيسة في العقلانيَّةِ الأداتيَّةِ والحضارة الغربيَّة الماديَّة عامة صفة التدهور الأخلاقي على المسـتوى الفردي والمسـتوى الجماعي، وهذه الصفة يُعول عليها ناقدو الحضارة الغربية وما قام عليه عقلها الأداتي ونواتجهما التي لا تتدخر جهدًا في النيل

---

١ - أبي الحسن على الحسني الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ٢١٣ .

٢ - سليم نصر الرقعي: حياة الغربيين هل هي وردية وجنة النعيم ؟ الحوار المتمدن ، ٩ إبريل ، ٢٠١٣م. على الرابط التالي:

<https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=353580>

من كل ما هو أخلاقي في الإنسان ليكون متوائمًا مع هذه الحضارة العرجاء التي تسير بقدم واحدة وهـي المادية، وتترك الثانية وهي الروحانية والأخلاقيَّات مريضةً في حاجةٍ إلى جبر انكسـارها. ولعـلَّ بعضَ الباحثين يُرجعون ذلك إلى ميزة مهمة تتميز بها البيئةُ الإسـلاميَّةُ عن البيئة الغربيَّة، حيث إنَّ أهمَّ ما يميز الأخلاقَ في الفكر الإسلاميّ عن الأخلاق في الفكر الغربيّ، أنَّ الأولى تأخذ في الغالب الأعم من مبادئها بمبدأ الحلال والحرام كمعيارٍ للحكم على الأفعال، بينما يأخذون في الفكـر الغربي بمبدأ الخطأ والصواب[1]. فالمبدأ الأوَّل ينظرُ للآخرة، بمعنى النظر إلى تبعاته الأخروية، وما يترتب عليه من حسـاب وعقاب، جنة ونار، في حين ينظر المبدأُ الثَّاني إلى الدنيا بكُليته، وما يترتب على الفعل من نعيم دُنيوي فقط.

أمَّا فيما يتعلق بالعقل اليهودي الصُّهيوني فهو عقلٌ أداتي من الدرجة الأولى ليس لكونه يبحث عن الأهداف غير المشروعة، بكل الوسائل غير المشروعة التي لا تراعي إنسانيَّةً ولا ضميرًا، بل لأنَّه أيضًا يمارس أسوأَ أنواع الفعال وأدناها، بل إنَّه لا يُقيم للأخلاق وزنًا، ولا يجعل لها مساحةً من تفكيره.

وقـد حدَّدَ القرآنُ الكريمُ بدقة صفـاتَ هذا العقل الأخلاقيَّة التـي تنطوي على خداع وكذب وتضليل ونهم لسفك الدماء[2]، وهي كلها صفات يُقيم عليها العقل الأداتي الغربي أركانه، مثلما يُقيم عليها العقل اليهوديُّ أركانَه أيضًا.

يقول الله -تعالى-: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْـرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ**﴾ [البقرة: ٨٣].

وقـال -تعالى-: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِـمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُـوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّـاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَكِنِ الرَّاسِـخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**﴾ [النساء: ١٦٠ - ١٦٢].

قال -تعالى-: ﴿**كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [المائدة: ٦٤].

---

١ - خالد حربي: قيم الأخلاق بين الفكر الإسلامي والغربي، نظرة تحليلية، ص١٣.

٢ - حسن ظاظا: الشخصية «الإسرائيلية»، ص٣٥.

قال -تعالى-:﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء: ١٦١].

قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

إلى غير ذلك من الآيات التي فصَّل الله -تعالى- فيها أخلاقَهم الظاهرة والخفية، ومقاصدهم في الأعمال والأقوال، ومن ثمَّ يستطيع المتأملُ في القرآن أن يدركَ حقيقةَ اليهودِ، ويفهمَ عقليتَهم وما تنطوي عليه نفوسهم من فسادٍ وانحرافٍ عن الخُلُق القويم والصراطِ المستقيم[١]. بل نجدُ في نصوصهم من التوراة ما يؤكد على أنَّ العقلَ الأداتي المسيطر على نفسيتهم متجذرٌ فيهم من القرون الأولى، يقول: "فَالآنَ اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلا تَعْفُ عَنْهُمْ، بَلِ اقْتُلْ رَجُلاً وَامْرَأَةً، طِفْلاً وَرَضِيعًا، بَقَرًا وَغَنَمًا، جَمَلاً وَحِمَارًا" [سفر صموئيل الأول ـــ ٣ : ١٥]، وحرّموا هنا بمعنى أبيدوا. ويبلغ العقلُ الأداتي ذروته في تَغييبه للأخلاق في أقوال من نحو ما قال الرابي مناحم: "أيها اليهود، إنكم من بني البشر؛ لأنَّ أرواحكم مصدرها روح الله. وأمَّا باقي الأمم فليست كذلك؛ لأنَّ أرواحَهم مصدرها الروح النَّجسة»[٢]. وفيما جاء في التلمود من أن: "قريب اليهودي هو اليهودي فقط، باقي النَّاس حيوانات في صورةِ إنسان هم حمير وكلاب وخنازير، يلزم بغضهم سرًّا"[٣]. فهو يقارن هنا بين درجة الإنسان والحيوان ودرجة اليهودي وغير اليهودي.

هذا يعني أنَّ العُنف والعُدوان صارا في تكوين الشَّخصيَّة اليهوديَّة والصُّهيونيَّة[٤]. والتلمود يزخر بالكثير من النُّصوص في هذا الصدد[٥]، فهو وإن كان تفسير الحاخامات للتوراة، فإنَّهم يعدونه كتابًا موحى به[٦]. بما يعني أنَّ هذه العقليَّةَ الأداتيَّةَ في تكوينهم العَقَدي والمعرفي والأخلاقي على حد سواء.

---

١ - سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص ١٥٣.
٢ - روهلنج شارل لوران: الكنز المرصود في قواعد التلمود، ج١، ص٤٧.
٣ - روهلنج شارل لوران: الكنز المرصود في قواعد التلمود، ج١، ص٤٦.
٤ - هند دخيل الله وصل القثامي: أثر عقيدة اليهود في موقفهم من الأمم الأخرى، ص٣٦٧.
٥ - فكري جواد: التلمود وأثره في الفكر اليهودي، ص٢٢.
٦ - رقية العلواني: مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، ص٥١.

ثَالثًا- قَضيَّةُ التَّفَوُّق العرقيّ

تَبقَى قَضيَّةُ تَفَوق بعضَ الأَجناسِ البشريَّةِ على بعضها من أشدّ القضايَا التي تورثُ غروراً وكبرياءً لا حدودَ لهما، بل هي في التَّحليل الأخير دليلاً على العقل الأداتي المُتعصب، وقد تشبثَ الغربُ بهذه القضيَّةِ عمليًّا منذ قرون، منذ أن أتت الحملاتُ الصليبيَّةُ على الشَّرقِ الإسلاميّ، وهي تحمل في عقليَّتها هذه الفكرة، فالنَّظرةُ الدُّونيَّةُ إلى الشرق، والنظرة المتعاظمَة إلى الأنا هي التي جرَّت عداءً بين الفريقين. وقد أعاد (رينان) صياغة هذه القضية نظريًّا في محاضرته الشهيرة، والتي زعم فيها تفوق الجنس الآري على الجنس السامي، وأنَّ المسلمين ليس لهم فكرٌ ولا فلسفةٌ، وأنَّهم مجرد مقلدين لإنتاج الفلسفةِ اليونانيَّة[1]. وبالنَّظر إلى تلك النظرةِ التي جاء بها (رينان) تتبين لنا منذ الوهلةِ الأولى تلك النظرة الاستعلائية التي ينظر بها الغرب إلى الآخر المختلف معه في العِرق أو الجِنس أو العقيدة، وهي النظرة التي تُمثل قمةَ العُنصريَّةِ الغربيَّة، ونعتقدُ أنَّ هذه النظرةَ كان لها مردودها السيئ على العَلاقةِ بين الشَّرقِ والغربِ، إذ راح الثَّاني ينظر للأوَّل وكأنَّه قاصرٌ عقليًا وفي حاجة إلى وصاية عليه، فنصب من نفسه هذا الوصي، وأخذ يتحكم في مقدراته بالاستعمار حينًا والغزوِ الفكري حينًا وانتهاءً إلى ما يسمَّى الإمبرياليَّة العالميَّة الآن[2].

الإشكالية الكبرى أنَّ العقلَ الأداتيَّ الماديَّ الغربيَّ يتشكل من هذين الموقفين: موقفٌ عمليٌّ تطبيقيٌّ يحاول من خلاله أن يقضي على الأخضر واليابسِ رجاءَ مصلحته الشخصيَّة، وموقف نظري يؤمن به ويسير بمقتضاه، ويبني عليه موقفه العملي. وهذا ما يفسر نظرة التَّفَوق العِرقي التي يحمل الغربُ وأمريكا لواءها، ويحاولان أن يفرضاها على العالم فرضًا.

ولا نبالغ ولا نغاير الحقيقةَ إذا قلنا إنَّ أقدمَ مقولةٍ مزعومةٍ للتَّفوُّق العِرقي منسوبة إلى العقليَّة اليهوديَّة وهي مقولة «شعب الله المختار»، فهي مقولة تحمل في مضمونها كلَّ أدران الأنا والنرجسيَّة والفوقيَّة على سائر الشعوب، وهي تفسير لما حكاه القرآن عن غطرستهم في مقولتهم «نحن أبناء الله وأحباؤه»، هذه العقيدة الأنوية هي السبب الرئيس فيما يرتكبه أتباعها «اليهود» من جرائم بشرية، وانتهاكاتٍ لحقوقِ الإنسان ضدَّ الشَّعبَ الفلسطيني الأعزل خاصةً. فمقولة «شعب الله المختار» في ذهنية اليهودي إلى قيامِ السَّاعة، في ذِهنيته وهو يَقتل وهو يَسجن وهو

١ - محمود كيشانه: إشكالية الإسلام والعلم عند رينان، دراسة نقدية، ص٢٩٧.
٢ - محمود كيشانه: إشكالية الإسلام والعلم عند رينان.. دراسة نقدية، ص٢٩٨.

ينتهك آدميَّةَ الإنسان. فهي ذهنيَّةٌ -كما يؤكد بعض الدارسين- عنصرية[١] وذات روح عدوانية[٢].

والنصوص العَقَديَّة التي يؤمنون بها تشير إلى هذه الفوقية، من ذلك مثلاً لا حصرًا:

نصٌّ في التلمود يقول: «غير جائز أن تُشفقوا على ذي جنة». [التلمود: سنهدرين ١]

وقال الحاخام (إباربانيل): «ليس من العدل أن يُشفق الإنسان على أعدائه ويرحمهم»[٣].

ونصٌّ آخر في التلمود أيضًا يقول: «اقتل الصَّالح من غير 'الإسرائيليين'، ومحرَّم على اليهودي أن ينجّي أحدًا من باقي الأمم من هلاك، أو يخرجه من حفرة يقع فيها؛ لأنَّه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين»[٤].

ومن ثمَّ فإنَّ هذه أدلةٌ من التَّوراة وكتب اليهود تشي بالأنا الفوقي ودعوى التَّفوُّق العِرقي الذي يُحدد تعاملهم الوحشي مع الغير.

رَابعًا- العَقْلُ الأَدَاتيُّ والإرْهَابُ الصُّهيُونيُّ:

ممَا لا شك فيه أنَّ الاحتلالَ الغربيَّ الإرهابيَّ -المسمى خطأً الاستعمار؛ لأنَّه ما أراد تعميرًا ولا عمرانًا- قام على مبدأ من العَقلانيَّة الأداتيَّة التي تبحثُ عن تحقيق أغراضها الخبيثة بالوسائل الوضيعة، دون مراعاة لخُلُق أو قِيَم أو مبادئ إنسانيَّة. وإذا كانت العقلانيَّةُ الأداتيَّةُ قد سيطرت على عقليَّة المحتلّ الغربيّ الذي كان يُمارس أبشعَ صور الإرهاب فإنَّ هناك جناحًا آخر ما كان لهذه العقليَّة أن تجولَ بغيره، وهي النَّفعية الماديَّة الغربيَّة. ومن ثم جالت بجناحيها متخطيةً كل القواعد والمبادئ والأعراف الإنسانيَّة، بل لقد تغولت على كرامة الإنسان وحريَّته. ولم يقف الإرهابُ الغربيُّ عند هذا الحد، بل إنَّه تزيى بزيٍّ جديدٍ تُصنع فيه الحركات التكفيرية والإرهابية على عينه، ثم يطلقها -حسب بعض الدارسين- في بلاد الشرقِ الإسلاميّ ليَسِمها بالإرهاب ويُنفذ مخططاته فيها[٥].

---

١ - أحمد عبد الله الزغيبي: العنصرية اليهوديَّة وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها،ج١، ص٢٤.

٢ - رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهوديَّة «الإسرائيلية» والروح العدوانية، ص١٢٢.

٣ - روهلنج شارل لوران: الكنز المرصود في قواعد التلمود، ج١، ص٤٨.

٤ - روهلنج شارل لوران: الكنز المرصود في قواعد التلمود، ج١، ص٥٨.

٥ - محمد مرتضى: صناعة التوحش.. التكفير والغرب، ص٣.

إنَّ قضيَّةَ الغاية التي تُبرر الوسيلة التي ابتدعها (ميكافيللي)[1] كما لو كانت الشعار الذي طبقته العقلانيَّةُ الأداتيَّةُ في خِضم إرهابها على الشرق، «فقد شكَّلت هذه المقولةُ الذهنيَّةُ السياسيَّةُ خلال القرون الأخيرة جميعَ أنحاءِ العالَم الغربي وتحوَّلت مع مرورِ الوقت إلى عقيدةٍ فاسدةٍ يتم توظيفها مـن أجل الوصـول إلى أهداف خاصَّة مهـما كان ثمن هذا الوصول حتى لو كان على حسـاب الآخرين من خلال اسـتعمارهم ونهب خيراتهم وتدميرهم وتكريس مبدأ تبعيتهم للاستعمار في كافَّة المجالات».[2]

ومن ثمَّ فقد حشـد المحتلُّ الغربيُّ جيوشَـه ومدافعَه وأدواته الحربيَّة موهـمًا بأنَّه ما جاء إلَّا للتَّعمـير والبناءِ والرخاءِ، في الوقـت الذي ما جاء فيه إلَّا بالتَّدميرِ والخرابِ والفقرِ، مسـتخدمًا أدوات إرهابية كالقتلِ والتنكيلِ والجاسوسـيَّةِ وإثارة الفتن والنَّعرات القوميَّة والقبليَّة، ومحاولة ضرب ثوابت الدين وتهميش دور اللُّغة باعتبارها المكوّن الثَّاني للهُويَّة، وهي أدوات طبَّقَها تحت مظلة العقلانيَّة الأداتيَّة والنفعيَّة الماديَّة.

إنَّ العقلَ الأداتيَّ الغربيَّ يصير شـيئًا فشـيئًا قابلًا للأمر الواقع حتى يسـير معه أسلوب حياة، بل يتعدَّى ذلك إلى إجباره غـيره على القبول بالأمر الواقع أيضًا، فيمارس القَهرَ ويُجبر المقهورَ على الانصياع للأمر الواقع، يسـقي الشعوب كؤوسَ القمعِ، ويطلبُ من الشَّاربين خلافًا للواقع إظهار علامات التلذذ، يدفعُ الإنسانَ في هذه الشعوب دفعًا إلى أن يعيشَ مغتربًا في وطنه. أليس هذا ما تفعله السياسةُ الأمريكيَّةُ بشعوبِ العالمِ وحكوماتها؟! إنَّ السياسةَ الأمريكيَّةَ بإلحاح من العقلِ الأداتي الكامن فيها يجعلُها تتجه إلى تحقيق أهدافها الاسـتعماريَّة في البلدان بوسـائلها المختلفة دون مراعاة لمعايير إنسـانيَّة أو ضوابط أخلاقيَّة، أو التـزام بالمواثيق الدولية. ومن ثمَّ كانت هذه السياسـةُ الجيلَ الأحدثَ والمتطورَ لأدران العقلِ الأداتي المادي الغربي. ثُمَّ خلفتها السياسة "الإسرائيلية" تحت ظلال يهوديَّة صُهيونيَّة في التنكيل بالفلسطينيين بمباركة من السياسة الأمريكيَّةِ المشـبعة حتى الثمالة بالعقلِ الأداتي، فالوسـائلُ العدوانيَّةُ واحـدةٌ والغاياتُ النفعيَّةُ

١ - ميكافيللي: الأمير، ص١١.

٢ - حسام الدين فياض: ممارسات العقل الإنساني ما بين العقل الأداتي والنقدي والتواصلي (رؤية تحليلية – نقدية)، بحث منشور على موقع مؤمنون بلا حدود، على الرابط التالي:

https://www.mominoun.com/articles/84-9199.

البرجماتيَّةُ واحدةٌ والبعد الإنساني عندهم يغوص في نومٍ عميق.

فالتسلطُ وإخضاعُ الشعوبِ للأمرِ الواقع كان ولا زال مظهرًا من مظاهر السلطة السياسيَّةِ التي تهيـمُ في بحرِ العقلِ الأداتي، فالغربُ وأمريكا يرسـخان دعائمَ سـلطتهما على العالم، والإقرار بمبـدأِ القُوة، فيتحول العـالمُ إلى غابةٍ -وهكذا تحول بالفعل- يأكلُ فيهـا القويُّ الضعيفَ، ولا يقـف الأمرُ عند هذا الحد، بل يمُارسُ الإرهابَ بصورةٍ أخـرى، وهي التلويح بفرض العقوبات الاقتصاديَّةِ أو برسم خطط الانقلابات ومباركتها ضد الحكومات المناهضة، أو الحروب العلنيَّة تحت مظلة دَعاوَى كاذبة.

إنَّ العقيدةَ الصُّهيونيةَ قائمةٌ على هذا النهج من التسلُّطِ ومحاولة فرض الأمر الواقع على العرب والمسلمين، خاصةً في الأراضي المحتلة، ومن ثمَّ تعمد إلى تثبيت أركان سُلطتها الغاشمة، ولو أدَّى بهـا الأمرُ إلى قتلِ كلّ دعـوةٍ للحريَّةِ أو محاولة الدفاع عن الأرض، ولِكم كانت الشـواهد والحوادث التاريخيَّةُ دليلاً على بشـاعةِ ما ترتكبه هذه السلطة، وآخرها ما تلي طوفان السابع من أكتوبر، فالعقليَّة اليهوديَّة عقليَّةٌ أداتيَّةٌ حتى النُّخاع، لا تهتم إلا بالوسـائل التي تحقق لها أهدافها ولو ترتب عليها ما يُنافي المبادئَ الإنسانيَّةَ، فقضيَّةُ الإنسانيَّةِ ومبادئها لا وجودَ لها في هذه العقليَّةِ المتوحشـةِ. حيث إنَّ "طبيعة العنصريـة 'الإسرائيلية' لا يمكن أن تتبلـورَ في نفس اليهوديّ إلَّا مسبوكةً بنيران الحروب"[1].

إنَّ العقـلَ الأداتيَّ الغربيَّ إذا كان باحثًا عن السـيطرةِ على الإنسـانِ والطبيعـةِ من حوله، فإنَّ العقلَ الأداتيَّ الصُّهيونيَّ اليهوديَّ يظلُّ عقلاً باحثًا عن السيطرةِ على الإنسانِ والأرضِ من حولِه، فالإنسـانُ وفق هذا العقلِ الصهيونيّ هو الإنسـانُ العربيُّ المسلمُ، والأرضُ هي الأرض العربية وخاصةً فلسطين، وهو في سـبيل ذلك يقتل الحريات ويُمارس ألوانَ التنكيلِ البربريَّةِ. والدليل على ذلك الإبادة الجماعية التي تمُارَس ضدَّ الشعبِ الفلسطيني من عام ١٩٤٨م إلى الآن.

خَامسًا- المَصَالِحُ المُتبَادَلَةُ بَينَ الصُّهيُونيَّةِ وَالحَضَارَةِ الغَربيَّة

لا شَكَّ في أنَّ هناك مصالحَ مَتبادَلةً بين اليهودِ والصُّهيونيَّةِ من جانب والغرب من جانب آخر كلها تسـير في فَلَك العقلِ الأداتي في غيابٍ من الإنسانيَّةِ وازدواجيَّةِ المعايير الأخلاقيَّةِ، فاليهود

١ - حسن ظاظا والسيد محمد عاشور: شريعة الحرب عند اليهود، ص ١٦.

يريدون تحقيقَ السيطرة على الأرض من النّيل إلى الفُرات، والغرب يريدُ السيطرةَ على العالم -وهو هدف الصُّهيونيَّةِ أيضًا- ومن ثمَّ فإنَّ هناك أحلامًا مشتركةً تلاقتا للإجهاز على الشَّرقِ الإسلاميّ خاصةً.

ومن ثمَّ شرعنَ الغربُ الوجودَ اليهوديَّ في فلسطين، بعد أن مهدَ له في وعدِ بلفور ١٩١٧م، وذلك كنوعٍ من أنواعِ الصراع التاريخي الذي بدأه الغربُ بالحروبِ المتواصلة على مدارِ التَّاريخ، ثمَّ بعد سقوطِ الشيوعيةِ ازداد خوفًا من الإسلامِ الذي رآه الغربُ العدوَّ الرئيسَ له. ومن ثمَّ فقد رأى في الوجودِ اليهودي في فلسطين دعمًا له في مواجهةِ هذا الخطر الذي يستشعره. فـ«إسرائيل» إذن تمُثل له حلقةَ الدفاع الأولى التي تكفي الغربَ مؤنته.

وهذا يفسرُ لنا لماذا يصمت الغرب صمتًا رهيبًا أمامَ تلك الانتهاكات التي يرتكبها الكيان الغاصب ليل نهار، دون أن يحرك ساسته ساكنًا؟ ويفسر لنا في الوقتِ ذاته لماذا يقف الغربُ جُله -إن لم يكن كله- وأمريكا أمام صدورِ أي إدانةٍ من المجتمعِ الدَّولي تجاه هذه الانتهاكات؟! إنَّ الغربَ وأمريكا اللَّذين يرفعان شعاراتِ حقوقِ الإنسان الجوفاء، يصمتان أمامَ كلّ هذا لتلك العقلانيَّةِ الأداتيَّةِ التي توجهه، وتلزمه وفقًا لمصالحه ألَّا يُدين أو يَشجب أو حتى يُظهر مظاهرَ التعاطف للجانبِ الآخر المُعتدَى عليه.

ومن ثمَّ كان هناك تخادُمًا متبادَلاً عنوانه: أنا أكفيك مُؤنة الخطر الآتي من الشرق الإسلامي مقابل أن تمُدَّني بالمال والسلاح، وأن تجعلني القُوةَ العسكريَّةَ الأقوى في المنطقة، وأن تغضَّ الطَرف عما أرتكبه من جرائم، فما عليك إلَّا الإذعان والخضوع، فأنا أُحققُ لك أهدافَك ومَراميك دون أدنى جهد منك. وهذه هي ملخص الاتفاقية ربمَّا غير الرسمية، لكنَّها منقوشةٌ في الأذهان والعقول.

النَّتَائِجُ:

لا شكَّ في أنَّ هناك مجموعةً من النتائج التي تمَخَّض عنها هذا الموضوع، ويمُكن إجمالها على النحو الآتي:

أَوَّلًا- أنَّ العقلَ الأداتيَّ سِمةٌ مشتركةٌ بين اليهوديَّةِ والصُّهيونيَّةِ من جانب، والفلسفةِ الغربيَّةِ

التـي قامت عليها الحضارةُ الغربيَّـةُ من جانبٍ آخر. وبناءً عليه، نجـد أنَّ المواقفَ الصَّادرة من هذين الجانبين المشـبعين بهـذا العقلِ لا تتورع عـن اتِّخاذ كل الوسـائل مادامت تضمن لهما تحقيق الغايات والأهداف التي يسـعيان إليهـا، ولو كانت مخالفةً للأعـراف الدوليَّةِ والقوانين العالميَّة والمبادئ الإنسـانيَّةِ؛ إذ إنَّ هذا العقل يعمل وفق مبدأٍ أَلزَم به نفسـه ضمنيًّا مؤداه: الغاية تبرر الوسيلة.

ثَانيًـا- أنَّ العقلَ الأداتيَّ ومبادئَ الأخلاق الإنسـانيَّةِ ضدان لا يجتمعـان، ومن ثمَّ كان وجودُ العقلانيَّةِ الأداتيَّة دليلاً على اللاَّ أخلاقية، لأنَّ العقلَ الأداتيَّ يرتكزُ على المنفعةِ ولا شيءَ غيرها، وهو بذلك يتناقضُ مع مبادئ الأخلاق والفضيلة والمعاني الإنسانيَّةِ؛ لأنَّه في سبيل تحقيق منفعته هذه سـوف يطأها بكلتا قدميه، فيتحول العالمُ إلى غابةٍ يأكل فيهـا القويُّ الضعيفَ، وعلى قدر القُوّة تتحصل الفائدةُ؛ وهذا قانون الغاب.

ثَالثًـا- أنَّ عقيدةَ العقليَّةِ اليهوديَّةِ والفلسـفة الماديَّة الغربيَّة اجتمعتـا على اللاَّ أخلاقية، فوفق إلحاحات العقلانية الأداتية التي يمارسانها ارتكبا أبشعَ الجرائم في حقّ الإنسانيَّة ومازالا، فاليهود وفق عقليَّتهم العدوانية يستبيحون كلَّ شيء في معاملتهم للمسلمين في فلسطين، فالقتل والتنكيل والهدم وعدم احترام حقوق الآخر بالكلية هي صور من الصور اللا أخلاقية التي يباركها الغربُ وحامل اللواء أمريكا، إذ لا تنديدَ ولا لوم ولا قوانين دولية تُطبق، بل يُمنع تطبيقها ويُمنع الإقرار بالموافقَة عليها خدمةً لهذا الكيان الغاصب.

رَابعًا- قَضيَّةُ التَّفوق العرقي هي أُكذوبة حملَ لواءها الغربُ واليهودُ، فالغرب عدَّ نفسَه العقليَّةَ التي تفوقُ غيرَها من العقليات وأنَّ هذا التَّفوق بسـبب الأعراق، فصنَّفوا العالمَ فريقين: الجنس الآري والجنس السـامي، وجعلوا للأوَّل الأفضليَّة المطلقة على الثَّـاني، وقد حمل لواءَ الدفاعِ عن هذه القضيَّة الفيلسـوف (رينان)، الذي نزع عن المسـلمين كلَّ فِكر وثقافة وتأثير في العالم فلسـفيًّا وعلميًّا، بدعوى أنَّهم عالةٌ على الجنس الآري، وأنَّ دورَهـم لم يتعدَّ التقليدَ والمحاكاةَ للفكر اليوناني، وهي قضيَّةٌ خاطئةٌ بالكليَّة، في حين جاء اليهودُ بمقولتهم المكذوبة «شعب الله المختار»، لتكشـفَ عن اسـتعلائهم وعقليتهم الفوقيَّةِ التي تـرى أنَّ النَّاسَ من جنس، وهم من جنس آخر أعلى على كافَّة الأصعدة، وما ذلك بحقيقة. واستنادًا إلى هذه العقيدة المضلّلَة ارتكب الغربُ واليهودُ ما ارتكبوا من أفعال لا يرتضيها عقل ولا دين.

خَامسًا- أنَّ الإرهابَ الصُّهيونيُّ هو نتيجةٌ منطقيَّةٌ للفَوقيَّة اليهوديَّة المزعومة وللعقلانيَّة الأداتيَّة التي يغوص فيها العقلُ الصهيونيُّ حتى الثمالة، ومن ثمَّ فلا غرابةَ فيما يرتكبه من مجازر إنسانية ما دامت هذه هي عقيدته. خاصةً أنَّها تتوافقُ مع توجُّه الغرب في تفوقه العِرقي المزعوم، ومن ثمَّ نفهم أنَّ الإرهابَ الصُّهيونيَّ العالميَّ، والإرهابَ اليهوديَّ في دولة فلسطين لن ينتهيا ما دامت الركائزُ التي يرتكزان عليها قائمةً.

سَادسًا- تبدو قضيَّةُ المصالح المتبادَلة بين الصهيونيَّة والغربِ إحدى القضايا التي تكشفُ عن العقلانية الأداتيَّة التي تتحكم في الطرفين. فاليهود لهم أطماعهم من النيل إلى الفرات، ويحققون للغرب ما يصبو إليه كونهم بمثابة خط الدفاع الأول، والصُّهيونيّةُ لها أطماع أعم وأشمل تلتقي مع التوجه الغربي، وكلاهما يريد السيطرةَ على العالم، الصُّهيونيَّة أطماعُها التحكم عالميًّا في الاقتصاد والمقدرات، والغرب يشترك معها في ذلك ويزيد عليها السيطرة على الأرض إن أمكن ومن عليها، ومن ثمَّ فكل منهما يُقدم خدمةً جليلةً للآخر تحت ستارٍ من العقلانيَّة الأداتيَّة.

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ:

أَوَّلًا- المرَاجِعُ العَرَبِيَّةُ:

- أبو الحسن الندوي: إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، مطبعة ق، بومباي – الهند، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.
- أبو الحسن الندوي: الأمة الإسلامية وحدتها ووسطيتها وآفاق المستقبل، القاهرة، دار الصحوة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
- أبو الحسن الندوي: الإنسانية تنتظركم أيها العرب، الهند – لكناؤ، المجمع الإسلامي العلمي، بدون.
- أبو الحسن على الحسني الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط دار الجيل، بيروت، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.
- أبو النور حمدي أبو النور حسن: يورغن هابرماس «الأخلاق والتواصل»، دار التنوير، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩.
- أحمد إبراهيم الديبو: المتفق والمختلف في القيم الأخلاقية بين اليهوديَّة والمسيحية والإسلام.. دراسة مقارنة، مجلة ريحان للنشر العلمي الصادرة عن مركز فكر للدراسات والتطوير، عدد: ١٤، سبتمبر ٢٠٢١م.
- أحمد عبد الله الزغيبي: العنصرية اليهوديَّة وآثارها في المجتمع الإسلامي والموقف منها، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.
- أحمد عمار عبد الجليل: الأخلاق في القرآن والتوراة والتلمود، دار نور حوران – دمشق، طبعة ٢٠١٨م.
- إيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز إلى هابرماس، ترجمة: محمد حسين غلوم- محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد: ٢٤٤، يناير، ١٩٩٩م.
- حسن ظاظا: الشخصية «الإسرائيلية»، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
- حسن ظاظا والسيد محمد عاشور: شريعة الحرب عند اليهود، دار الاتحاد العربي للطباعة، القاهرة، الأولى، ١٩٧٦م.

- حسن مصدق: يورغن هابرماس ومدرسة فرانكفورت (النظرية النقدية التواصلية)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- خالد حربي: قيم الأخلاق بين الفكر الإسلامي والغربي، نظرة تحليلية، الإسكندرية، المكتب الجامعي الحديث، بدون.
- رشاد عبد الله الشامي: الشخصية اليهوديَّة «الإسرائيلية» والروح العدوانية، عالم المعرفة - الكويت، طبعة ١٩٧٨م.
- رقية العلواني: مفهوم الآخر في اليهودية والمسيحية، دار الفكر - دمشق ٢٠٠٨م.
- روهلنج شارل لوران: الكنز المرصود في قواعد التلمود، ترجمة يوسف حنا نصر الله، تقديم: مصطفى الزرقا وحسن ظاظا، دار القلم - دمشق، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- سعود بن عبد العزيز الخلف: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، الرابعة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.
- عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، دار الشروق، القاهرة، الأولى، ٢٠٠٤م.
- فكري جواد: التلمود وأثره في الفكر اليهودي، طبعة مركز دراسات الكوفة، العراق، بدون.
- محمد مرتضى: صناعة التوحش.. التكفير والغرب، الناشر: دار الولاء للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ٢٠١٦م .
- محمود كيشانه: إشكالية الإسلام والعلم عند رينان، دراسة نقدية، دراسة ضمن كتاب اللاهوت المعاصر دراسات نقدية، (العلم والدين)، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت- لبنان، الأولى، ١٤٤٠ه- ٢٠١٩م.
- محمود كيشانه: الإسلام والغرب عند الندوي، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٩م.
- ميكافيللي: الأمير، ترجمة أكرم مؤمن، الناشر: مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤م.

- هند دخيل الله وصل القثامي: أثر عقيدة اليهود في موقفهم من الأمم الأخرى، رسالة ماجستير غير منشورة بقسم العقيدة بجامعة أم القرى عام ١٤٢٠هـ.

ثَانيًا- المرَاجِعُ الأَجنَبيَّةُ:

- Habermas: The Theory of Communicative Action. Translated By: Thomas Mc Carthy, Boston, Beacon Press, v (1), 1984.
- M. Hokhiemer: The Eclipse of Reason, New York, Continuum, 1974.

ثَالثًا- الرَّوَابطُ الإلِكترُونيَّةُ:

- حسام الدين فادي: نقد هابرماس للعقل الأداتي.. محاولة لتنمية البعد التواصلي للعقل الإنساني، على الرابط التالي:

  https://www.researchgate.net/publication/359847456<
- حسام الدين فياض: ممارسات العقل الإنساني ما بين العقل الأداتي والنقدي والتواصلي (رؤية تحليلية – نقدية(، بحث منشور على موقع مؤمنون بلا حدود، على الرابط التالي:

  <https://www.mominoun.com/articles/849199->
- حسام الدين فياض: فلسفة هابرماس.. نقد أسس العقلانية الأداتية، دراسة منشورة على الرابط التالي:

  <https://fikrmag.com/article_details.php?article_id=1547>
- سليم نصر الرقعي: حياة الغربيين هل هي وردية وجنة النعيم؟ الحوار المتمدن، ٩ إبريل، ٢٠١٣م.
- على الرابط التالي:

  <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=353580>

الصُّهيُونيَّةُ المُستَترَةُ بـ"الوَاقِعيَّة السّيَاسِيَّة" فِي الخِطَابِ الإعلَامِي العَرَبِيّ
(نُمُوذَج حَربِ "طُوفَان الأَقصَى")

■ د. أسماء عبد العزيز[1]

ملخّص

تتمحور هـذه الورقة حول بناءِ تصوّرٍ معرفيٍّ يبحث في تجليات «الواقعيّة السياسـيّة»، باعتبارها حضـورًا كثيفًا في الصراع الإمبريالي المعاصر ضد بلدان «الجنوب العالمي The Global South" بوجه عام، ومنطقة غرب آسـيا «الشرق الأوسـط» على وجه الخصوص. حيث لم تكن الحرب على غـزة أو جنوب لبنان سـوى إحدى حلقات حرب ممتدة حملت في كل مرةٍ أيديولوجيا اسـتعمارية بهدف تأسيس إمبراطورية غربية أو استنزاف الموارد أو السيطرة على مقدرات شعوب المنطقة، وفي تلك الحرب التي تجاوزت حدود المنطق والمعقول في ظل عجز دولي ومؤسَّساتي وسقوط أخلاقي وإنساني؛ تتجلي مقولات فلسـفية كبرى ترتبط بعلم السياسية. وتحتل «الواقعيّة السياسيّة» الصدارة في هـذ المقـولات، لخلق تصـورٍ بديل يبرر عمليات القتـل والدمار التي تداولتها وسـائل الإعلام المحلية والعالمية بصورة مختلفة. ترصد هذه الرؤية أسـس وملامح المشروع الاسـتعماري الغربي المعاصر على الصعيدين النظري والتطبيقي لأجل كشـف آليات التلاعب في الخطاب والممارسـة على حد سـواء، والدور الذي تقوم به مؤسسـات إعلامية عربية وغربية في توطين فلسـفة «الواقعيّة السياسـيّة» بوصفهـا إطارًا أيديولوجيًّا يؤطر لرؤية معرفية جديدة مفادهـا أنَّ منطقَ القوة كافٍ لإدارة العلاقـات الدولية. كما نلقي الضوء عـلى تطبيقاتها في السردية الإعلاميـة والثقافية العربيّة وبعض السرديّات الغربيّة في الخطابات والتوجهات التي تدعم الأهداف الصهيونيّة.

الكلمات المفتاحية: «الواقعيّة السياسيّة»، طوفان الأقصى، الصهيونيّة المستترة، الواقعية الجديدة، الإعلام الغربي، الإعلام العربي، النخب العربية.

1 - باحثةٌ ومترجمةٌ في العلوم الإنسانية، حاصلة على شهادة الدكتوراه في الآداب جامعة سوهاج، جمهورية مصر العربية.

مقدمة

تذهب نظرية «الواقعيّة السياسيّة» إلى أنَّ الأخلاق ليس لها مكان في النظرية السياسية، وتقترح بدلاً من ذلك تأسيس دلالات معيارية لا يمكن اختزالها إلى مبادئ أخلاقية، بمعنى آخر: «المعيارية السياسية» أكثر إيجابية وأنفع من المعيارية الأخلاقية. وهذا هو الأساس التحليلي في نقد أنصارها لـ «النظرية السياسية الأخلاقية»، لأنَّ الأخلاقيين يَختزلون المشكلات السياسية في مجردِ كونها مسألة أخلاقية شخصية فحسب.

الإشكالية في هذا الطرح، هي أنَّ الاعتبارات المعيارية في السياسة سواء كانت المصلحة الذاتية أو القوة أو السيطرة عن طريق الدولة تدعو إلى تجاوز التفكير الأخلاقي بشكل عام؛ فالأخلاق نسبيةٌ وليست مطلقةً، ذاتيةٌ وليست موضوعيةً. تأتي هذه الورقة مُسائِلةً هذا الطرح الذي نشأ على الأقل مع (بروتاغوراس السفسطائي - Protagoras)، ثم تطور على يد (نيتشه - Nietzsche)، وصولاً إلى التنظير له في عدة من مراكز الأبحاث الأمريكية والغربية. بل سنجد تلك الرؤية حاضرة بكثافة في وسائل الإعلام الغربية والعربية، خاصةً في المنعطفات الكبرى التي تمر بها الأمة العربية والإسلامية.

لقد استهدف الفلاسفة والمفكرون من تأسيس فلسفة الأخلاق بناء المشروع الإنساني، في تمظهراته الفردية أو الجماعية، على اعتبار أنَّ الأخلاقَ: هي قواعدُ السلوك في ثقافة أو مجموعة معينة يَعترف بها مصدرٌ خارجيٌّ أو نظامٌ اجتماعي ما، كما ورد في «معجم أكسفورد». وبالتالي يُمثل التماهي مع الأخلاق نوعًا من القفز في قلب النَّزعة الإنسانيَّة بشكل عام.

وأحسب أنَّ الفلسفة الأوربية منذ نظرية الأخلاق عند (أفلاطون) ونظرية السياسة عند (أرسطو - Aristotle)، مرورًا بمئات الفلاسفة والمفكرين المعاصرين، حاولوا قدر المستطاع بناء منظومة أخلاقية استطاع (كانط - Kant) أن يبلورها في أكثر من كتاب أصدره في هذا الصدد، إدراكًا منه،

بل من معظم فلاسفة أوروبا، أنَّ المسار الحضاري الأوروبي، وخاصة في القرون الأخيرة، ينزع باتجاه التطـرف تجاه الآخر. حيث اتخذ هذا العداء صورًا متعددة كالاحتلال واسـتنزاف موارد البلدان المحتلة، بل وتغيير الجغرافيا السياسية والثقافية بما يعزز به «المركزية الأوروبية».

ولعـل المحنةَ الكبرى التي تمـر بها الأمة العربية والإسـلامية اليوم هـي واحدة من أصعب مراحل العلاقة بين الأنا والآخر، المقاومة والإمبريالية، الأخلاق والرغبة في السيطرة...إلخ. محنة عايشـناها على الهواء مباشرة، ورأينا بأعيننا كيف تسـهم وسائلُ إعلامٍ تنطق بلسان عربي وقلب إمبريالي في تزييف الوعي العربي والإسلامي لتجعله مهيأً لقبول نظريةً «الواقعيّة السياسيّة» بكل ما تحمل من مخاطر على الأمة.

وفي هذه الورقة، سـنحاول تأصيل الأفكار الأساسـية الحاكمة لنظرية «الواقعيّة السياسـيّة» باعتبارهـا إطارًا نظريًا مُوجَهًّا للممارسـة العملية، تمهيدًا للانتقال إلى قراءة المشـهد الإعلامي العربي والغربي في تناوله لمعركة طوفان الأقصى.

أَوَّلًا: الإِطَارُ النَّظَرِيُّ: المُنطَلَقَاتُ الفَلسَفِيَّة لِنَظَرِيَّةِ «الوَاقِعِيَّة السّيَاسِيَّة»

١ - الوَاقِعِيَّةُ السّيَاسِيَّةُ الكِلَاسِيكِيَّةُ

يُمثل «سؤال القوة The Question of Power» أحدَ أهم المرتكزات التي تقوم عليها السياسة الدولية، حيث انشـغل فلاسفة السياسة والتاريخ الحضاري بدراسـتها باعتبارها منطلقًا تفسيريًّا لنشـأة واضمحلال الأمم. إذ تحدث (نيكولو مكيافيلـلي - Niccolo Machiavelli)، في أواخر عصر النهضة، عن الدور الذي يجب أن يقوم به الأمير للحفاظ على السلطة باستخدام القوة مع إغفال المبدأ الأخلاقي إذا شـكل عائقًا في طريق السـلطة، حيث كان تفكيره مرتكزاً حول فكرة الـضرورة بدلاً من التفكير وفق مصطلحات الصواب والخطأ. ولهذا السـبب كان بإمكانه تبرير التصرفات غير الأخلاقية، مثل جرائم القتل، باعتبارها ضرورة في صراع السلطة[1].

كذلك ينطلق (هوبز - Hobbes) أيضا في نظرته للواقعية السياسية من الحالة الطبيعية للإنسان الـذي يميل دومًا إلى الصراع مع أقرانه مدفوعًا بالبحث عن المنفعة، أو دفاعًا عن أمنه، أو طمعًا

1 - Christian Langer: "The political realism of the Egyptian elite: a comparison between the Teaching for Merikare and Niccolò Machiavelli's Il Principe." Journal of Egyptian History 8, p50.

في المجد؛ وترتبط هذه الحالة الطبيعية، في مذهب هوبز، بغياب السلطة المنظَّمَة[1].

ونظـرًا لأنَّ (هيجل - Hegel) يعتبر الدولة فكرةً مقدسـةً ولها شـخصيتها الاعتبارية، يري أنَّ قوتها مطلقةٌ وشاملةٌ ولا ينسحب عليها القانون، ولذا فهي تتجلى وتترفع عن أي مساءلة أخلاقية، لكونهـا ذاتًا تعلو فوق كل الاعتبارات الخُلُقيـة[2]، أي أن يضحي الفرد بقيمهِ الأخلاقية من أجل مصلحة الدولة.

وبناءً عليه، تربط «الواقعيّة السياسـيّة» بين المصلحة والسلطة، مما ينتج عنه انحسار الفلسفة الأخلاقية في العلاقات الدولية، انطلاقًا من تفسـيرٍ مفاده أنَّ الإنسـان تتحكم فيه الرغبة والقوة، وأنَّ المصلحة الذاتية هي التي تقودُ السياسة العالمية.

٢ - الوَاقِعيَّةُ السّيَاسِيَّةُ الجَدِيدَةُ

في أعقـاب الحرب العالمية الثانية، لاحت فرصةٌ لتهيئة مُناخ مسـاعدٍ لنمـو أفكار «الواقعيّة السياسيّة»، وظهور تصوراتٍ جديدة لمفكرين -خاصةً في الولايات المتحدة- نازحين من بلدان أوروبية ومتأثرين إلى حد كبير بأحداث الحرب ونتائجها على الإنسـان الأوروبي في نقد واضح لتلـك الرؤي «المثاليـة واليوتوبية» التي حكمت النظرية السياسـية في النصف الأول من القرن العشرين -التي تبناها (وودرو ويلسـون - Woodrow Wilson) وغـيره- حاجَّ هؤلاء الواقعيون بأنَّ سـعي المثاليين لإيجاد علاج لمرض الحرب أدى إلى تجاهلهـم لدور القوة، والمبالغة في تقديـر الدرجة التي تشـارك فيها الدول مجموعة من المصالح المشـتركة، والتفاؤل المفرط من جهة إمكان العثور على حلول عقلانية تمهد الطريق لحل النزاعات سلميًا. وأكد اندلاع الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩، على الأقل بالنسـبة للواقعيين، عدم كفاية نهج المثاليين لدراسة السياسـة الدولية[3]. ومنذ ذلك الحين بدأ هناك ميل داخل الأدبيات «الواقعيّة السياسـيّة» لدمج فكرتي الدولة المهيمنة Hegemon والقوة في نسـيج العلاقـات الدولية، وكان أبرز منظري هذا

١ - علي زياد العلي: المرتكزات النظرية في السياسة الدولية، ص.ص. ٢٠١-٢٠٢.

2 - John C. Garnett: Commonsense and the theory of international politics, p123.

3 - John Baylis; Steve Smith; and Patricia Owens, eds.: The globalization of world politics: An introduction to international relations. p160.

الاتجاه (جون ميرشيمر - John Mearsheimer)، الذي عرَّف الدولة المهيمنة بأنَّها «الدولة القوية إلى الحد الذي يمكِّنها من التَسيُّد على جميع الدول الأخرى في النظام العالمي، ولا توجد دولة أخرى لديها القدرة العسكرية للتصدى لها كما يجب»[١].

كـما تضاءلت إلى حد كبير فكرة حضور القيم الأخلاقية في السياسـة، وهـذا ما فسره (هانز مورغنثاو -Hans Morgenthau) بوضوح في بيانه الموجز عن مبادئ الواقعية في الفصل الأول من كتابه «السياسة بين الأمم Politics Among Nations». وتتلخص تلك المبادئ في الآتي:

١. تؤمن «الواقعيّة السياسـيّة» بأنَّ السياسـة مثل المجتمع بشـكلٍ عامٍ، تخضع لقوانين موضوعية تجد جذورها في الطبيعة البشرية.
٢. العلامة الرئيسية التي تساعد «الواقعيّة السياسيّة» على إيجاد طريقها في مشهد السياسة الدولية هي مفهوم المصلحة الخاصة بدافع القوة.
٣. تتغير القوة والمصلحة -من حيث محتواهما- عبر الزمان والمكان.
٤. تؤكد الواقعية أنَّ المبادئ الأخلاقية العالمية لا يمكن تطبيقها على سياسات الدول.
٥. الاختلاف بين «الواقعيّة السياسـيّة» والمدارس الفكرية الأخرى هو اختلاف حقيقي وعميق على المستوى الفكري، ويتمثل في استقلالية المجال السياسي[٢].

كـما يعتبر كتاب (كينيـث وولتـز - Kenneth Waltz) "نظرية السياسـة الدولية Theory of International Politics" (١٩٧٩) مركزيًّـا في الواقعية الجديدة المعاصرة، ومن أكثر الأعمال النظرية تأثيراً في الدراسـة الأكاديمية للعلاقات الدولية، واليوم، لا يزال مرجعًا أساسيًّا لكل من الواقعيين ومنتقديهم. يقدم (وولتز) مثالاً ممتازًا للواقعية الهيكلية القوية، إذ لا ينشأ النظام العالمي من قِبَل سـلطة أعلى (مثل مبدأ أخلاقي كوني أو مفاهيم كبرى أو غيره)، بل ينشـأ من تفاعلات الفاعلين السياسيين المتساوين رسميًّا عبر العصور من بنية مستمرة من الفوضى الدولية. ويرى أنَّ في بيئات الفوضى يجب أن تعتمدَ كل دولة في النهاية على مواردها الخاصة لتحقيق مصالحها[٣].

وهذا ما أكـد عليه (جون ميرشـيمر - John Mearsheimer) أيضا في كتابه ٢٠٠١ «مأسـاة

1 - Alissa Nelson: «Dialogue of Civilizations Research Institute.», p2.
2 - Jack Donnelly: Realism and International Relations, p16.
3 - Jack Donnelly: Realism and International Relations, p17.

سياسات القوى العظمى The Tragedy of Great Power Politics»، حيث ذهب إلى أنَّ الدول تواجه بيئة دولية غير مستقرة قد تستخدم فيها أي دولة قوتها لإلحاق الضرر بأخرى. في مثل هذه الظروف، تكون القدرات النسبية في غاية الأهمية، ويتطلب إقرار الأمن اكتساب أكبر قدر ممكن مـن القوة مقارنة بالـدول الأخرى، وأن أقصى ما يمكن أن تأمل فيـه الدولة هو أن تكون مهيمنة إقليميًّا، وقد أسس نظريته السياسية تلك على خمسة افتراضات: النظام الدولي فوضوي؛ القوى العظمى تمتلك بطبيعتها بعض القدرات العسـكرية الهجوميـة، وبالتالي يمكنها إلحاق الضرر ببعضها البعض؛ لا يمكن للدول أن تتأكد من نيات الدول الأخرى؛ البقاء هو الهدف الأسـاسي للقوى العظمى؛ والقوى العظمى أو الدول العظمى جهات فاعلة عقلانية. وبالتالي تسعى الدول بشكل عقلاني إلى النفوذ والسيطرة[1].

وفي كتابه «السـلام والحرب Peace and War» ١٩٦٦، يطـرح (ريمون آرون - Raymond Aron) (١٩٠٥- ١٩٨٣)، وهو أحد منظري «الواقعيّة السياسـيّة» المعاصرة: «أنَّ شرعية العنف من أجل تحقيق أهداف الدولة كانت مشـتركة بين الدول، ولا يمكـن احتكارها كما كان الحال ضمن حدود الدولة الإقليمية، فالعلاقات الدولية علاقاتٌ بين وحدات سياسية، كل واحدة منها تدعي الحق في أخذ العدالة بيدها، وهي الوحيدة المتحكمة في اتخاذ قرار الحرب أو عدمه».[2]

وبذلك اعتبر منظرو «الواقعيّة السياسيّة» المحدَثَة أنَّ مفهوم القوة يؤدي دورًا هامًّا في العلاقات الدولية وفي الحفاظ على هيبة الدولة، وهو ما سبق أن ذهب إليه (مورغنثاو - Morgenthau) الذي حاجَّ بأنَّ السياسة الدولية ما هي إلا صراعٌ من أجل السلطة. وقد ذهب شطرٌ كبيرٌ من الدراسات الحديثة في العلاقات الدولية، وخاصة في الأكاديميا الغربية، إلى رسم تصور تبريري لمنطق القوة انطلاقًا من فكرة أنَّ الحياد وخلق أسـس معيارية سياسية ثابتة نزوحٌ باتجاه مفاهيم مثالية مجردة مثـل مفهوم "الأخـلاق". وأتى (جوناثان ليدر ماينـارد - Jonathan Leader Maynard) بطرحٍ عكس المرجوّ من تلك الفكرة، حيث يوضح وجود بعض «الظروف العامة الأساسية للسياسة»،

1 - John J. Mearsheimer: «The false promise of international institutions.» In International organization, pp. 237-282.

2 - Martin Griffiths; Steven C. Roach, and M. Scott Solomon: "Fifty Key Thinkers In International Relations Second Edition", p60.

مثل الاختلاف، والسلطة، والقسر المشروع؛ وبما أنَّ هذه الظروف تُعدُّ جزءًا من السياسة، فلابد أن تأخذ القيم السياسية هذه الظروف باعتبارها سمات ثابتة للمجال السياسي لكي تكون القيمة ذات طابع سياسي ولا ترتد إلى مفاهيم مثالية ميتافيزيقية كما أسلفنا[1]. يقدم هذا التصور «الواقعيّة السياسـيّة» باعتبارها نشاطًا إنسانيًّا يتسم بالسيرورة، أيٍّ يحمل سِماتٍ ثابتةً أو مجردةً. يأخذ هذا الطـرح منحنى أكثر حدة عندما يُقِّر بأنَّ درجة وشـكل الاختلاف وشـكله، والسـلطة، أو القسر المشروع «المطلوبين» في المجال السياسي غير محددين بدرجة عالية.

حاولـت تلك النظرية إذن الانتقـال من التصورات المجردة كالأخلاق والقيم الإنسـانية إلى دلالات معيارية متغيرة لا يمكن تعيينها تمامًا مثل القوة والصراع والقسر والعنف باعتبارها وسائل مشروعة للهيمنة والسلطة.

٣ - مُنطَلَقَاتُ «الوَاقِعِيَّة السّيَاسِيَّة»

أ - المُنطَلَقُ الدّينِيُّ

تُعتبر العقيدة البروتسـتانتية من إحدى ركائز ومحددات الفكر الواقعيِّ في المجال السياسي، إذ رسـخت مفهوم المصلحة الماديّة وأسهمت في جعلها الغاية الأسمى. ووفقها يتجلى التديُّن القويم عبر تحقيق النجاح الدنيوي، كما أنَّ الحياة الأُخرويَّة امتدادٌ للحاضر، ولذا، ترتبط مسألة الإيمـان بالعمل. لا يُثَّمن الإيمان مالم يصحبه النجاح في الأعمال الدنيويّة. وبالتالي رَسـخَّت البروتسـتانتية في الوعـي والثقافة الغربية، وعلى الأخص الأمريكيـة، كلَّ ما يتعلق بقيم النجاح المادي المقترن بالمنظومة الرأسـمالية القائمة على تحقيق الربح وتعظيم شؤون القوة للوصول إلى النجاح والريادة على المستوى الشخصيِّ، وعلى الصعيد الدولي والسياسي.

ب - المُنطَلَقُ الفَلسَفِيُّ

كان لظهـور الفلسـفة البراجماتية أو النفعيّـة دورٌ مهمٌ، القائمة على تحقيـق المنفعة والمصلحة؛ والتي تستند على الواقعيَّة في نزعتها العمليَّة وتعظيمها للمصلحة الماديَّة؛ في تدعيم عناصر «الواقعيّة السياسيّة» بحُجج وبراهين ومبادئ، إذ تعتبر «البراجماتية الأمريكية» امتدادًا لـ«الليبرالية الإنجليزيّة»،

1 - Jonathan Leader Maynard: «Political realism as methods not metaethics.» Ethical Theory and Moral Practice 25, no. 3, p445.

والتي استقرّت منذ أواخر القرن الثامن عشر، وأخذت تنمو في المُدن والمراكز التجاريّة والصناعيّة الإنجليزيّة، حيث تطوّرت لدى عدد من الفلاسفة، مثل (جون لوك - John Locke)، و(ديفيد هيوم - David Hume) إلى فلسفة واقعية ماديّة، وذلك خلافًا للفلسفات القاريّة، الفرنسيّة والألمانية خاصّة، التي وُصفت بالمثاليّة والرومانسيّة. ومن ثمَّ فإنَّ «الواقعيّة السياسيّة» المعاصرة تمتد بجذورها التاريخية إلي قلب المشروع الليبرالي الأوربي. كما دَعَّمت الداروينيّة الاجتماعيّة مفاهيم الصراع والتنافس والقوة في الثقافة السياسيّة الغربية والأمريكية. وتعدّ نظرية التطور البيولوجي، وما تقرره من مفاهيم النشوء والارتقاء والبقاء للأصلح؛ الإطار المرجعي للفلسفة الأمريكيّة، ولا سيّما البراجماتيّة[1].

ج - المُنطَلَقُ السّيَاسِيُّ

يتشكك أنصار «الواقعيّة السياسيّة» حيال وجود مبادئ أخلاقية عالمية، ولذلك ينتهجون المسار النفعي لمصلحة الذات ودحض فكرة التضحية بمصالحهم الذاتية من أجل الالتزام بمفهوم غامض لـ «السلوك الأخلاقي». ووفقا لهم أيضا تُعد الدولة الفاعل الرئيسي في السياسة الدولية والسيادة هي السمة التي تميزها. كما أنَّ الحاجة للبقاء تتطلب من قادة الدول الابتعاد عن المفاهيم التقليدية للأخلاق. فكما وضح (مكيافيللي) بأنَّ هذه المبادئ تضر بالدولة، ومن الضروري أن يتعلم قادة الدول نوعًا مختلفًا من الأخلاق، الذي يتوافق مع الضرورة السياسية، وليس مع الفضائل المسيحية التقليدية التي وصفها (نيتشه) بأنها «أخلاق عبيد». لذلك، تَعتبر النظرية أنَّ قوة الدولة وسيطرتها بأي وسيلة ممكنة شرطٌ ضروري لتحقيق النفع لمواطني هذه الدولة. ويؤيد الواقعيون السياسيون في هذا الصدد أنَّ سلطة الردع هي دائمًا الخيار الأفضل، ومن ثمَّ، فالحرب دائمًا ممكنة لأن لا شيء أخلاقي يمكن أن يمنع الدولة من استخدام القوة ضد دول أخرى، لأنَّ المصلحة هي التي تقود مسار السياسة الدولية.

إن «الحق في البقاء Survival»، مهما كانت التجاوزات في حق الآخرين، هو الأصل الدارويني المؤسِّس والمفسِّر في الآن نفسه لممارسات الإمبريالية العالمية ضد شعوب العالم. ولأجل هذا الحق الذي يبدو في تجلياته المباشرة نهجًا بربريًّا بامتياز يمارس فعاليته عبر وسائل كثيرة جدًا بدءًا من السلاح وحتى ميكروفون الإعلام وهذا ما سنتناوله في المحور الثاني.

---

١ - هبة العكيلي: تأثير النظريّة الواقعيّة في السياسة الخارجيّة الأمريكيّة، (دراسة حالة) السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الأزمة السوريّة. رسالة ماجستير منشورة، كلية الآداب- جامعة الشرق الأوسط، ص.ص. ٣٣-٣٨.

ثانيًا: «الإطَارُ التَّطبيقي»: التَّوظيفُ الإِعلَامِي لِمَعرَكَةِ طُوفَانِ الأَقصَى.. نمَاذِجٌ مُختَارَةٌ.

١ - الدَّورُ الوَظِيفِيُّ لِلإِعلَامِ الزَّائِف

برز الإعلام بوصفه جهةً فاعلةً عالمية في العلاقات الدولية مُنذ الحرب العالمية الثانية، ودوره المركزي في توجيه الجماهير والتأثير على الشعوب. وقد أسفرت الابتكارات في تكنولوجيا الاتصال، منذ الثمانينيات بعد الحرب الباردة، عن ظهور الأقمار الصناعية وقنوات التلفزيون المدفوعة التي أَدخلت العالم إلى قلب الأحداث حتى وإن كانت بعيدةً، وخاصةً مع البثّ المباشر ووسائل التواصل الاجتماعي وما تتضمنه من آليات حشد وتعبئة. وما يؤكد على ذلك أنَّ العديدَ من المسؤولين الكبار أقروا بتأثير التغطية التلفزيونية على صنع السياسات. على سبيل المثال، كتب وزير الخارجية الأمريكي الأسبق (جيمس بيكر الثالث - James Addison Baker III) في مذكراته (١٩٩٥): «في العراق والبوسنة والصومال ورواندا والشيشان، من بين دول أخرى، أدت التغطية الفورية للصراع من قِبل وسائل الإعلام الإلكترونية إلى خلق دافع جديد قوي للعمل السريع لم يكن موجودًا في الأوقات الأقل اضطرابًا». كما أشار وزيرا الخارجية البريطانيان السابقان، (دوغلاس هيرد - Douglas Hurd)، و(ديفيد أوين - David Owen)، إلى ملاحظات مماثلة. وفي تعليقه على دور «إذاعة CNN»، ذكر الأمين العام السابق للأمم المتحدة (بطرس بطرس غالي): «إنَّها العضو السادس عشر في مجلس الأمن». ووصفها (كولن باول - Colin Powell)[1]، فقال: إن «تغطيتها التلفزيونية المباشرة لا تغير السياسة، لكنها تخلق البيئة التي تُصنع فيها السياسة». كما اعترف (أنتوني ليك - Anthony Lake)، الأكاديمي والمستشار الأمني الأول لـ(بيل كلينتون - Bill Clinton)، بأنَّ الضغط العام، الذي تحفزه صور الإعلام، أصبح يؤدي دورًا تتزايد أهميته من جهة اتخاذ القرارات بشأن الأزمات الإنسانية، لكنه أضاف عوامل أخرى مثل التكلفة والإمكانية تتحلى بنفس القدر من الأهمية[2]. وبالاستناد إلى ما سبق، تفترض الدراسة أنَّ الأداء الإعلام العربي والعالمي، مُمَثَّلَا في الخطاب والممارسة، يتحدد توجههما ليعكس نطاق الآراء الموجودة داخل الفاعلين الرئيسيين على الساحة الدولية.

---

١ - (كولن بأول) هو وزيرَ الخارجية الأمريكيَ الخامسُ والستين، في عهد (جورج دبليو بوش) من عام ٢٠٠١ إلى عام ٢٠٠٥، وهو أول أمريكي أفريقي يشغل هذا المنصب.

2 - Eytan Gilboa: «The CNN effect: The search for a communication theory of international relations.» Political communication 22, no. 1, p28.

٢ - مُستَوَيَاتُ مُمَارَسَة «الوَاقِعيَّة السّيَاسِيَّة»

لم يكن من قبيل المُصادفة أن نجد مبادئ «الواقعيّة السياسيّة» تؤطر الخطاب الإعلامي العربي أثناء معركة طوفان الأقصى، بل سبق هذا التأطيرَ الإعلامي تمهيدٌ من مستوياتٍ ثلاثة، وصولاً إلى القاعدة العريضة من الجمهور العربي، وهي:

أ - المُستَوَى الأَكَادِيميُّ

تَضمَّن هذا المستوى «الواقعيّة السياسيّة» الغربية باعتبارها جزءًا من دراسات ومناهج الأكاديميا ومراكز الأبحاث، والمؤتمرات، والسيمينارات، وكذلك الممارسة السياسية بالمعنى العام، في مقابل إغفالٍ "مُتعمَّدٍ"، لدراسة القضية الفلسطينية بوصفها قضية احتلال، خاصةً في دراسات ما بعد الكولونيالية.

وفي الشرق الأوسط، مُهد لهذا المسار سياسيًّا من خلال اتفاقيات السلام، فابتدأ تكوين التحالفات والاتفاقات بعد التحولات الكونية في فترة ما بعد الحرب الباردة. ويتمثل أبرز تطبيق للنظرية «الواقعيّة السياسيّة» في اتفاقيات السلام بين البلدان العربية والجانب «الإسرائيلي» مثل: «(اتفاقية كامب ديفيد) ١٩٧٨، وملاحق (معاهدة السلام المصرية-«الإسرائيلية») ١٩٧٩، و(عملية السلام في الشرق الأوسط) ١٩٩١، و(إعلان المبادئ الفلسطيني-«الإسرائيلي») (أوسلو) ١٩٩٤، و'معاهدة وادي عربة' ١٩٩٤، و(إعلان شرم الشيخ لصناع السلام) ١٩٩٦»، حيث ينظر «الواقعيون» إلى تلك الاتفاقيات على أنها نابعة من مصالح قومية للدول، لم تتولد عن ضغط وتحالفات قوى عالمية، بقدر التعبير عنها من خلال مبادرات سلام.

ب - الأَكَادِيميَا وَمَرَاكِزُ الأَبحَاث

قدمت الأكاديميا ومراكز الأبحاث -العربية منها والغربية- دعمًا مناسبًا لتوقيع اتفاقيات سلام بين أطراف عربيةٍ و«إسرائيل»، ولكنها شجعت في الوقت نفسه، بعض المثقفين العرب للمضي قُدُمًا نحو التطبيع الثقافي. ولعل «مبادرة كوبنهاجن» ١٩٩٧ كانت أبرز صور هذا النوع من التطبيع، حيث استهدفت تعزيز السلام والتعاون في الشرق الأوسط بعد «اتفاقية أوسلو». وقد شملت عدة جوانب مهمة منها: تعزيز التفاهم والتعاون بين الدول العربية و«اسرائيل» بهدف الوصول إلى سلام شامل، وتحقيق التعاون الاقتصادي، والعمل على تحقيق الاستقرار في المنطقة من خلال تعزيز التعاون الأمني والسياسي، بجانب تسوية النزاعات، وتشجيع التبادل

الثقافي والتفاعل بين الشعوب لتقليل التوتر وتعزيز "الفهم المتبادل"[1].

وعلى الرغم من أنَّ «مبادرة كوبنهاجن» لم تحقق كل الأهداف المرجوة، إلا أنَّها وضعت أُسسًا خطيرة للمفاوضات الثقافية المستقبلية، وأدت إلى تطوير «اتفاقية باريس» في عام ٢٠١٥، وهنا برز المثقفون باعتبارهم متطوعين مدافعين عن الكيان الصهيوني وحقه في الوجود بوصفه «أمرًا واقعًا».

ج - وَسَائِلُ الإِعلَام

يكتمل الضلع الثالث لمثلث (السياسة- الثقافة- الإعلام) بالدور شديد التأثير الذي يُمارسه جزء ليس بقليل من الإعلام العربي والغربي للترسيخ لفكر «الواقعيّة السياسيّة» بمفهومها المعاصر. حيث عُرض هذا الاتجاه عربيًا على نحوٍ موسع في النشرات والبرامج الحوارية والمادة الإعلامية بصفةٍ عامة. وبدأت القنوات الإعلامية العربية في إبراز هذا الخطاب منذ تطبيق «اتفاقية كامب ديفيد» و«معاهدة وادي عربة»، و«اتفاقية أوسلو»، بهدف تحييد المسار الثوري النضالي، واستبداله بمسار السلام مع المحتل كـ«أمر واقع».

سنجد على سبيل المثال، أنَّ البرامج الإخبارية تُقدم تحليلاتٍ قد تكون متأثرة بالفكر الصهيوني، مثل الاعتراف بالحقوق «الإسرائيلية» على حساب حقوق الفلسطينيين. كما تستخدم بعض وسائل الإعلام العربية لغةً أو رموزًا يمكن فهمها على أنَّها تتماشى مع الخطاب الصهيوني، مثل التركيز على السلام والتعايش دون التطرق إلى القضايا الجوهرية، مثل الاحتلال أو حقوق اللاجئين. بجانب تبني بعض وسائل الإعلام العربية مواقف أو تحليلات تشبه تلك التي تتبناها بعض الجهات الغربية التي تُعتبر متعاطفة مع الكيان «الإسرائيلي»، مما يعكس هيمنة خطاب «الواقعيّة السياسيّة»، وتأثيره على كيفية تناول القضايا في الساحة الإعلامية العربية.

---

١ - كان من أبرز المثقفين العرب المشاركين: (لطفي الخولي)، (حسن الحيوان)، (عبد المنعم سعيد)، (علي الشلقاني)، (رمسيس مرزوق)، (مراد وهبة)، (عدنان أبو عودة)، (إحسان شردم)، (مروان دودين)، (تيسير أبو جابر)، (زياد صلاح)، (جورج حواتمة)، (محمد جاد الله)، (جميل حمامي)، (زهيرة كمال)، (جواد الطيبي)، (محمد أبو خضير)، (رياض المالكي)، ... وآخرون. ومن الجانب «الإسرائيلي»: (مكسيم ليفي)، (يهودا لنكري)، (دافيد كمحي)، (مئير شطريت)، (ياعيل دايان)، (شلومو بن عامي)، (ناديا حلو)، (أوري بيرنشتاين)، (عاموس إيلون) ... وغيرهم.

٣ - الوَاقِعيَّةُ السّيَاسِيَّة.. «نمَاذِجٌ مُختَارَةٌ في الإعلَام العَرَبيّ وَالغَربيّ»

بينما تؤدي العلاقات الدولية السياسية، والتحركات الدبلوماسية، والمفكرون، والمثقفون، والأكاديميون دورًا مركزيًّا في التشريع والتأصيل لنظرية «الواقعيَّة السياسيَّة»؛ فإنَّ الإعلام هو الأداة التي بموجبها يتم تنفيذ تلك المهام عبر تهيئة الرأي العام لاستقبال مبادئ وقيم تلك النظرية وتهيئته للتفاعل معها. لذلك، نلقي الضوء على أبرز نقاط هذا الدور على مستوى النشرات الإخبارية، والتغطيات المباشرة، والتقارير الإخبارية المصورة، ونوعية الضيوف، في عينةٍ عشوائيةٍ من أربع محطات إخبارية تم اختيارها وفقًا لمعيارٍ يستند إلى كونها الأكثر انتشارًا وجذبًا للاهتمام فيما يتعلق بشأن الحرب على غزة من خارج محور المقاومة.

أ - فِئَةُ نَشَرَاتِ الأَخبَار

حددت الدراسة مصطلحاتٍ ثلاثة: «دولة 'إسرائيل'/ الكيان المحتل/ الكيان الصهيوني» لوصف الجانب «الإسرائيلي» وذلك بالكشف عن المصطلحات من خلال البحث في أرشيف مواقع المحطات عينة الدراسة:

الفئة	الجزيرة	العربية	MTV اللبنانية	MBC الإخبارية
نشرات الأخبار	المصطلح المستخدم لوصف دولة الاحتلال: "إسرائيل"/ الكيان المتحل/ المحتل الصهيوني.	المصطلح المستخدم لوصف دولة الاحتلال: "إسرائيل" أو دولة "إسرائيل".	المصطلح المستخدم لوصف دولة الاحتلال: "إسرائيل" أو دولة "إسرائيل".	المصطلح المستخدم لوصف دولة الاحتلال: "إسرائيل"

نستنتج مما ورد في الجدول السابق أنَّ الجزيرة تنوعت في استخدام أكثر من مصطلح لوصف دولة الاحتلال، وهو ما يعكس توازن التغطية. أمَّا العربية و MTV اللبنانية وMBC الإخبارية استخدموا مصطلح "إسرائيل" في تغطياتهم الإعلامية. يُقِّر هذا التأطير على تركيز الواقعية على تعديل تصوّر الجمهور حول مصطلح "الكيان" إلى الإقرار بالأمر من خلال استخدام اللغة وإنتاج

قــوة «معيارية» من هذا التلاعب الدلالي في الســياق الإخباري. مما يوضــح كيفية تأثير مبادئ «الواقعيّة السياسيّة» على تشكيل أفكارنا السياسية حول الكيان باعتباره «دولة».

يُوظّف هذا الطرح لتقبل مبدأ أنَّ الدولة هي الفاعل الرئيسي، والبيئة التي تســكنها الدول هي بيئة خطرة. وبما أنَّ اســتخدام القوة الذي يصل إلى الحرب هو أداة مشروعة من أدوات السياسة الدولية، يجب على قادة الدول أن يتصرفوا في مجال السياسة الدولية بحساب الإجراءات الأكثر مناسَبَة التي ينبغي اتخاذها لاستمرار حياة هذه الدولة في بيئة عدائية وتهديدية.

يتفق هذا الاستنتاج مع ما طرحه (فريدريش ميناكي - Friedrich Meinecke)، في مبدأ "بقاء الدولة Reason of State" الذي يُقِرُّ بأنَّ رجل الدّولة عليه السَّعي خلف القوّة للحفاظ على صحة وقوة الدولة، بل وينبغي عليه اتخاذ إجراءاتٍ لاستمرار حياة الدولة في بيئة عدائية وتهديديّة.

ب - فِئَةُ التَّغطِيَةِ المُبَاشِرَةِ

حددت الدراسة مجزرة خان يونس (مواصي)[1] لقياس كيفية تغطية كل محطة بشكل مباشر Live للمجزرة كالتالي:

الفئة	الجزيرة	العربية	MTV اللبنانية	MBC الإخبارية
نشرات الأخبار	نُقلت المجزرة بالتغطية المباشرة. لم يُذكر أعداد القتلى والجرحى على نحو دقيق.	نُقلت المجزرة بالتغطية المباشرة، ولم يُذكر عدد الشهداء أو الجرحى، وتم خلال البث إبراز الرواية "الإسرائيلية" بأنَّ هدف المجزرة استهداف محمد الضيف، كما استُضيفَ مسؤولون من "تل أبيب".	بالرجوع إلى أرشيف القناة لم يُذكر أي خبر عن مجزرة خان يونس.	لم تنقل المحطة الحدث بشكل مباشر.

١ - مجزرة مواصي خان يونس ١٣ يوليو ٢٠٢٤ استهدف «الكيان المحتل» جزءًا من المبنى تحت مبرر وجود (الضيف)، ودمرت المبنى بأكمله ومنعت وصول أي فرق نجدة، حيث قامت الطائرات المسيرة بإطلاق الرصاص والصواريخ على كل من اقترب أو خرج من المكان وألقت ٨ قنابل من طراز JDAM المتطورة الفتاكة أمريكية الصنع الموجهة بالليزر.

نستنتج مما ورد أنَّ «الجزيرة» و«العربية» أبرزتا أهمية الحدث في صورة نقله على الهواء مباشرة دون تحديد دقيق لأعداد الضحايا. ونقلت «العربية» الخبر من منظور الجانب الصهيوني. ولم تتعامل «MTV اللبنانية» أو «MBC الإخبارية» مع الحدث بتغطية مباشرة، مما يدل على مؤشر ترتيب أهمية الخبر بما يتوافق مع سياسة كل محطة. هذا التأطير الإعلامي من خلال التغطية المباشرة أو اللاحقة يعكس درجة أهمية الحدث.

يرتبط هذا التقديم والتأخير في توقيت تغطية المجزرة بالمبادئ الأساسية لتطبيق نظرية «الواقعيّة السياسيّة»؛ إذ يعكس سياسات كل محطة، ومعيار الأهميَّة المُحدِّد لكل حدث. وهو ما يُرسّخ فكرةَ أنَّ السياسة صراعٌ مستمرٌ من أجلِ القوة، حتى على الشاشات. وما يظهر على الشاشة يعكس حالة السياسة الدولية وحالة الحرب، حيث لا خيار أمام الفاعلين السياسيين سوى الاهتمام بأمنهم الخاص، وتطبيق فلسفة "بلدي أولاً"؛ وإبراز الأحداث بحسب أولوية جدول أعمال كل محطة تحت دعوى ما يسمى "المصلحة الوطنية"، وتمرير فكرة أنَّ حالة الحرب والصراع تقتضي منهم اتخاذ التدابير المناسبة تحقيقًا لمصلحتهم الذاتية.

ج - فِئَةُ التَّقَارِيرِ الإِخبَارِيَّة

حددت الدراسة التقارير التي غطت حادثة «القرض الحسن»[1] في البقاع:

الفئة	الجزيرة	العربية	MTV اللبنانية	MBC الإخبارية
نشرات الأخبار	ذُكرت الحادثة في تقرير مصور، بُثَّ بتاريخ ٢٣ أكتوبر ٢٠٢٤ وأبان الدمار الذي خلفه الاستهداف من خلال مراسلة المحطة في موقع الاستهداف.	ذُكرت الحادثة في تقرير مصور، بُثَّ بتاريخ ٣٠ سبتمبر ٢٠٢٤. ذكر التقرير ظهور كميات كبيرة من الذهب تحت أنقاض المؤسسة.	ذكر التقرير أن الجمعية تعمل بشكل مباشر لدعم حزب الله اقتصاديًا، وأنَّ المقر يأوي عددًا من أعضائه، وذلك قبل يومين من الاستهداف الصهيوني لمقر الجمعية.	لم تبث المحطة أي تقرير عن الحدث.

١ - ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٤: استهداف الكيان الصهيوني لـ «مؤسسة القرض الحسن».

نستنتج مما ورد في الجدول أنَّ تقرير «الجزيرة» جاء متأخرًا زمنيًا عن توقيت حدوث الهجوم. وذكر تقرير «العربية» معلومات بشأن ظهور كميات كبيرة من الذهب، ولم يبرهن التقرير بالأدلة عن تلك المعلومات. بينما ادَّعى تقرير خاص «MTV اللبنانية» قبل الهجوم عن معلومات بوجود أعضاء من حزب الله داخل المؤسسة المستهدفة مما أثار جدلاً واسعًا حول التقرير بعد الاستهداف. ولم تُغطِّ «MBC الإخبارية» الحدث بأي تقارير.

بالتالي، هناك عدم مراعاة للمصداقية في التقارير الإخبارية بذكر بيانات أو أدلة واضحة بشأن الحادث، وهي معالجة قوامها مبدأ القوة والمصلحة الذاتية فقط، دون أيّ اعتبار للمبادئ المهنية الإعلامية. فالحقائق لا تتحدث عن نفسها، بل لا بد من وسيط إعلامي للكشف عنها وإبرازها، مما يكشف عن أنَّ تأثير مثل هذه المعالجات الإعلامية يتجاوز الحدود الوطنية، ويبدد المصداقية الإعلامية بشكل عام، ويتسبب في إنتاج أشكال جديدة من معايير «الواقعيّة السياسيّة» تُمكن «الكيان» من حيازة الهيمنة الإقليمية.

د - فِئَةُ نَوعِيَّة الضُّيُوفِ

ركزت الدراسة على الضيوف الرائجين من خلال تداول تصريحاتهم على محرك البحث الخاص بكل موقع، الذين يمكن إدراجهم في ثلاثِ فئات: السياسيون أصحاب السلطة، والكُتاب والمحللون السياسيون، والخبراء والمحللونَ العسكريون «الإسرائيليون».

نوعية الضيوف	الجزيرة	العربية	MTV اللبنانية	MBC الإخبارية
سياسيون من أصحاب السلطة	محمود عباس أحمد أبو الغيط أحمد مجدلاني	محمود عباس أحمد أبو الغيط أحمد مجدلاني	أحمد أبو الغيط أحمد مجدلاني	محمود عباس أحمد أبو الغيط أحمد مجدلاني
كُتَّابٌ ومحللون سياسيون	محمد علي الحسيني تركي الحمد	محمد علي الحسيني تركي الحمد	محمد علي الحسيني تركي الحمد	محمد علي الحسيني تركي الحمد

نوعية الضيوف	الجزيرة	العربية	MTV اللبنانية	MBC الإخبارية
خبراء عسكريون ومحللون سياسيون "إسرائيليون"	أفيخاي أدرعي إيدي كوهين عاموس يادلين	أفيخاي أدرعي إيدي كوهين عاموس يادلين	أفيخاي أدرعي إيدي كوهين عاموس يادلين	أفيخاي أدرعي إيدي كوهين عاموس يادلين

ومما سبق نَخلُص إلى الآتي:

- السياسيون أصحاب السلطة: تنشر محطات الجزيرة والعربية تصريحات (محمود عباس)[1] بانتظام، وتقل لقاءاته على «MBC الإخبارية»، و «MTV اللبنانية». ويلزم الانتباه إلى أنَّ طرحه يرتكز على «منظور واقعي» من خلال الإشارة إلى أهمية المفاوضات بوصفها سبيلاً لتحقيق السلام. ويدعو إلى ضرورة إنهاء التصعيد والعودة إلى طاولة المفاوضات، بجانب استئناف العلاقات مع «إسرائيل» وهو سعيٌ يتضافر مع رؤيته المتفائلة بشأن السلام. كما تظهر تصريحات (أحمد أبو الغيط)[2]على «الجزيرة والعربية» بشكل متقطع وتقل لقاءاته على «MBC الإخبارية» و«MTV اللبنانية». يرتكز طرحه إلى ضرورة الالتزام بالحلول السياسية والتخلي عن العنف. وتظهر آراء (أحمد المجدلاني)[3] على «الجزيرة والعربية» بشكل متقطع، ولم تُجرِ «MBC الإخبارية» و«MTV اللبنانية» أي مقابلات معه خلال «طوفان الأقصى». يرتكز طرحه على «المنظور الواقعي»، في توجيه الدعوة لحماس لتبني نهجٍ سلمي بدلاً من نهجها العسكري.
- كُتَّاب ومحللون سياسيون: تظهر تصريحات ولقاءات (محمد علي الحسيني)[4] بانتظام

١ - رئيس السلطة الفلسطينية.
٢ - الأمين العام لجامعة الدول العربية.
٣ - الأمين العام لجبهة النضال الشعبي الفلسطيني وعضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.
٤ - معمم لبناني يحمل الجنسية السعودية، مدان بتهمة العمالة للكيان الصهيوني وتم سجنه لأربعة أعوام بحكم المحكمة العسكرية اللبنانية، وهو ضيف دائم على القنوات الخليجية يسمي نفسه أمينًا عامًا لكيان وهمي يسميه "المجلس الإسلامي العربي في لبنان».

على «قناة العربيــة»، وحضوره قليل على باقي القنــوات. يرتكز طرحه على «المنظور الواقعي» بشكل عام، موجهًا الإدانة إلى حركة حماس على الدوام، ويحملها مسؤولية «تدمير غــزة»، ويصف «طوفان الأقــصى» بأنها معركة غير مدروســة، ويهاجم حزب الله ويحملهم مســؤولية العدوان «الإسرائيلي» عــلى الأراضي اللبنانية. ويظهر (تركي الحمد)[١] على «MBC الإخبارية» و«العربية» بشــكل متكرر، على العكس من ظهوره على «الجزيرة» و«MTV اللبنانيــة». يرتكز طرحه على «المنظور الواقعي» حيث يرى «إسرائيل» واقعًا حقيقيًّا على الأرض. وأنَّ القوة الأمريكية لا تُضاهَى من حيث القدرات العسكرية. وتتمتع الأخيرة بالهيمنة على المجالات العامة، مثل الثقافة والنخبة.

- خبراء عسكريون ومحللون سياسيون «إسرائيليون»: يظهر (أفيخاي أدرعي - Avichay Adraee)[٢] على قناتيِّ «الجزيرة» و«العربية» بشكلٍ متكررٍ، وظهوره قليل على «MBC الإخبارية» و«MTV اللبنانية». يرتكز طرحه على «المنظور الواقعي»، بالاستناد على مبدأ البقاء، إذ يُقرّ بحق «إسرائيل» في الدفاع عن وجودها، ويقدم تبريرات حول سعيها إلى القوة اللازمة لضمان بقائها. يظهر (إيدي كوهين - Edy Cohen)[٣] على «الجزيرة» و«العربية» و«MBC الإخبارية» بشكل متقطع، وظهوره قليل على «MTV اللبنانية». يرتكز طرحه عــلى «منظور واقعي» يتمثل في مهاجمة المشــتبه بهم في تهديد وجود الدولــة «الإسرائيلية». ويظهر (عاموس يادلــين - Amos Yadlin)[٤] على المحطات العربية بشكل متقطع بوجه عام، وجدير بالذكر ارتكاز طرحه على مبدأ مساعدة الذات، حيث يجب على الدول في النهاية الاعتماد على نفسها لتحقيق الأمن.

٤ - الوَاقِعِيَّةُ السِيَاسِيَّةُ فِي الخِطَابِ الإِعلَامِيّ الغَربِيّ

أدت «النظرية الواقعية» دورًا واضحًا في ترسيخ انحياز التغطية الإعلامية الغربية للحرب على

١ - محلل سياسي وأستاذ جامعي ومفكر سعودي. من رموز الفكر الليبراليِّ في السعودية.
٢ - المتحدث باسم الجيش «الإسرائيلي» للإعلام العربي.
٣ - أستاذ في جامعة "بار إيلان"، وباحث في مركز «بيغن-السادات للدراسات الاستراتيجية».
٤ - قائد استخباراتي سابق.

غزة كالسياسات الإعلامية المتبعة في الميل باتجاه السردية الصهيونيّة، بما يؤثر على إرشادات التحرير وتوجيه المراسلين وإعداد تقارير تفتقد إلى المهنية والعمق، وتتجاهل الأصول التاريخية والمسار النضالي للشعب الفلسطيني بما يؤدي إلى توجيه الرأي العام العالمي وبناء جدار عازل بين الوعي الحقيقي والمواطن الغربي. كما أسهم الإعلام الغربي في تشويه صورة الفلسطينيين، بما يعني شراكته فيما حدث لهم من مجازر نظرًا لأنَّه تبني المظلومية الصهيونيّة، وهذا ما فعلته بعض وكالات الأنباء الغربية، ومثال ذلك ما نقلته وسائل الإعلام الأوروبية عن قناة (٢٤ الإسرائيلية)» من وجود جثث أربعين رضيعًا برؤوس مقطوعة في إحدى مستوطنات غلاف غزة على أيدى عناصر من حماس، وقد ظلت هذه الأكذوبة تروج في الإعلام الغربي لفترة طويلة وخاصة بعدما كتبت «التايمز The Times» في صدر صفحتها الأولي: «حماس تذبح حناجر الرضع»، مما أكد على الانطباع السيء عن الفلسطينيين لدى المواطن الأوروبي بعد انتشار هذا الخبر في كل أرجاء المعمورة.

هذا بالإضافة إلى أنَّ الصحف الأمريكية كانت صاحبة التوجه نحو مقارنة أحداث طوفان الأقصى في ٧ أكتوبر بـ«أحداث ١١ سبتمبر»، وهو ما انعكس بالطبع عن تضخم حالة الوعي الزائف عند المواطن الأمريكي. كما تعمدت وكالة «أسوشيتد برس الأمريكية AP" بإخفاء تهديدات قادة الكيان الصهيوني بإبادة غزة من الوجود؛ وهو سلوك غير مهني بأي صورة من الصور. كما قامت شبكة «بي بي سي» بتعليق عمل الإعلامية اللبنانية (ندا عبد الصمد) بعد ٢٩ عامًا من العمل معها بسبب موقفها من القضية الفلسطينية. وفصلت صحيفة «الجارديان» رسام الكاريكاتير (ستييف بيل - Steve Bell) بعد عمله معها أربعين عامًا بسبب رسمة اعتُبرت مسيئة لرئيس الوزراء «الإسرائيلي»! ونتيجة ضغوط أمريكية و«إسرائيلية»، أوقفت صحيفة «إم اس إن بي سي» ثلاثة من أبرز مذيعيها منذ بدء العدوان علي غزة، وهم: (مهدي حسن) و(أيمن محيي الدين) و(علي فيلشي)، خوفًا من انحيازهم للشعب الفلسطيني.

كما يظهر التلاعب اللغوي في صياغة عناوين التقارير والتغطيات الصحفية في جريدة «نيويورك تايمز» أثناء تغطيتها لطوفان الأقصى باستخدام أسلوب المبني للمجهول، وعلى العكس منه نجد صياغة العناوين في تغطية الصراع الروسي- الأوكراني على شكل المبني للمعلوم، وذِكْر مصدر

الهجوم (روسيا) بكل وضوح. فنجد العناوين تُصاغ كالآتي:

في الصراع الـروسي- الأوكـراني: Russia Pounds Ukraine With 'One of the Largest Strikes' of the War في صياغة مبنية للمعلوم[1].

وفي الـصراع الفسـطيني- الإسرائيـلي: Explosion Gazans Say Was Airstrike Leaves Many Casualties in Dense Neighborhood نجـد أنَّ صياغة العنوان مبنية للمجهول لعدم إظهار الفاعل[2].

خَاتِمَةٌ

تقدم «الواقعيّة السياسـيّة» التفسير النفعي لحالة الحرب التي تعد الشرط المعتاد للحياة في النظام الدولي. وأدت منطلقاتها ومبادئها الأساسية دورًا في نهج الإعلام الغربي ومعه جزء كبير من الإعلام العربي. وهو نهج اختزال الصراع في ثنائية "إسرائيل» وحماس كما فعلت محطات عربية عدة مثل «الجزيرة» و«العربية» ومحطة «MTV" ومحطة «MBC الإخبارية». ومحطات غربية عدة منها «MSNBC» ،"CNN"، و«فوكس نيوز»، وكذلك صحف مثل «نيويورك تايمز» و«واشنطن بوسـت» و«لوس أنجلس تايمز». الذين انحازوا بالطبع للجانب «الإسرائيلي» في تحقيقاتهـم. بما يخالف بشـكل صريح المهنيـة الصحفية، والانحياز تجاه أنصـار «الواقعيّة السياسيّة».

تؤدي الاسـتضافة الإعلامية في المحطات العربية لشخصيات تتبنى الطرح الواقعي، وأقصد على الأخص العسكريين والمحللين "الإسرائيليين"، إلى توظيفها باعتبارها «رئةً» إضافيةً للكيان، وبوقًا متاحًا لتيارات الصهيونيّة، مما يسـمح لتلك التيارات بالتوغل في ذهنية الجمهور العربي. كما يساهم هذا الخطاب في تمرير رسائل التفوق والسيطرة وفارق القوة، بالإضافة إلى "شيطنة" المسار الثوري والتيار المقاوم بهدف إخماده والقضاء عليه.

بالاستناد إلى ما سـبق، يتكشَّف لنا أنَّ مشروع الاسـتيطان الصهيوني يضع المنظومة القيمية

1 - <https://www.nytimes.com/2024/08/26/world/europe/russia-ukraine-missiles-kyiv.html>

2 - <https://www.nytimes.com/2023/11/05/world/middleeast/gaza-explosion-al-maghazi-camp.html>

الإنســانية في حرج، لأنَّ أصحابَ الحضارة التي صنعت تلك المنظومة هم أنفســهم الداعمون لمشروع الاحتلال الصهيوني من أجل فرض كيان استيطاني يقوم على أسس دينية تُخالِف بشكل صريح المبادئ العلمانية التي أسسوها، وتُشــوِّه مفهوم الدولة الحديثة ومفهوم الأمة الحديث؛ تلك المفاهيم التي هي نتاج الحضارة التي تقف الآن مع من يشوِّه منتجها الإنساني.

لَائِحَةُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِعِ

بِاللُّغَةِ العَرَبِيَّة

- هبة العكيلي: تأثير النظريّة الواقعيّة في السياسة الخارجيّة الأمريكيّة، (دراسة حالة) السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الأزمة السـوريّة. رسالة ماجسـتير منشورة، كلية الآداب- جامعة الشرق الأوسط، ٢٠٢١م.
- علي زياد العلي: المرتكزات النظرية في السياسة الدولية، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٧م.

باللغات الأجنبية

- Baylis, John, Steve Smith, and Patricia Owens, eds. The globalization of world politics: An introduction to international relations. Oxford university press, USA, (2020).
- Garnett, John C. Commonsense and the theory of international politics. SUNY press, (1984).
- Donnelly, Jack. Realism and International Relations. Cambridge University Press, (2000).
- Gilboa, Eytan. "The CNN effect: The search for a communication theory of international relations." Political communication 22, no. 1 (2005): 27- 44.
- Griffiths, Martin, Steven C. Roach, and M. Scott Solomon. "Fifty Key Thinkers In International Relations Second Edition"." (2023).
- Langer, Christian. "The political realism of the Egyptian elite: a comparison between the Teaching for Merikare and Niccolò Machiavelli's Il Principe." Journal of Egyptian History 8, no. 1 (2015): 49- 79.
- Leader Maynard, Jonathan. "Political realism as methods notmetaethics."

Ethical Theory and Moral Practice 25, no. 3 (2022): 449463-.

- Mearsheimer, John J. "The false promise of international institutions." In International organization, pp. 237282-. Routledge, 2017.
- Nelson, Alissa. "Dialogue of Civilizations Research Institute." (2019).
- <https://www.nytimes.com/202426/08//world/europe/russia-ukraine-missiles-kyiv.html>
- <https://www.nytimes.com/202305/11//world/middleeast/gaza-explosion-al-maghazi-camp.html>

جَولَةٌ مَعرِفيَّةٌ لِمَبَاني الاِعتِدَالِ فِي الحَاكِمِيَّةِ الإِسلَامِيَّةِ مِنْ وِجهَةِ نظرِ القُرآنِ والحَدِيثِ[1]

- أ. م. د. محمد شبديني باشاكي[3]
- أ. م. د. مهدي رستم نجادكله[2]
- أ. علي كريمي خوشحال[4]
- ترجمة: الشيخ محمود عمار[5]

ملخّص

إنَّ للمنظومة الحياتية الإسلامية اهتمامًا خاصًّا بمقولة الاعتدال والعدالة البشرية، تأتي العدالة في الثقافة الإسلاميَّة الغنيةِ بمعنى وَضع كل شيء في مكانه، حيثُ يتم تحديد المكان هذا على أساس القابليات والاستحقاقات. ومن خلال الالتفات إلى كَونِ الدين الإسلامي المُبين ينشأ من منبع إلهي دائم، فهو في مجال العمل ليس منحصرًا بقانونَ عملي وأوامر من أجَل كيفية تطبيق الاعتدال، بلَ لديه توجه نحو تبيين المباني والأسس الفكرية والنظرية للاعتدال أيضًا وهو يتصدى لذلك؛ فهو يتصدى لموارد نظير الاعتدال في نظام الوجود، حكيمية خالق الوجود وعدالته، واعتدالية قوانين الدَّين التشريعية. ومن جملة الأمور التي وقعت مورد اهتمام جِدي في الإسلام مسألة الحكومة والحكَّام المسلمين، وتشكيل الحكومة في الإسلام من أجل تطبيق العدالة في المجتمع، فإحراز مسألة الاعتدال إحدى أهم الشروط للحاكم الإسلامي في الإسلام.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الاعتدال، الحاكمية، علم الوجود، نظرية المعرفة، علم الإنسان، علم الاجتماع.

1 - مقالة مترجمة عن: «واكاوي شناختشناسانه مبانى اعتدال در حاكميت اسلامى از ديدگاه قرآن و حديث»، پژوهشهاي انديشه قرآني [معهد الفكر القرآني]، سال اول [السنة الأولى]، شماره اول [العدد الأول]، بهار و تابستان [ربيع وصيف] ١٣٩٤ هـ.ش.

2 - أستاذ مساعد في معهد الإمام الصادق (عليه السلام) لأبحاث العلوم الإسلامية.

3 - أستاذ مساعد في جامعة المصطفى العالمية.

4 - ماجستير في الفقه في معهد الإمام الصادق (عليه السلام) لبحوث العلوم الإسلامية. (الكاتب المسؤول).

5 - مُجاز في اللغة العربية، مُجاز في اللغة الفارسية، طالبٌ في مرحلة بحث الخارج في الحوزة، أستاذٌ في الحوزة العلمية.

مقدِّمة

الإسـلام دين الاعتدال. وهو يطلب من عموم المسـلمين أن يأخذوا بعين الاعتبار هذا الأمر في سلوكهم الاجتماعي والسياسي. وهذا الأمر المهم ليس ضروريًّا للجميع في المجال الفردي فقط، بل يكتسب أهميةً أكبر عندما يقع في المجال الاجتماعي، وتتضاعف ضرورته مع دخوله في مجال السياسة، لأنَّ الحكامَ والولاةَ يحتاجون إلى هذه الفضيلة الأخلاقية والاجتماعية أضعاف ما يحتاجه غيرهم، كي يراعوا هذه الفضيلة في العلاقة مع أرباب المجتمع.

وأمَّا في ما يتعلق بأصل هذا الأمر وبأية آلية يمكن تفعيله فالكلام حوله كثير، والنظريات والأطر التي وضعتها المدراس الفكرية عن الاعتدال فمختلفة، وهذا الاختلاف ناشـئٌ عن نوع نظرتهم إلى المباني النظرية لتلك المدرسة.

لقد دعا الإسـلام النَّاس إلى هذه الفضيلة وقد جعل للسلوك الاعتدالي والوسطي قيمةً عاليةً. ومن هنا فإنَّ الله -سـبحانه- قـد أمر النبي وأوصياءَه أن يتَّبعوا دائمًـا هذا المنهج وهذا الأمر في السلوك الفردي والسياسي والاجتماعي.

قال رسـول الله، صلى الله عليه وآله وسلم: «بالعدل قامت السماوات والأرض»[1]. ومعنى ذلـك وضع كل شيء في مكانه المخصص، ولو حـدث أي اعوجاج صغير عن الاعتدال الذي يجب أن يقوموا به فإنَّه سيكون سببًا للانحراف وعدم النظام في العالم.

ومن الأمور التي أبدى لها الإسلام مورد اهتمام جدي، مسألة الحاكمية وتشكيل الحكومة في الإسـلام من أجل تطبيق العدالة في المجتمع. هذا الأمر يسـتلزم من الحكام المسلمين أيضًا أن يكونوا هم يتمتعون بالعدالة والاعتدال، بل إحدى أهم شروط الحاكم الإسلامي في الإسلام هي

١ - ابن أبي الجمهور: عوالي اللآلئ العزيزية في الأحادي الدينية، ج٤، ص١٠٣، ح١٥١. <https://noo.rs/DIxCT>

إحراز هذا الشرط المهم، أعني العدالة والاعتدال.

فبحسب المنظومة الإسلامية، لو لم يكن المتولي يتمتع بهذا المؤشر فإنه سوف يخسر الصلاحية المطلوبة من أجل تصدّيه لهذه المسؤولية، وبالتالي لن تكون لديه صلاحية الولاية على المسلمين.

وفضلاً عن ما ذكرنا، فإنَّه يجب على الحاكم الإسلامي أن يتمتع بفكرة الاعتدال والوسطية في العلاقة مع الآخرين تمامًا كما يريد الإسلام كي لا يقع في التعاطي مع الناس بالإفراط والتفريط فتضيع عند ذلك حقوق المواطنين في المجتمع الإسلامي.

إنَّ أصولَ هذا السلوك مأخوذة بنحو يقيني من طريقة نظرة الإسلام إلى الوجود ومسألة الحاكمية على المجتمع، والتي استُخرجت بشكلٍ اعتيادي من مصادرها ثم تُطرح اليوم على شكل مبانٍ في كل مذهب فكري. لاشك أنَّ معرفة مباني الاعتدال في الحاكمية من منظور الإسلام هي أمرٌ ضروري مع الالتفات إلى حداثوية هذا المبحث.

ومن هنا كان السؤال المهم هو التالي: "ما هي المباني المعرفية للاعتدال في الحاكمية من منظور القرآن والحديث؟"

وإنَّ أول ضرورة من أجل تبيين النظرة القرآنية والحديثية في هذا الموضوع تتجلى في دراسة المصطلحات المبنائية للاعتدال والحاكمية من المنظور المفهومي.

أَوَّلًا: مَعرِفَةٌ مَفهُومِيَّةٌ

١ - مَفهُومُ «المبَانِي»

المباني في اللغة تأتي بمعنى البنيان وأساس كل شيء وجمعها "مَبانٍ»[1]، والمباني هي تلك الواقعيات الخارجية الموجودة في الطبيعة والإنسان، والتي تكون إمَّا بديهيَّة وإمَّا مُثبتة في علوم أخرى إن لم تكن بديهية، نظير الواقعيات الموجودة في علوم النفس والاجتماع والإنسان وحتى الفيزيائية والحياتية.

كل علم من العلوم البشرية تُبتَنَي فرضياته إمَّا بالبداهة وإمَّا أُثبتت في علومٍ أخرى، وتُسمَّى

١ - علي أكبر دهخدا: قاموس دهخدا، ج١٢، ١٧٧٥٨.

هذه الفرضيات بالمباني لأنها تعتبر أصول الأسس الأخرى[1]. هذه المباني المفاهيمية مأخوذة من المصادر الأصلية لكل علم ومن دون وجود تلك المفاهيم فإنَّ العلم هذا لن يكون علمًا كاملاً. إنَّ المباني هي أساس العلوم وإنَّ الأصول والأهداف لتُعرف على أساس المباني.

٢ - مَفهُومُ «الاعتدَال»

الاعتدال مصدرُ بابَ افتعال من الجذر "ع د ل" وبمعنى الحدّ الوسط ورعاية التناسب في الأمور كمًّا وكيفًا[2].

وعلى الرغم من كون مصطلح الاعتدال لم يرِد بنفسه في القرآن الكريم، فإنَّ كلمات أخرى وردت فيه ولها دلالة على هذا المفهوم، نظير مصطلحات: "قَوَام" [الفرقان: ٦٧]، "وَسَط" [البقرة: ١٤٣]، و"اقْصِد" [لقمان: ١٩]. وقد أشير في القرآن الكريم إلى رعاية الاعتدال في خَلْق الإنسان بطوْرٍ خاص أيضًا "فعدلك" [الانفطار: ٧]، و[الشمس: ٧].

إنَّ المرادَ من الاعتدال في هذه المقالة، هو المعنى الالتزامي للعدالة والذي هو لزوم الوسطية والاستقامة عليها في جميع الأمور لاسيَّما في الحاكمية. إنَّ اتخاذ هذا الإجراء من طرف الحاكم في العلاقة مع الناس بل مع المخالفين أيضًا يؤدي إلى أن تتمتع الحكومة بالثبات اللازم وأن لا يُحرم مواطنو نظام الحاكم أيضًا من حقوقهم المواطنية.

٣ - مَفهُومُ «الحَاكِميَّة»

إنَّ لفظ الحاكم مشتق من لفظ "حكم"، ويأتي مصطلح "حَكَمَ" في كتب اللغة غالبًا بمعنى القضاء. يقول (ابن فارس): «'حكم' الحاء والكاف والميم أصل واحد وهو المنع، وأول ذلك الحكم وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة لأنها تمنعها يقال حكمت الدابة وأحكمتها»[3]. "... ويسمى العلم بالحكمة لأنه يحفظ صاحبه من الجهل والسفه.»[4].

---

١ - مجموعة من الكتّاب، تحت نظر العلاّمة (اليزدي)، فلسفة التعليم والتربية الإسلامية، ص٦٥.
٢ - ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٤٣٣.
٣ - بن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج٢، ص٩٢.
٤ - بن فارس: معجم مقاييس اللغة ج٢، ص٩١.

يقول (الراغب) في مفرداته: «لفظ الحكم في الأصل بمعنى المنع بغرض الإصلاح»[١].

يقول (العلامة الطباطبائي): «الأصل في مادة الحكم بحسب ما يتحصل من موارد استعمالاتها هو المنع، وبذلك سُـمي الحكم المولوي حكمًا لمـا أنّ الأمر يمنع به المأمور عن الإطلاق في الإرادة والعمـل ويُلجمه أن يقع على كل ما تهواه نفسـه، وكذا الحكم بمعنى القضاء يمنع مورد النزاع من أن يتزلزل بالمنازعة والمشاجرة أو يفسد بالتعدي والجور، وكذا الحكم بمعنى التصديق يمنع القضية من تطرُّق الشك إليه، والإحكام والاستحكام يشعران عن حال في الشيء يمنعه من دخول ما يفسـده بين أجزائه أو استيلاء الأمر الأجنبي في داخله، والإحكام يقابل بوجه التفصيل الذي هو جعل الشيء فصلاً فصلاً يبطل بذلك التئام أجزائه وتَوحُّدها.»[٢].

«مادة الحكم تدل على نوع من الإتقان يتلاءم به أجزاء وينسـد به خلله وفرجه فلا يتجزى إلى الأجزاء ولا يتلاشى إلى الأبعاض حتى يضعف أثره وينكسر سَوْرَتُه.»[٣].

وفي اصطـلاح العلم السـياسي: الدولـة وحدةٌ لها أربع عناصر أساسـية الشـعب والأرض والحكومة والحاكمية[٤].

«إنّ الحكومة هي العنصر الأسـاسي للدولة وبها يتم إعمال الحاكمية، والحكومة في الأصل بمعنى إنفاذ الحكم وتأتي أيضًا بمعنى إعمال الحاكمية»[٥].

أ - الهَدَفُ مِنَ الحَاكِمِيَّةِ فِي الإِسلَامِ

تهدف الحاكمية في الإسلام إلى إقرار العدالة والاعتدال في المجتمع الإسلامي. وقد اعتبر الله -تعالى- أنَّ الهدف من بعثة الأنبياء وإنزال القرآن هو تطبيق «العدالة والقسط» في المجتمع: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥]، لقد طُرحت العدالة في هذه الآية وبصراحة تامة بعنوان كونها هدفًا لبعثة الأنبياء[٦].

ومن هنا فقد قُدّم إقرار العدالة بعنوان كونه هدفَ بعثة جميع الأنبياء، وقد تسامى مقام قداسة

١ - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص٢٤٨.
٢ - الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٧، ص٢٥٤.
٣ - الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٧، ص١١٥.
٤ - محمد جواد نوروزي: فلسفة السياسة، ص١١٦.
٥ - الطباطبائي: تفسير الميزان، ج٧، ص١١٩.
٦ - مرتضى مطهري: هدف الحياة، ص١٩.

العدالة إلى درجة أنَّ الأنبياء الإلهيين قد بُعثوا من أجله[١].

ولم تُنسب إقامة العدل إلى الأنبياء في هذه الآية بل يقال بأنَّ على المجتمعات الإنسانية أن تربي نفسها كي تحقق بنفسها القيام بالعدل[٢].

يقول الإمام (الخميني)، رحمه الله، أثناء تبيينه لهدف الإمام علي عليه السلام، من قبوله الحكومة:

«لقد صرَّح الإمام في ما يتعلق بسبب صيرورته حاكمًا وقائدًا وولي الحكومة أنه كان لأجل الأهداف العالية لإقرار الحق وإبطال الباطل... وما دعاني إلى قبول القيادة والحكومة على الناس هو: ‘وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَلَّا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلَا سَغَبِ مَظْلُومٍ’»[٣].

وعلى هذا الأساس كانت الحاكمية من وجهة نظر أمير المؤمنين علي عليه السلام، وسيلة من أجل إقامة الحق «العدالة» وإزهاق الباطل: «... فقال لي ما قيمة هذا النَّعل فقلت لا قيمة لها، فقال عليه السلام، والله لهي أحب إلي من إمرتكم إلا أن أقيم حقًا أو أدفع باطلاً»[٤].

كما أنَّ الأهداف الأخرى للحكومة من وجهة نظر الإمام علي عليه السلام هي:

الحاكمية وسيلة لتدين المجتمع، إجراء الإصلاحات الاجتماعية، توسعة رقعة الدعم للطبقات المتضررة، إقامة الحدود الإلهية، جمع أموال بيت المال، قتال الأعداء، تأمين الأمن في الطرقات.

ومن البديهي أنَّ إجراء «تطبيق» العدالة والاعتدال يكون أمرًا ممكنًا في حال كون الحاكم عادلاً. وفي الآية الخامسة عشرة من سورة الشورى المباركة يُؤمَر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، بالإعلان أنَّه مأمورٌ بإقامة العدالة والاعتدال بين الناس[٥]. بمعنى أن لا يُقَدِّم في الأمور عامةً القوي على الضعيف، ولا الغني على الفقير، ولا الكبير على الصغير، ولا الأبيض على الأسود، ولا العرب على العجم، ولا حتى الهاشمي والقُرشي[٦].

---

١ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج١٦، ص٤٣٠.

٢ - ناصر مكارم الشيرازي: رسالة القرآن، ج٧، ص٢٢.

٣ - السيد الرضى: نهج البلاغة، ج١، ص٤٨، الخطبة ٣، ح٣٨١٥٢٠. <http://noo.rs/rhXgS> & السيد روح الله الخميني: ولاية الفقيه، ص٥٥.

٤ - السيد الرضي: نهج البلاغة، ج١، ص٨٠، ح٣٨١٥٦٧. <http://noo.rs/DBvL٦>

٥ - الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج٩، ص٢٥.

٦ - الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج١٨، ص٣٣.

ب - العَدَالَةُ هِيَ أَهَمُّ خُصُوصِيَّةٍ لِلحَاكِمِ فِي الإِسلَامِ

يعتبر الإسلام أنَّ الحكومة تليق بمن يتمتعون بميزات خاصة؛ ومن أهم خصوصيات الحاكم في الإسلام هي العدالة إلى جانب خصوصيات أخرى نظير التخصُّص والأمانة، والمراد منه هو الاعتدال في الأمور الفردية والاجتماعية. والشخص الذي حصلت لديه هذه المَلَكَة النفسانية يستطيع أن يكون مسلَّطًا على أوضاعه الخاصة، بحيث لا تخدعه الأمور المادية والدنيوية ولا يُبتلى بالتمايلات النفسانية.

يؤكد الإمام علي عليه السلام، أنَّ الحاكم الإسلامي يجب أن يساوي بين الجميع حتى في النظرة وإشارة العين وإلقاء السلام والإشارة كي لا يطمع القوي في ظلم الحاكم ولا ييأس الضعيف من عدالته: «... وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ وَالسَّلَامُ»[1].

هذا النوع من الضوابط والتوصيات يتماشى مع تحقق الهدف الأصلي للحكومة الإسلامية وهو تطبيق العدالة في جميع الأمور. فيجب أن يتَّحلى الحكام الإسلامي بهذه الصفة بحدّها الأعلى كي يستطيع أن يكون مطبقَ العدالة في الحكومة.

يقول الإمام (الخميني) رحمه الله: «على الحاكم أن يكون عادلاً وأن لا يكون ملوَّثًا بالمعاصي، والحاكم إن لم يكن عادلاً فإنَّه لن يكون ذا سلوك عادل في إعطاء حقوق المسلمين وأخذ الأموال وصرفها الصحيح وتنفيذ قانون الجزاء، ومن الممكن أن يسلِّط أعوانَه وأنصارَه ومقربيه على المجتمع وينفق بيت مال المسلمين على أغراضه الشخصية وشهواته»[2].

وما جاء في القرآن بدءًا من التوحيد وصولاً إلى المعاد ومن النبوة إلى الإمامة والزعامة ومن التطلعات الفردية إلى الأهداف الاجتماعية كل ذلك يقوم على محور العدل والاعتدال.

العدل في القرآن، قرين التوحيد وركن المعاد وهدف تشريع النبوة وفلسفة الزعامة والإمامة ومعيار كمال الفرد ومقياس سلامة المجتمع.

عندما يرتبط العدل في القرآن بالتوحيد أو المعاد فإنه يعطي شكلاً خاصًّا لنظرة الإنسان إلى الوجود وإلى خلقته، وبعبارة أخرى، العدل نوع من الرؤية الكونية وعندما يتعلق بالنبوة والتشريع

---

١ - السيد الرضي: نهج البلاغة، ج١، ص٤٢٠، الرسالة٤٦، ح٣٨٢٠٠٣. <http://noo.rs/MGnIC>

٢ - روح الله الخميني: ولاية الفقيه، ص٤٩.

والقانون يكون مقياسًا ومعيارًا للتقنين وبمثابة موطئ قدم للعقل الذي جُعل رديفًا للكتاب والسنّة ويعـدّ جزءًا من مصادر الفقه والاسـتنباط، وعندما يرتبط العدل بالقيـادة والإمامة يكون بمعنى "الاسـتحقاق"، وعندما يتعلـق بالأخلاق فهو المُثُـل والتطلعات الإنسـانية وعندما يتوجه إلى المجتمع فهو "المسؤولية"[1].

وبناءً عليه فإنَّ العدل والاعتدال في القرآن الكريم هو في الوقت عينه رؤية كونية ومعيار معرفة التقنين وملاك اسـتحقاق الزعامة والقيادة وهو القيمة المثالية الإنسانية والمسؤولية الاجتماعية التي يولي بها المسلمون عنايةً خاصةً، ولهم اتجاهها حساسية كبيرة.

ثَانيًا: مَبَاني الاعتدَال

١ - عِلمُ الوُجُودِ

إنَّ طبيعةَ النظرةِ إلى الوجود لهيَ عامل مؤثر في الإدراك الصحيح لموضوع العدالة. فلو اعتبرنا بأنَّ عالم الوجود هو عالمٌ قد نشأ صدفةً فإنَّ العدالة سوف تأخذ لنفسها ماهية اعتبارية ووضعية، ولكـن لو نظرنا إلى عالم الوجود والموجودات فيه بشـكل كونها مجموعـة منظّمة ومقنّنة ومن خلال الالتفات إلى تعريف العدالة (وضع كل شيء في مكانه المناسـب) فيوضع كل شيء في مكانه اللازم والمناسب فستأخذ العدالة والاعتدال ماهيةً حقيقيةً.

وعلى هذا الأسـاس، فإنَّ الأشـياء لها مراتـب وجودية ووضـع كل شيء وكل أمر في مرتبته الخاصـة يوجب ظهور نظم خاص، وكل شيء أو كل أمر يتمتع بالمرتبة الأعلى فله شـأن العِلّية بالنسبة للأشياء الأدنى، ومن هنا فإنَّ وجود هذا النظم في اتّباع النظام «العِلي – المَعلُولي» يخلق نظامًا منظمًّا من الظواهر المترابطة والتي تكون في نهاية الكمال والإتقان[2]. ويلزم من هذا النظم الاعتدال في تمام عالم الوجود.

لاشـك أنَّ هذا الإتقان والنظم والتقنين يكـون ممكنًا في حال كون الخالق واحدًا، ولا يمكن لأي عقل سـليم أن يقبل إمكان وجود نظم كهـذا في عالم الخِلقة من دون خالق واحد. والقرآن

---

١ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج١، ص٦١.

٢ - مرتضى يوسفي راد: «منزلت عدالت در مقام هستى و نظم اجتماعى" [منزلة العدالة في مقام الوجود والنظم الاجتماعي]، ص٦. (بالفارسية)

الكريم يشـير أيضًا إلى هذا الأمر حيث يقول -تعالى-: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَـدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وهـذا يعني أنَّ الله الباري -تعالى- هو مَنشَـأ العدالة والاعتدال لا الطبيعة. وفضلاً عن ذلك؛ فإنَّ هناك آيات أخرى تقدّم أسـاس الخلقة على أسـاس الحق «الملازم للعدل» وتصرح الآياتُ أيضًا أنَّ نظام الوجود والخِلقة يكون على العدل والتوازن وعلى أساس الاستحقاقات والقابليات «الاعتدال». ويذكر -تعالى- في بعض الآيات أيضًا مقام الفاعلية والتدبير الإلهي بعنوان كونه مقام القيام بالعدل: ﴿شَـهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، أو اعتبر العدل هو ميزان الله في أمر الخلقة: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. (وضع الميزان والقانون والاعتدال).

ومن هنا، فقد تم رعاية التعادل في بناء العالم وقد اسـتعمل في كل شيء من كل مادة بمقدار اللازم وأجريت أقيسة المسافات كي لا يتعرض للخراب.

يقول رسـول اللـه ﷺ، في ذيل قراءته للآية التسـعين من سـورة النحـل: "بالعدل قامت السـماوات والأرض»[١]. يعنـي أنَّ الأرض والسـماء أو الوجود بكل عام قد قام على أسـاس العدالـة «الاعتدال». ففي هـذه النظرة يكون العدل والاعتدال أيضًا أسـاس الخِلقة ولا معنى للخِلقـة من دونهـما. وإنّ معنى العدالة في خلقة السـماوات والأرض هو أنَّ كل مخلوق من مخلوقات العالم يقوم بوظيفته التي أعطاه الله إياها على أسـاس التعادل ومن دون أي مقدار مـن الزيـادة والنقيصـة.

الشاهد الآخر على هذا الكلام، هو هذه الآية المباركة: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وللسـبب نفسـه قال الإمـام مولى الموحديـن علي عليه السـلام: «العدل أسـاسٌ بـه قِوام العالم»[٢]. وقال أيضًا: «... وعدَّل حركاتها بالراسـيات من جلاميدها وذوات الشـناخيب الشُّمّ من صياخيدها»[٣].

---

١ - ابن أبي الجمهور: عوالي اللآلئ العزيزية، ج٤، ص١٠٣، ح١٥١. <https://noo.rs/DIxCT>

٢ - محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج٧٥، ص٨٣، ح٢٦٩٢٢١. <http://noo.rs/hC٤cF>

٣ - السيد الرضي: نهج البلاغة، ج١، ص١٢٤، الخطبة٨٦، ح٣٨١٦٥١. <http://noo.rs/oHLEX>

وعلى أســاس كون "القــرآن يفسّر بعضه بعضًا" تفسر آيات أخرى مــن القرآن هذه العدالة في الخِلقة هكذا، فمن باب المثال: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩] و[الحجر: ٢١].

بل حتى في مورد المسائل الاقتصادية للمجتمع الإنساني يقول القرآن الكريم: ﴿**وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ**﴾ [الشورى: ٢٧].

ومن هنا فإنَّ خِلقة عالم الوجود تكون على أساس العدل والاعتدال وقد أعطى الله -سبحانه- لكل موجود ما يحتاج إليه فتعمل موجودات العالم على أســاس هذا التدبير الإلهي «الاعتدال» بوظائفها. وبتعبير آخر إنَّ الحاكمية في عالم الخِلقة تكون على أســاس العدل والاعتدال. ولهذا كان العالم هو النظام الأحســن للخلقة ولا يوجد أي شكل من أشكال التعارض في إنجاز أمور هذا العالم، حيث يدار عالم الخِلقة على أكمل وجه.

وعلى هذا الأساس، فإنَّ النَّظم المجعول في العالم المحسوس وفي الحياة المدنية والسياسية يجــب عليه لزومًا أيضًا أن يتبع النظم الحاكم عــلى عالم الوجود، وكل ما كان على خلاف ذلك فهو يعتبر ظلمًا وتعديًا، وعلى البشر ولاسيَّما الحاكم الإسلامي أن يكونوا كذلك.

العدالة والاعتدال في التشريع: إنَّ العدالة والاعتدال غير كافية في التكوين ومن أجل التناسق في خِلقة العالم. بل إنَّ البشر يحتاجون القوانين التي توصلهم في الأمور الاجتماعية والسياسية إلى العدالــة والاعتدال أيضًا. ولهذا فإنَّ الله الــذي يعرف مقتضيات طبائع البشر ويعرف ما هي القوانين التي توصل العالَم إلى العدالة والاعتدال، وقد أرسل -تعالى- رسله مع كتبهم المحتوية على القوانين كي يصل البشر إلى العدل والاعتدال.

وقد وضّح الله -تعالى- في كتابه أنَّ الهدف من إرســال الرســل هو مسألة العدل والاعتدال. والحــال أنَّ الله -تعالى- من خلال علمه الكافي والمطلق بالوجود والإنســان قد وضع القوانين المطابقة للحكمة والمصالح والســعادة وكمالات الوجود والإنســان، ويجب على المقننين أن يقتدوا به وبقانون الشريعة.

وبشكل ملخّص فإنَّ لازِمَ الحركة باتجاه العدل والاعتدال هو امتلاك قوانين عادلة، والتي بيّنها اللــه في كتابه والتي عرفت بالعدالة والاعتدال في التشريع والتقنين والعدل في التشريع، بمعنى أنَّه يراعى دائمًا في نظام جعل ووضع وتشريع القوانين أصل العدل والاعتدال.

وقد صرَّح في القرآن الكريم أنَّ الحكمة من بعثة وإرسال الرسل هو أن يكون العدل والقسط والاعتدال حاكمًا على النّظام الحياتي البشري [الحديد: ٢٥].

ومـن البديهي أنَّ جَعل أصل العـدل والاعتدال في الأنظمة الاجتماعيـة موقوف أولاً: على أن يكـون النظام التشريعـي والقانون النظامي عادلاً ومتعادلاً، وثانيًـا: أن ينفّذ عمليًا في مرحلة الإجراء. ولهذا فقد ورد على لسـان القرآن: ﴿**قل أمر ربي بالقسط**﴾ [الأعراف: ٢٩]، أو ما جاء حول بعض أوامره: ﴿**ذلكم أقسط عند الله**﴾ [البقرة: ٢٨٢] بمعنى أنَّ هذه الرؤية وهذا المنهج أقرب إلى العدل.

١ - نَظَرِيَّةُ المَعرِفَة

إنَّ الفرضيات التي تبيّن المنهج المعرفي للعدالة تشـير إلى هذه المسألة أنه ماذا يمكن العمل لإدراك العدالة ونقلها إلى الآخرين بشكل «علم»[١].

إنَّ المَباحـث التي تكون من نظير مبدأ إدراك العدالة، أو «عينيَّة» العدالة و«ذهنيتها»، وأنَّه هل للعدالة أصول ثابتة في جميع الأزمنة والأمكنة أم أنها تتبدل مع تغيير شرائط المحيط؟ هذه كلها من جملة الأمور التي تذكر في البحث عن معرفة العدالة[٢].

وكما كنَّا قد ذكرنـا في مبحث الوجود، فإنَّ جماعةً قالوا بالماهيَّـة الحقيقية للعدالة وجماعة اعتبروها صناعة ووضعًا ذهنيًّا من البـشر ويعتبرونها وضعًا اجتماعيًا تم تعيينها بهدف الوصول إلى الوضع المطلوب. ومن الواضح أنَّ قبول أيّ من النظريتين سـوف يكون له آثار، خاصةً في تعيين مصاديق العدالة وكيفية إجرائها.

فلـو اعتبرنا العدالة والاعتدال أمرًا واقعيًّا ووصلنا إلى العالَم الذي له نَظم خاص وإلى خلقته عن طريق الحس والتجربة الذي هو من إحدى الطرق والوسائل المتعددة لكسب المعرفة، وعن طريق العقل والذي يعتبر بدوره إحدى الطرق والوسـائل المتعددة لكسـب المعرفة، لوجدنا أنَّ

---

١ - محمد جواد نوروزى، نظريه سازى در علوم اجتماعى با تاكيد بر نقش پيش فرض و پارادايم، (نظرية في العلوم الاجتماعية مع التأكيـد على دور الفرضيات والنماذج) ص٩٩.

٢ - محمد صادق ترابزاده جهرمي وعليرضا سجاديه، «كيفية معرفة نظريات العدالة المبتنـية على الأبعاد الفلسفية؛ منهج في تبيين ماهية مفهوم العدالة». المجلة العلمية في الاقتصاد والسياسة، ص.ص. ٨٠-٨٢.

وجود هذا النَظم من دون خالق حكيم ومدبر أمرٌ غير ممكن.

فإننا عند ذلك سوف نحصل على هذه المعرفة من قبل الوحي، وأنَّ هذا الخالق الحكيم والمدبّر هو الله -تعالى- ولأنَّه هو العادل والمتصف بصفة العدل فهو يحكم أنَّ ظهور هذه الصفة في عالم خلقته بشكل منظم ومتعادل، حيث وضع كلَّ شيء بشكل حكيم على رأس مكانه الخاص. إنَّ تطبيق العدالة في الخِلقة تكون بمعنى أنَّ هذا القانون الثابت الإلهي لا يُصاب بأيّ انحراف صغير، كي لا يبطل الاعتدال وذلك النَظم الإلهي والرؤية الإلهية.

وعلى هذا الأساس، فإنَّ الاعتقاد بالتوحيد متشابك مع موضوع العدل والعدالة. يقول الإمام (الصادق) عليه السلام: «إنّ أساس الدين التوحيد والعدل»[1]. وهذه المسألة قد صارت محلَّ بحث وإشكال بين المتكلمين المسلمين بتصوّر أنَّ توصيف الله بصفة العدالة نوع تعيين تكليف لله -تعالى-[2].

إنَّ مقتضى هذه العدالة هو أنَّ نهاية هذا العالم نظير بدْأته أيضًا وهو التمتع بالعدالة والاعتدال وأنَّ كل شخص سيحصل على ما يليق به ويستحقه. وعلى هذا الأساس، فإنَّ متكلمي الشيعة يعتقدون أنَّ إحدى الأوصاف الإلهية هي العدل والعدالة إلى جانب التوحيد ويعتقدون بأنَّ الله -تعالى- عادل بمعنى أنَّ الجزاء الإلهي في الآخرة يكون على أساس ميزان ومِلاك العدل والاعتدال، وأنَّ الله -تعالى- يجزي كل فرد ما زرعه في هذه الدنيا[3].

وبما أنَّ المبدأ والمعاد يكونان لعالم الخِلقة على أساس العدل والاعتدال، يجب أن يكون المسير الذي يوصل هذا المبدأ بذاك المعاد أيضًا بنفسه مَظهرًا من مظاهر صفة العدل الإلهي. ولهذا فإن الله -تعالى- أمر النبي والمجتمع الإسلامي في الدنيا أن يقوموا بالعدالة والاعتدال حتى في مورد أنفسهم وأقاربهم لأنَّه على أساس العدالة والاعتدال يكون قِوام المجتمع ويستقر كل شيء في مكانه؛ و﴿**قائمًا بالقسط**﴾ [آل عمران: ١٨] تأتي بهذا المعنى بالدقة.

ومن الضروري أن نذكر هذه المسألة: وهي أنَّ تشخيص مصاديق العدالة والاعتدال يكون على

---

١ - الصدوق: التوحيد، ج١، ص٩٦، باب معنى التوحيد والعدل، ح٣١٠٢١٧. <http://noo.rs/mLOc5>

٢ - العدل مثل العلم والقدرة والحكمة من الصفات الإلهية ولكنه من أصول مذهب التشيع وقد اختص لنفسه مباحث مفصلة من علم الكلام. بعض أصحاب النظر يعتقدون أنَّ للعدل مكانةً مهمةً في أصول عقائد الشيعة، حيث إنَّ الفِرق الإسلامية بناءً على أدلتهم يرون له أهمية حساسة خاصة، وقد اختلفوا في ما يتعلق به كثير اختلاف. (ناصر مكارم الشيرازي: تفسير الأمثل، ج٤، ص.ص. ٤١٨ و٤٩٩).

٣ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج١، ص٨٧.

عهدة العقل ولا تطبق العدالة بشكل صحيح إلا في ظل العقل والعقلانية.

يقول الإمام (الخامنئي) دام ظله:

«لو أردتم تطبيق العدالة بشكل صحيح فأنتم تحتاجون إلى محاسبة عقلانية وإعمال العقل والعلم في المجالات المختلفة كي تفهموا أي شيء يمكن أن يرسّخ العدالة وكي يتوفر الاعتدال الذي نرى أنْ قد بني عليه الأرض والزمان على أساس ذاك الاعتدال الإلهي ومظهره في حياتنا هو العدالة الاجتماعية[1]».

وبناءً عليه، فإنَّ ما هو مسلّم وغير قابل للترديد هو أنَّ معرفة الله بعنوان كونه "الآمر بالعدل" و"الآمر بالحفاظ على العدل والاعتدال" هي أهم معرفة قد بُنيت عليها العلاقة بين البشر والله -تعالى- في الأديان السماوية.

إنَّ العدل «الاعتدال» هو بالمفهوم الاجتماعي هدف النبوة -راجع- [الحديد: ٢٥]، وبالمفهوم الفلسفي أساس المعاد. يقول الله -تعالى- في ما يتعلق بموضوع المعاد والمحاسبة في القيامة وثواب الأعمال وعقابها: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقد ورد في كثير من الآيات القرآنية تنزيه الله -تعالى- عن الظلم -راجع- [التوبة: ٧٠]. بل قد عدّت بعض الآيات العدالة والقيام بالعدل من صفات الله تعالى، وعلى هذا فإنَّ القرآن لم يكتف بتنزيه الله -تعالى- عن الظلم فقط، بل أثبت له بشكل مباشر أيضًا صفة العدالة كما قال: ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨].

وعليه فلاشك من وجهة نظر الإسلام أنّ العدل الإلهي هو بنفسه حقيقة، والعدالة من الصفات التي يجب أن نُؤمن قطعًا بأنَّ الله -تعالى- مُتّصفٌ بها[2].

وفي نهاية المطاف، فإنَّ المقصودَ من كونِ الله عادلاً هو أنَّه -تعالى- لم يهمل أيَّ استحقاق لأيّ موجود في الدنيا وقد أعطى كلَّ أحدٍ كلَ ما يستحقه وهو يجزي ويثيب في الآخرة أيضًا على أساس اللياقة والاستحقاق؛ هذا هو معنى الاعتدال من الناحية المعرفية.

---

١ - خطاب للسيد علي الخامنئي بتاريخ (١٣٨٤/٦/٨ هـ.ش.) - الموقع الرسمي.

٢ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج١، ص٧٣.

٢- عِلمُ الإنسَان

في البحث عن الأصول التي بُني عليها علم الإنسان كلام مفاده: أنّ الإنسان كيف وُجد؟ ما هي كيفية خِلقته؟ هل له فقط بعدٌ جسماني أم فضلاً عن ذلك فهو له أبعاد وجودية أخرى أيضًا؟ هل خُلق عبثًا وسفهًا أم رسمت له غاية وكمال، وجعل له مسير يمشي عليه؟ إن الجواب عن هذه الأسئلة وعن الأسئلة التي من هذا القبيل توضّح الأصول الحاكمة على معرفة الإنسان الاعتدالي وأساليب تطبيقها في المجتمع.

ومع الالتفات إلى معرفتنا للوجود وما يعتبر الإنسان بالنسبة إلى الوجود ونظام الخلقة، فإنَّ نظام العدل والاعتدال الحاكم على كل الوجود لديه سيطرة أيضًا على الإنسان. وعلى أساس النظرة التوحيدية المأخوذة من نوع نظرتنا إلى الوجود فإن الإنسان له بعدان جسماني وروحاني وقد خُلق هذا الإنسان من أجل الوصول إلى الكمال أيضًا.

إنَّ الإنسان في حالة كفاحٍ دائم وهذا السعي هو حركة لا نهاية لها وهي قادرة على إيصال الإنسان إلى الكمال، وقد خُلق من أجل أن يستطيع الوصول إلى الكمال في ساحات الاختبار وهذا هو الهدف الواقعي لله تعالى.

وعلى أساس هذه النظرة فإنَّ هذا البعد الروحاني في الإنسان لديه أصالة، وعلى أساس نظام الاعتدال والعدالة فإنَّ بعده الجسماني ورفع احتياجات هذا البعد في الحكم هو وسيلة كي تضع روح الإنسان قدمها في العالم الأرقى بعد المرور من مرحلة الحياة الدنيا.

عندما لا يكون الهدفُ من الحياة الإنسانية منحصرًا في الأمور المادية، بل تتحقق أمورٌ معنوية وما وراء مادية في حياة الإنسان فإنَّ الحياة سوف تصبح طاهرةً طيبةً.

يقول الإمام (الخامنئي) دام ظله في هذا المجال:

«إنَّ الحياة الطيبة عبارة عن كونها حياة في سبيل الله ومن أجل الوصول إلى الأهداف العالية... والهدف الأعلى للإنسان هو عبارة عن الوصول إلى الحق والوصول إلى قرب الباري -تعالى- والتخلّق بالأخلاق الإلهية[1]».

ولاشك أنَّ نتيجة الوصول إلى الحق والتخلُّق بالأخلاق الإلهية هو التحقُّق الفردي بالعدالة والاعتدال في مجالات ثلاثة: العقيدة والأخلاق والسلوك.

---

١ - خطاب للسيد علي الخامنئي بتاريخ (١٣٧٠/١/٢٩ هـ.ش.) - الموقع الرسمي.

إنَّ العدالــة والاعتدال في مجــال العقيدة يأتيان بمعنى أنَّ الإنســان يثبت معتقدات قلبه على أســاس العدل ويتخلى عن العقائد والأفكار الباطلة، لأنَّ القَبول بها يعد ظلمًا للإنسان. وفضلاً عــن ذلك، فإنَّه يجب القيام بإصلاح الميول القلبية كي لا يكون لديه مجال لمحبة الظالمين في عمق وجوده والتمايل العاطفي معهم.

والاعتدال في المجال الأخلاقي هو اعتدال القُوى الداخلية للإنســان من الشهوية والغضبية والوهمية، والعدالة هي الحد الوسط بين الإفراط والتفريط، يعني تعديل القوة العملية وتهذيبها.

العدالة أو الاعتدال في المجال الســلوكي هي أيضًا بمعنى الابتعاد عن الذنوب الكبيرة وعدم الإصرار على الذنوب الصغيرة، بنحو تكون نتيجة أعمال وســلوك الإنسان عارية من أي نوع من أنواع الظلم والاعتداء.

وفي المجال الذي يُصبح فيه الإنســان هو حاكم المجتمع الإســلامي، فإنَّ القرآن الكريم قد اعتــبر الإمامة والقيادة "عهدًا إلهيًــا" ومقامًا "ضد الظلم" و"توأماً للعــدل والاعتدال". وعندما تحدَّث القرآن عن استحقاق النبي إبراهيم عليه السلام للإمامة والقيادة كان التعبير هكذا: "عندما أنهى إبراهيم جميع اختباراته أبلغوه أننا اخترناك للإمامة والقيادة، فطلب إبراهيم أو استفهم عن استمرار هذه الموهبة الإلهية في نسله فأجابوه بأنَّ الإمامة قيادة وعهد لا يجعلها الله من نصيب الظالمين: ﴿**لَا يَنَالُ عَهدِي الظّالِمِين**﴾ [البقرة: ١٢٤].

هذا الكلام صريحٌ بهذا المعنى، وهو أنَّ الناس المســتحقين للإمامة وقيادة المجتمع هم -من الناحيــة الفردية- من المتّقين وهم بعيدون عن الرذائل، ومن الناحية الاجتماعية هم رموز للعدل والاعتدال في الحياة الاجتماعية، والاتقان في العقيدة يبقيها بعيدة عن الانحرافات.

٣ - عِلمُ الاجتِمَاعِ

إنَّ السؤال الأَســاسي في الاعتدال في الحاكمية في المجتمع، هو أنَّه هل المجتمع له واقعية في الخــارج أم أنَّــه وضعي ومن صنع ذهن البشر؟ ولو كانت له واقعيــة فإنَّ الأصالة مع الفرد أم المجتمع؟

إنَّ الإجابة عن الســؤال الأول تتكفل بها الإجابة عن ســؤالِ أنّ الإنسان هل هو مدني بالطبع أم مــدني بالاضطرار، حيث يتغير الاعتقاد بأي نوع من أنواع الوصول إلى الكمال. الأفراد الذين

يقولون بأنَّ الإنسان مدنيٌّ بالطبع لاشك أنهم يرون التكامل في الحياة الاجتماعية ويعتبرون العدالة «الاعتدال» لازمة لهذا الكمال لأنَّ الرشد والكمال حدٌّ أكثري لا يتحقق إلا في الحياة الاجتماعية العادلة[1].

وقد كتب الأستاذ الشهيد (مرتضى مطهري) حول مفهوم مدنية الإنسان بالطبع:

«الإنسان مدني بالطبع، بمعنى أنَّه قد خُلق بالطبيعة على شاكلة أنَّه لا تصل إمكاناته واستعداداته إلى الفعلية إلا في حياة اجتماعية، وبعبارة أخرى؛ إنَّ الكمالات الموجودة في الإنسان بالقوة ليس لها إمكان الفعلية إلا في الحياة الاجتماعية وليس لها أي تأثير على النباتات والحيوانات والمجتمع، ومن هذا الحَيث تكون مثل قطيع الأبقار البرية ولو كانت محتاجة لبعضها في الحياة الاجتماعية فإنَّ ما لديها بالطبيعة يكون لديها بالفعل وليس عاملاً موصلاً للمجتمع إلى الفعلية من القوة إلى الفعل مثل النملة والنحلة»[2].

كما أنَّ الفردية والجماعية والنوع التركيبي الذي نقول به للمجتمع كله سوف يؤثّر على نوع قرارنا لوضع السياسات في مجال العدالة، لأَسيما العدالة التوزيعية. إنَّ المسألة الرئيسة في صراع العدالة الليبرالية والاشتراكية ترجع إلى هذا الأمر ومفاده أنه هل أصالة الفرد وتعظيم منافع الفرد لهما الأصالة؟ أو تعظيم منافع المجتمع بغض النظر عن الفرد؟ أو الحد الأوسط بين هذين؟[3].

يعتقد الشهيد (مطهري) أنّ:

«النظرية الثالثة هي أنَّه في عين كون المجتمع مركبًا في الواقع، ولكن هذا التركيب يختلف عن بقية التراكيب. ليس صحيحًا أنَّ شخصية الفرد تنعدم بالكلية كما في المركبات الطبيعية حيث لا يكون للعناصر الأولية أي دور، بل في عين كون المجتمع شيئًا مركبًا، فإنَّ العناصر المشكِّلة للمجتمع هي من نوع الشخصيات الحرة والمستقلة، وهذه هي أصالة الفرد في عين أصالة المجتمع وأصالة المجتمع في عين أصالة الفرد، لا أنَّه إما يكون الفرد أصيلاً والمجتمع انتزاعيًا

---

١ - محمد صادق ترابزاده جهرمي وعليرضا سجاديه، "كيفية معرفة نظريات العدالة المبتنية على الأبعاد الفلسفية؛ منهج في تبيين ماهية مفهوم العدالة." المجلة العلمية في الاقتصاد والسياسة، ص٧٩.

٢ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج٧، ص١٢٢.

٣ - محمد صادق ترابزاده جهرمي وعليرضا سجاديه، "كيفية معرفة نظريات العدالة المبتنية على الأبعاد الفلسفية؛ منهج في تبيين ماهية مفهوم العدالة." المجلة العلمية في الاقتصاد والسياسة، ص٧٩.

أو المجتمع أصيل والفرد انتزاعي!"[1].

وقد ذكر في مكان آخر:

«إنَّ القرآن يقول بأنَّ المجتمع له شخصية وبأنَّ المجتمع له عُمر: ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٤]». ويقول أيضًا بأنَّ المجتمع له أمراض وسلامة، سعادة وشقاوة، ويقول بأنَّ المجتمع شريك في المسؤولية[2].

في الجملة؛ إننا عندما نعتبر الإنسان موجودًا مدنيًا بالطبع وكنا من القائلين بأصالة المجتمع إلى جانب أصالة الفرد، فإنَّ إحدى علامات المجتمع الإسلامي «الاعتدالي» سوف تكون «خُلُوَّه» من الظلم والتبعيض واللامساواة، ويمكن للإيمان أن يوصلنا إلى هذه الخصوصية.

يقول القرآن الكريم في بيان الهدف من نبوة ورسالة المرسلين: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ [الحديد: ٢٥]. وعلى هذا الأساس يقول مخاطبًا النبي الأعظم في آية أخرى: ﴿**وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ**﴾ [الشورى: ١٥]. أي أن يكون عندي رؤية عدلية سواء في القضاء والأحكام والحقوق الاجتماعية والمسائل الأخرى[3].

إنَّ العدالة والاعتدال وحدهما يضمنان رفع أنواع النزاعات. ومن هنا فإنَّ الله يأمر بشكل عام بإقامة العدل ويقول: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ**﴾ [النحل: ٩٠].

يقول العلامة (الطباطبائي) رحمه الله:

«لكنَّ ظاهر السياق أنَّ المراد به في الآية العدل الاجتماعي، وهو أن يُعامَل كل من أفراد المجتمع بما يستحقه ويوضع في موضعه الذي ينبغي أن يوضع فيه، وهذا أمرٌ بالتحلّي بخصلة اجتماعية متوجّهٌ إلى آحاد المكلفين، بمعنى أنَّ الله -سبحانه- يأمر كلَّ واحد من أفراد المجتمع أن يأتي بالعدل ولازمه أن يتعلق الأمر بالمجموع أيضًا، فيكلف المجتمع إقامة هذا الحكم وتتقلّده الحكومة بما أنَّها تتولى أمرَ المجتمع وتُدبِّره»[4].

---

١ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج١٥، ص.ص. ١٣٢ و١٣٣.
٢ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج٢١، ص٢١٩.
٣ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير الأمثل، ج٢٠، ص٣٨٧.
٤ - الطباطبائي: تفسير الميزان، ج١٢، ص.ص. ٣٣١-٣٣٢.

وقد جمعت التقـوى في كلام الله -تعالى- حيث قال: ﴿**إنّ الله يَأمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَـان**﴾ [النحـل: ٩٠]، فإنَّ هـذه الآية برنامج عملي كلي وإسـلامي وإحدى موارد القانون الإسـلامي الأساسي ورسالته العالمية هي مورد توجه جميع المسلمين[١].

كما أنَّ العدل والاعتدال مجالهما الوحدة، فإنَّ ديمومة المجتمع المدني والحياة الاجتماعية للإنسـان منوطة برعاية هذا الأمر المهـم في المجتمع، فإن لم يراعَ أصيب المجتمع الإنسـاني بالهرج والمرج وينحطم سرير تجمّعه وتزل قدمه.

يقـول الإمام عـلي عليه السلام في هذا المجـال: «وَإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَـيْنِ الْوُلاَةِ اسْـتِقَامَةُ الْعَدْلِ فِي الْبِلاَدِ.»[٢].

وكذلك يقول: «إن العدل ميزان الله -سـبحانه- الذي وضعه في الخلق، ونصبه لإقامة الحق، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه»[٣].

ويقول: "في العدل الاقتداء بسنة الله وثبات الدول"[٤].

٣ - عِلمُ القِيَم

الكلام عن هذه المقولة في ساحة العدالة والاعتدال في الحاكمية، هو في الواقع كلام عن سبب قيمة العدالة ولزوم الأخذ بمسـألة الاعتدال، واستخدامها في الحياة الاجتماعية، وكون العدالة مطلقة أم نسبية، وأهمية العدالة مقارنة مع بقية القيم والفضائل الاجتماعية[٥].

وإنَّـه لماذا تُعد العدالة والاعتدال هدفًا للإنسـان وقدوة مطلوبـة؟ فيمكن توضيح ذلك على أسـاس النظرة إلى علمي الوجود والإنسـان بهذا الشكل: بما أنَّ الإنسـان موجود له طبع إلهي ومجهـز بفطرة البحث عن الحق وطلبه وهو حاكم على نفسـه ومتحرر مـن جبر الطبيعة وجبر المحيط وجبر الطبع وجبر المصير، فإنَّ القيم الإنسانية لها أصالة في الإنسان، يعني أنَّها وُضعت

---

١ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير الأمثل، ج١١، ص٣٧٢.

٢ - السيد الرضي: نهج البلاغة، ج١، ص٤٢٦، الرسالة ٥٣، ح٣٨٢٠١٠. <http://noo.rs/J5lIp>

٣ - الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم، الحكمة، ج١، ص٢٢٤، ح٤٥٣٤٢٥. <http://noo.rs/Tefrb>

٤ - الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٤٧٩، ح٤٥٦٦٠٠. <http://noo.rs/2bKHn>

٥ - محمد صادق ترابزاده جهرمي؛ و عليرضا سجاديه: «كيفية معرفة نظريات العدالة المبتنية على الأبعاد الفلسفية؛ منهج في تبيين ماهية مفهوم العدالة.»، المجلة العلمية في الاقتصاد والسياسة، ص.ص. ٨٣-٨٤.

بالقوة بشكل سلسلة من الطلبات في طبعه، والإنسان بموجب طباعه الإنسانية فإنه طالبٌ للقيم المتعالية الإنسـانية. وبتعبير آخر، إنَّ الإنسان بالفطرة طالب للحق والحقيقة والعدالة والاعتدال والفضائل الأخلاقية.

وإننا لو عرّفنا العدالة بأنها "إعطاء كل ذي حق حقه" فسـوف نرى أنَّ العدالة لها ارتباط وثيق بالحـق والتكليف. وعندما نعتبر أنَّ منشـأ الحقوق هي الحقوق الواقعيـة والفطرية، وهو ما لا يمكن توجيهه إلا في ضوء المدرسة الإلهية، فإنَّ العدالة سوف تُبنى أيضًا على أساس نفس هذه الحقوق الواقعية والفطرية[١].

ويَنتج عن كون العدالة أمرًا فطريًا بقاء العدالة دائمًا بعنوان كونها قدوة ومثالاً للبشرية[٢].

وتُعد العدالة مع الاعتدال ضرورة يُبنى عليها ثبات المجتمع في المنظومة الإدراية لمدرسة أهل البيت عليهم السلام، يقول الإمام الصادق عليه السلام، معتبراً أنّ العدالة إحدى أهم الاحتياجات الرئيسة في المجتمع: «ثلاثة أشياء يحتاج الناس طرًا إليها الأمن والعدل والخصب.»[٣].

وعلى هذا الأساس، فلو أراد الإنسان الوصول إلى الكمال -مع الاعتراف بأن طلب الكمال أمر فطري- كان من الضروري له أن يجعل العدالة والاعتدال في مقدمة أعماله لأنه: "في محيط من القسط والعدل يستطيع الناس أن يصلوا إلى رشدهم وأن يصلوا إلى المقامات العالية ويستجلبوا كمالهم الإنساني. إن كلاً من القسط والعدل مقدمة واجبة من أجل الوصول إلى الكمال الإنساني النهائي"[٤]. ويؤيد هـذا المطلب عدم إمكان فهم الروايات التـي تتحدث عن إصلاح الناس[٥] وعمارة البلدان[٦] إلا في ظل تطبيق العدالة والتي تقدّم العدالة على أنها أساس ثبات الدول[٧].

---

١ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج٢٤، ص٤٣٢. & ن.م.، ج٢١، ص.ص. ٢١٠-٢٢٤.

٢ - خطاب للسيد علي الخامنئي بتاريخ (١٣٨٠/٩/٣ هـ.ش.) - الموقع الرسمي.

٣ - ابن شعبة الحراني: معجم مقاييس اللغة، ص٣٢٠.

٤ - خطاب للسيد علي الخامنئي بتاريخ (١٣٧٦/٤/٢٥ هـ.ش.) - الموقع الرسمي.

٥ - الرواية الشريفة: "الرعيّة لا يُصلحها إلا العدل". راجع: المحدث النوري: مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج١١، ص٣١٩، ح٢٠٩٩٨٣. <http://noo.rs/Wu4zG>

٦ - الرواية الشريفة: «ما عُمِّرت البلاد بمثل العدل». راجع: المحدث النوري: مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج١١، ص٣٢٠، ح٢١٠٠٠٢. <http://noo.rs/yzzvw>

٧ - الرواية الشريفة: "في العدل الاقتداء بسُنّة الله وثَبَات الدُّوَل". راجع: الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، ص٤٧٩، ح٤٥٦٦٠٠. <http://noo.rs/2bKHn>

وبنـاءً عليه، فإنَّ المجتمع هو أمر واقعي وحقيقي وله أصالة أخرى إلى جانب أصالة الأفراد، والعدالة هي رعاية الحقوق لهما منشأ فطري أعني إعطاء كل ذي حق حقه، وعندما لا تتم مراعاة حقوق الأفراد وحقوق المجتمع سـينعدم التوازن في المجتمع بعد سـحق كِلا الحقَّين ويخرج المجتمع عن الاعتدال.

وعلى هذا الأساس فإنَّ العدالة سوف تكون أمرًا مطلقًا لا نسبيًا يتغير من زمان إلى زمان آخر، إنَّ العدالة تُعتبر أمرًا مهمًا من الاحتياجات البشرية الثابتة. وأمَّا لو أخذنا العدالة على أنَّها بمعنى المسـاواة والتوازن في جميع الأمور، بحيث لا يكون لنا كلام عن الحقوق فيها فإنَّ هذا سـوف يجرنا باتجاه نسبيتها.

العدالة ليسـت غير نسبية فحسـب، بل هي غير مشروطة ولا يوجد بديل لها. وقد سبّب هذا الأمر أنَّ العدالة تتمتع بمرتبة رفيعة جدًا بعد مقارنتها مع القيم الأخرى والفضائل الاجتماعية، إنَّ العدالة بمقامها الرفيع هذا مَدِينة للإسلام.

العدالة هي إحدى المسائل التي أخذت حياتها وقيمتها الكبيرة بواسطة الإسلام، فإنَّ الإسلام لم يكتف بالأمر بالعدالة ولم يكتف بتطبيق هذه القناعة، بل عمدة ما فعله أنَّه رفع قيمتها عاليًا.

سـأل رجل ذكي فطن أمير المؤمنين علي عليه السلام: "العدل أفضل أم الجود؟" فكان مورد سـؤاله عن خصيصتين إنسـانيتين، لقد كان البشر يعانـون دائمًا من الظلم ويستحسـنون دائمًا الإحسان وفعل الخير من غير منّ.

نحن نرى أنَّ الجواب عن السـؤال المذكور سـهل جدًا، إذ الجود والعطـاء أرقى من العدالة لأنَّ العدالة هي رعاية حقوق الآخرين وعدم تجاوز حدودهم وحقوقهم، وأمَّا الجود فهو أن ينثر الإنسان بيده حقوقه- المسلّمة أنَّها له- على الآخرين، لذا يكون الجود أرقى.

في عالَم الواقـع أيضًا، لو كان الميزان يتم فقط من خلال المعايـير الأخلاقية والفردية يكون الأمـر كما ذكرنا، يعني أنَّ الجود أكثر من العدالة في كونها مِلاكًا وآية لكمال النفس ولطافة روح الإنسان، ولكنَّ الإمام علي عليه السلام يجيب بجواب مختلف، وهو يعطي دليلين على أنَّ العدل أرقى من الجود، فقال عليه السلام: «العدل يضع الأمور مواضعها والجود يخرجها من جهتها»[1].

مفهوم العدالة هو أن تؤخذ بعين الاعتبار الاسـتحقاقات الطبيعية والواقعية، وإعطاء كل أحد

١ - راجع: السيد الرضي: نهج البلاغة، ج١، ص٥٥٣، الحكمة٤٣٧، ح٣٨٢٤٨٣. <http://noo.rs/IEhro>

على قدر عمله واستعداد لياقته، وأمَّا الجود وعلى الرغم من أنه بنظر الشخص المعطي يقدّم ماله المشروع الخاص به -وهو له قيمة كبيرة جدًا- لكنه عملية غير طبيعية، نظير البدن الذي يمرض فيه عضو فتأتي الأعضاء الأخرى بشكل مؤقت لتنجي هذا العضو المريض وتقوم بفعالية منها كي تُصلح وضعه. وبالنظرة الاجتماعية كم كان من الأفضل أن لا يكون اجتماع هذه الأعضاء في المريض كي تتمكن أعضاء المجتمع هذه من التوجه والانعطاف نحو التكامل العمومي للمجتمع، بدل الانعطاف نحو إصلاح عضو خاص ومساعدته.

الدليل الثاني على أفضلية العدل على الجود قوله، عليه السلام: «العدل سائس عام والجود عارض خاص»[1].

إنَّ العدالة القانونية أمر عام ومدير ومدبِّر كلي وشامل يشمل كل المجتمع، وهو السبيل الأقوم الذي يجب على الجميع أن يسلكوه، ولكن الجود والعطاء هو حالة استثنائية وغير كلية لا يمكن الاعتماد عليها. ولو كان الجود ذا جانب قانوني وعام وكلي لم يعد يسمى جودًا.

هذا النوع من التفكّر حول الإنسان والمسائل الإنسانية هو نوع خاص من التفكُّر على أساس تقييمٍ خاص، جذر هذا التقييم هو أهمية وأصالة المجتمع، وجذر هذا التقييم هو أنَّ الأصول والمبادئ الاجتماعية مُقدَّمة على الأصول والمبادئ الأخلاقية، ذاك أصلٌ وهذا فرعٌ، ذاك جذرٌ وهذا غصنٌ، ذاك ركنٌ وهذا زينةٌ وحِليةٌ.

يرى الإمام علي عليه السلام، أنَّ ذاك الأصل الذي يمكنه حفظ تعادل المجتمع ويجعل الجميع راضيًا ويعطي السلامة لجسد المجتمع ويعطي الطُمأنينة لروح المجتمع هو العدالة والاعتدال. إنَّ الظلم والحَيْف والتبعيض أمورٌ غير قادرة على إرضاء وطمأنة حتى روح الظالم نفسه وروح الشخص الذي انتفع من الظلم فما بالك بالظالمين والمضطهدين.

إنَّ العدالة سبيلٌ عامٌّ عظيم يمكن للجميع أن يسلك من خلاله وأن يعبر منه دون أية مشكلة، وأمَّا الظلم والحَيف فهو طريق مظلم لا يوصل حتى الفرد الظالم إلى المقصد[2].

وبناءً على ما ذكرناه في وصف العدالة فإنَّ الله -تعالى- يشجع ويطلب من المؤمنين أن يراعوا مسألة العدالة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ**

---

١ - راجع: السيد الرضي: نهج البلاغة، ج١، ص٥٥٣، الحكمة٤٣٧، ح٣٨٢٤٨٣. <http://noo.rs/IEhro>

٢ - مرتضى مطهري: مجموعة آثار الشهيد مطهري، ج١٦، ص.ص. ٤٣٥-٤٣٧.

﴿قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. ويقول أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقد ورد في الروايات أيضًا أنَّ التوسط والقصد هو سيرة الإنسان المؤمن: «المؤمن سيرته القصد»[١]. و«العدل رأس الإيمان.»[٢].

خَاتِمَةٌ

إنَّ أكثر المعاني وضوحًا وأبرزها دلالة لمصطلح العدالة هو العدالة بمعنى القصد «الوسطية» والابتعاد عن طرفي الإفراط والتفريط في كل أمر، بالرغم من وجود أربعة معان استعمالية لهذا المصطلح. وهذا المعنى هو لازم للمعنى الأصلي لمصطلح العدالة، لأنَّ المعنى الأصلي للعدالة هو إقامة المساواة بين الأمور، بحيث أنَّك تعطي لكل أمر ما يستحقه كي تتساوى جميع الأمور ويقع كل أمر في مكانه الواقعي الذي يستحقه.

وقد اعتبر القرآن أنَّ العدل هو شريك التوحيد وركن المعاد وهدف تشريع النبوة وفلسفة الزعامة والإمامة ومعيار كمال الفرد ومقياس سلامة المجتمع. العدل في القرآن عندما يكون متعلقًا بالتوحيد أو بالمعاد فهو يعطي شكلاً خاصًّا لنظرة الإنسان إلى الوجود والخلقة، وعندما يتعلق بالنبوة والتشريع والقانون فهو يكون "مقياسًا" و"معيارًا" للتقنين، وعندما يكون مرتبطًا بالإمامة والقيادة فهو "الاستحقاق" وعندما يتعلق بمَيدان الأخلاق فهو القدوة «المُثل» الإنسانية وعندما يرتبط بالمجتمع فهو "المسؤولية".

وعلى هذا الأساس، فإنَّه يمكن بوضوح مشاهدة علامات العدالة والاعتدال في عالم الوجود، والقوانين الموضوعة من طرف الخالق الحكيم والعادل لهذا الوجود، متجهة بهذا التوجه أيضًا في عالم التشريع لأنَّ أهمَّ فلسفة في إرسال الأنبياء هي تطبيق العدالة، تلك العدالة التي لو لم تُطبق في المجتمع البشري لأدى ذلك إلى انهيار أركان المجتمع. واللازم في تطبيق هذا الأمر المهم

١ - الآمدي: غرر الحكم ودُرر الكلم، ج١، ص٨٠، ح٤٥١٦٨٧. <http://noo.rs/rIaPx>

٢ - المحدث النوري: مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، ج١١، ص٣١٩، باب وجوب العدل، ح٢٠٩٩٨٥. <http://noo.rs/FDhwH>

أن يكون منفذو العدالة -أعني الحكام والولاة- هم أنفسهم يتمتعون بهذه الفضيلة الأخلاقية. وفي هذه الصورة يمكنهم أن يطبقوا العدالة والاعتدال في النظام السياسي.

لو تمَّ تطبيق القانون العادل الذي يكون مقتضى الطبع البشري في المجتمع الإسلامي على أساس التعاليم الإسلامية، بشرط أن يكون الحكام والولاة المسلمون عادلين ومعتدلين، عند ذلك يمكن مشاهدة مسألة الاعتدال في السلوك السياسي والاجتماعي لذلك المجتمع لأن قِوام المجتمعات الإنسانية يكون بتطبيق العدالة والاعتدال.

وفضلاً عن ذلك، فإنَّ الميل إلى هذه الفضيلة الأخلاقية ليست مرحلية وليست بسبب السياسة لأنَّ العدالة والاعتدال قيمة دائمية ويجب تطبيقها في المجتمعات، ولو أدَّت في برهة من الزمن إلى ضرر جماعة من الناس.

إنَّ وجوب تحلي الحاكم الإسلامي بهذه المسألة يؤدي إلى أن يكون لديه فرق «ماهَوِيّ" وأساسي بينه وبين الحكام الآخرين وهذا هو معنى ما قيل: «المُلْكُ يَبْقَى مَعَ الكُفْرِ وَلاَ يَبْقَى مَعَ الظُّلْمِ.»[1].

١ - الكلام للعلامة المجلسي في شرح الرواية في الكليني: الكافي، ج٢، ص٣٣٣، ح١٠٦٥٥٧. (الشرح في: المجلسي: مرآة العقول، ج١٠، ص٣٠٤.) <http://noo.rs/9Vu٢٢>

لَائِحَةُ المَرَاجِعِ وَالمَصَادِرِ

بِاللُّغَتَين العَرَبِيَّة وَالفَارِسِيَّة

- گروه نويسـندگان (زير نظر علامه مـصباح يزدي) [جماعة من الكتاب (تحت نظر الشيخ مصباح اليزدي)]: فلـسـفة التعلـيم والتربية الإســلامية، المؤسسة الثقافية مدرسة برهان، انتشارات مدرسة، ، تهـران، ١٣٩١هـ.ش.
- محمد صادق ترابزاده جهرمي؛ و عليرضا سجاديه: "كيفية معرفة نظريات العدالة المبتنـية على الأبعاد الفلسفية - منهج في تبيين ماهية مفهوم العدالت». المجلة العلمية في الاقتصاد والسياسة، ١٣٩٠هـ.ش.
- حسن بن شعبة الحراني: معجم مقاييس اللغة، دفتر تبليغات إسلامي، قم، ١٤٠٤هـ.ق.
- حسـين بن محمد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تح. صـفوان عـدنان داودي، دار العلم والدار الشامية، دمشق - بيروت، ١٤١٢هـ.ق.
- حسين بن محمد تقي النوري: مستدرك الوسائل، مؤسسه آل البيت، قم، ١٤٠٨هـ.ق.
- روح االله الموسوي الخميني: ولاية الفقيه، الحكومة الإسلامية، مؤسسة تنظيم ونـشر آثـار الإمام الخميني، تهران، ١٣٨٩هـ.ش.
- عبـد الواحد بن محمد تميمي الآمدي: غرر الحكم ودرر الكلم، دفتر تبليغات إسـلامي، قم، ١٣٦٦هـ.ش.
- علي اكـبر دهخدا: لغتنامـة [قاموس] دهخدا، تهران، دانشـگاه تهـران [جامعة طهران]، ١٣٧٣هـ.ش.
- علي بن إبراهيم القمي: تفسير القمي، تح. السيد طيب موسوي جزايري، دار الكتاب، قم، ١٣٦٧هـ.ش.
- الفضـل بن الحسـن الطـبرسي: مجمع البيان في تفسـير القـرآن، ناصر خـسرو، تهران، ١٤١٧هـ.ق.
- قرص مدمج حديث الولاية. مجموعة خطابات السـيد القائـد، (حفظ و نشر آثار آية االله العظمى خامنئي).

- مجموعة من المترجمين: تفسير الهداية، (مؤسسة البحوثات الإسلامية) بنياد پژوهشهاي اسلامي آستان قدس رضوي، مشهد، ١٣٧٧هـ.ش.
- محمد باقر المجلسي: بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٤هـ.ق.
- محمد بن زين العابدين ابن أبي جمهور: عوالي اللآلئ العزيزية، تح. مجتبى عراقي، دار سيد الشهداء للنشر، قم، ١٤٠٥هـ.
- محمد بن علي ابن بابويه (الشيخ الصدوق): الأمالي، دار كتابچي، تهران، ١٣٧٦هـ.ش.
- ـــــــــــــ: التوحيد، جامعة المدرسين حوزة قم العلمية، قم، ١٣٧٦هـ.ش.
- محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.ق.
- محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٢هـ.ش.
- محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، تص. علي اكبر غفاري؛ و محمد آخوندي، دار الكتب الإسلامية، تهران، ١٤٠٧هـ.ق.
- محمد جواد نوروزي: فلسفة السياسة، مؤسسة آموزشي و پژوهشي إمام خميني، قم، د.ت..
- ـــــــــــــ: نظرية في العلوم الاجتماعية مع التأكيد على دور الفرضيات والنماذج، دار معرفة، قم، ١٣٨٢هـ.ش.
- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، دفتر انتشارات إسلامي، قم، ١٤١٧هـ.ق.
- محمد رضا حكيمي: الحياة، تر. أحمد آرام، دفتر نشر الثقافة الإسلامية، تهران، ١٣٨٠هـ.ش.
- مرتضى مطهري: مجموعه آثار الأستاذ الشهيد مطهري، صدرا، تهران، ١٣٧١هـ.ش.
- ـــــــــــــ: هدف زندگي (هدف الحياة)، دار صدرا، تهران، ١٣٩٠هـ.ش.
- مرتضى يوسفي راد: «منزلة العدالة في مقام الوجود والنظم الاجتماعي»، ١٣٨٥هـ.ش.
- ناصر مكارم الشيرازي؛ ومعاونوه: تفسير الأمثل، دار الكتب الإسلامية، تهران، ١٣٧٤هـ.ش.
- ـــــــــــــ: رسالة القرآن، دار الكتب الإسلامية، تهران، ١٣٧٧هـ.ش.
- السيد الرضي: نهج البلاغة، تح. صبحي صالح، دار هجرت، قم، ١٤١٤هـ.ق.

النَّزعة النّسبية في القِيَم، ودورُها في مواقف العقل الغربيّ الكولونيالي من الآخَر[1]

■ د. موسى معيرش[1]

ملخّص

تَسعى الورقةُ، التي أعملُ على تقديمها، للكَشف عن العلاقة بين النَّزعة النِّسبية في تحديد طبيعة القِيَم- منذ ظهورها على يدِ السّفسطائيِّين، باتِّخاذهم لمَقولة الإنسان معيار كلِّ شيء- وبَين الكيفيّة التي أقام عليها هؤلاء فلسفتَهُم بصورة عامّة، ورؤيتهم للعالَم والمَسألة القِيَميّة والسِّياسية خاصّةً، وصولًا للرُّؤية الغربيّة المُعاصرة، التي تَنطلقُ في علاقتها السِّياسيّة من هذه الرُّؤية، التي انتقدَها كثيرٌ من المُفكِّرينَ ورجال السِّياسية، مُعتقدينَ أنَّ الغربَ يمُارسُ الازدواجيّةَ في تعامُلِه مع الآخَر، وأنَّ نظرتَهُ للغَيرِ تَقومُ على تناقُضٍ في تصوُّراته ومُنطلقاته، دون إهمال لبَعض مواقف فلاسفة العصور الوُسطى والحديثة الغربيِّينَ، ومُحاولتهم التَّوفيقَ بين المَسيحيّة الشَّرقية الوافدة، صاحبة القِيَم الجديدة، والطَّبيعة المُتجذِّرة في العقل الغربيِّ، حتى وإنْ تناقضَت مع فلاسفته الكبار القُدماء، أمثال: سقراط وأفلاطون وغيرهما.

ومن هنا فإنَّ هذه الورقةَ تُحاول أن تُقدِّمَ تفسيراً لهذه النَّزعة، وتَسعى لفَهم انعكاساتِها السِّياسية والأخلاقية، كما تَسعى لتَقديم قراءةٍ نقديّةٍ لها ولتَطبيقاتها.

الكلمات المفتاحية: النَّزعة النِّسبية، الغرب، الرُّؤية، الازدواجية، القِيَم، العالَم.

1 - Relative tendency in values and its reflections on the western view towards the world.

2 - أستاذ دكتور جامعة عباس لغرور - الجزائر.

مقدِّمة

١ - مدخل عامّ

يَهدف العِلمُ في مُجمله إلى فهم الظّاهرة التي يَدرسُها، بقَصد تفسيرِها، وتَوجيهها الوُجهةَ التي يَرغبُ فيها العالمُ، ومن الظَّواهر الجديرة بالاهتمام والدِّراسة، التي تحتاج إلى تفكيك، ظاهرةُ النَّزعة الكولونيالية المُسيطِرة على جزء كبير من العقل الغربيِّ المعاصر، وهذه النَّزعةُ تتطلَّبُ السَّعيَ لمعرفتها، وفهم الآليات المُتحكِّمة في رؤيتها للآخَر.

ذلك أنَّ فهمَ هذه الرُّؤية، ومن ثَمَّ تفسيرها والتَّعامل معها بطريقة سليمة وصحيحة، يَقتضي فهمَ خلفيّاتها وتصوُّراتها الأساسية، وهذا لن يتأتىَّ إلا من خلال تحديد مُنطلقاتها التَّقليدية، وتَمييزها عن المُنطلَقات المُستحدثة، ومن هنا تأتي أهميّةُ دراسة النَّزعة النِّسبية وعلاقتها بهذه الرُّؤية، وهو ما نَعمل عليه في هذه الدِّراسة الجامعة بين الرّاهنيّة المُعبِّرة عن هذه الرُّؤية، وخلفياتها الفلسفية المُمتدّة في التاريخ، ولذا، فإنَّنا نَسعى في هذه الدِّراسة للتَّحقُّق من الفرضية التي نَطرحُها، وهي أنَّ العقلَ الغربيَّ الكولولنيالي يَنطلق في رؤيته للأنا والآخَر من الأنا اليوناني القديم، المُتمثِّلِ في الرُّؤية النِّسبية للقِيَم.

أمّا عن الإشكالية التي نَرغب في معالجتها، فتَدور حول علاقة «النَّزعة النِّسبية» في القِيَم والمعرفة بالرُّؤية الغربية للعالَم، أو بالأحرى للآخَر. وتبعًا لذلك يمُكنُنا أن نُعبرِّ عن هذه الإشكالية بقولنا: هل يمُكنُنا القَول بأنَّ النِّسبيةَ، باعتبارها معيارًا ذاتيًّا في إصدار الأحكام القِيَميّة، ومن ثَمَّ التَّعبير عن الرُّؤى والمَواقف، تَقود إلى التَّناقض في اتِّخاذ المَواقف السِّياسية المُرتبطة بالقِيَم الإنسانيّة ككل، تكشف وتُفسِّر الرُّؤيةَ الغربيّةَ للآخَر وتُبرِّرُها، انطلاقًا من مُكوّنها الأساسيِّ اليونانيّ؟ أم أنَّ هذه الرُّؤية تُعبرِّ عن روح المَسيحيّة القائلة بالتَّسامُح، والمُعبرَّ عنه في المقولة المَنسوبة للسَّيد المَسيح أحيانًا، ولبولس أحيانًا أخرى: إذا ضربَكَ أحدُهم على خدِّكَ الأيمنِ

فأدِرْ له الأيسَرَ؟

وإذا كان الأمرُ كما ذكرنا، فهل يمُكنُنا تقديمُ تفسير جديدٍ للرُّؤية النِّسبية في مجال الأخلاق والسِّياسة، التي تقوم عليها السِّياسةُ الغربية خاصّةً في نظرتها للقَضايا الإنسانيّةِ الكُبرى، مثل التَّحرُّر والتَّنمية وسيادة الدُّول؟

طبيعةُ الدِّراسة تَتطلَّبُ منّا أن نُخضعَها لأكثرَ من منهج، ولا سيَّما المَنهجان: الاستقرائيّ والتَّحليلي، فنحنُ في حاجة لتتبُّع النَّزعات النِّسبية، المُكوِّنة للعقل الغربيِّ، وتَفسيرِها، وبيانِ علاقتها بالعقل الغربيّ.

تَهدف الدِّراسةُ للكشف عن علاقة العقل الغربيِّ المعاصر، بتُراثِه التَّقليديِّ اليُونانيّ والرُّومانيّ، وأنَّه ماضيه الذي ما يَزال يُشكِّلُ حاضرَه، ويُحدِّدُ توجُّهاته.

٢- تحديد المفاهيم

قبلَ الحديثِ عن النَّزعة النِّسبيّةِ في القيَم وانعكاساتها على الرُّؤية الغربيّة للعالَم، لا بدَّ أن نُجيبَ على سؤال سقراط التَّقليديّ، المُتعلِّق بتَحديد المَفاهيم التي تَقوم عليها إشكاليّةُ هذه الوَرقة تباعًا، ولا شكَّ أنَّ أوَّلَ ما يَجب أن نَنظُرَ فيه هنا، يتعلَّقُ أساسًا بسؤالنا عن المَقصود بالنَّزعة النِّسبية في القِيَم.

فبحسب ما وردَ في المعاجم المُتخصِّصة، فإنَّنا نَقصِدُ بـ«النَّزعة النِّسبية»: تلكَ الرُّؤيةَ الفلسفيّةَ الأبستمولوجية القائلةَ: بأنَّ المَعرفةَ في أساسها مُختلفةٌ من شخص لآخَر، وتتغيَّر وفقًا لتغيُّر حاجة الشَّخص وتجربته، وفي هذا السِّياق، نجدُ «معجم كامبردج الفلسفي»[1] يَرى أنَّه لا يُقصَدُ بالنِّسبيّة[2] إنكارُ نمطٍ معرفيٍّ مُعينٍ، ومنه لا وجودَ لحقيقة واحدة، ذلك أنَّ هاته الأخيرةَ تختلفُ بحسب زاويةِ الرُّؤية، أمّا «موسوعةُ روثلج الفلسفية»[3]، فترَى أنَّ النِّسبية تَعني عدمَ وجودِ شيءٍ جيِّد لشخصٍ ولآخر في الوقت نفسه، فقد يكون جيِّدًا لشخص، وسيِّئًا لآخر، وإنَّما توجد نظرتانِ

1 - The Cambridge Dictionary of Philosophy.

2 - Robert Audi: The Cambridge dictionary of philosophy, p790.

3 - Routledge encyclopedia of philosophy.

للمسائل المعرفية والأخلاقية، ومنه يُستنتج عدمُ وجود حقيقة واحدة[١]، وبهذا يمكِنُنا القولُ بتغيرُّ نظرة النّاسِ واختلافها، بحسب المُنطلَق والهَدف[٢].

وهذا ما دفع قدماءَ السفسطائيِّين للتأكيد على أنَّ الإنسانَ معيارُ كلِّ شيءٍ، فهو معيارُ ما هو موجود وما هو غيرُ موجود، طبقًا لمقولة (بروتاغوراس - Protagoras) الشَّهيرة: الإنسانُ مقياسُ كلِّ شيءٍ[٣].

وقد عبرَّ (روبن أبيل – Ruben Apel)، في كتابه: «الإنسان هو المقياس»، عن دعوة صريحة لدراسة المُشكلات الحَقيقية في الفلسفة عن أبعاد هاته النَّزعة، فقال: «الشَّمس تُشرقُ وتَغرب، وتُشرق مرّةً أُخرى، الفُصول تتوالى... فلماذا نَزعم أنَّ الإنسانَ مقياسُ كلِّ الأشياء؟... إنَّه بسبب أنَّ هذه الدَّوريات الطَّبيعية ليسَت ضروريةً، ولا هي فريدةٌ وأبديّةٌ، وبسبب أنَّ الإنسانَ يُمكنُ أن يأخذَ في حساباته فقط ما الذي يَعرفه الإنسانُ... أنَّ ما يَستطيع الإنسانُ أن يعرفَه يتوقَّفُ على ماهيّة الإنسان. إنَّ إدراكَنا هو تساؤلٌ فعّالٌ وليسَ لَقيًّا سلبيًّا... فنحنُ البشرَ نختارُ ما نُقرِّرُ أن تكون الحقيقةُ عن طريق الفَرضيات التي صمَّمناها لتُجيب على أسئلتنا وتُهدِّئَ شكوكَنا وتُطفي شغفَنا وتُعمِّقَ فَهمَنا... إنَّنا نستخدمُ أدوات المَنطق لبناء مفاهيمنا، ونُنظِّمُ سؤالَنا، لتَوضيح خطابنا، والتَّحقُّق من استدلالنا. فنحنُ نُقرِّرُ أنَّ فُروضًا معيَّنةً تحليليةً هي تَحليليّةٌ، أي أنَّنا سوف نحافظ على استقرار بعض المَعاني في مواجهة الجَحيم والمياه العالية. سوف نُلفِّقُ بعضَ المَقاطع الصَّوتية في عبارات رمزيّة تعضُّ النَّواجذ على مَغزى العالَم»[٤].

وعلى هذا الأساس فإنَّه ليسَت المعرفةُ وحدَها نسبيّةً مُتغيِّرةً، وإنَّما أيضًا القوانين، والقِيَم المُختلفة، ومن ثَمَّ المواقف المُتعدِّدة التي يتَّخذها الإنسانُ، وقد تكشَّفَت هذه الرُّؤية منذ البدايات الأولى للفلسفة اليونانية، وكمثال على ما نَذهب إليه هنا، نجدُ أنَّ التُّهَمَ التي حُوكم على أساسها سقراط، وحُكم عليه تبعًا لها، وأُعدم في النِّهاية، تُجسِّدُ بعُمق هذه الرُّؤيةَ.

فبالنسبة للسفسطائيِّين، فإنَّ (سقراط - Socrates) الخصمُ، وقاطعُ أرزاقهم، مُفسِدٌ بكلِّ

---

1 - Routledge encyclopedia of philosophy,p7318.

٢ - موسى معيرش: فلسفة القيم: مفهومها وطبيعتها، ص٩٤.

3 - Anthony Kenny: A new History of western philosophy; vol. 1, p29.

٤ - روبن أنبيل: الإنسان هو المقياس: دعوة صريحة لدراسة المشكلات الحقيقية في الفلسفة، ص٣٦٥.

المعايير، وهو ليس عدوًّا لهم فحسب، وإنَّما هو عدوٌّ للمجتمع الأثيني ككل:

- فهــو بدعوته لآلهة مختلفة عمّا اعتادَ عليه ســكانُ أثينا، لا تتــماشى معَ ثقافتِهم ذاتِ النَّزعة الأسطورية، ومطالبته باستبدالها بآلهة جديدة، حتى وإنْ كانت أكثرَ قَبولاً عقلاً، فهو يُهدِّدُ الوحدةَ السياسيّةَ، القائمةَ على الإيمان بالتَّعدُّد.
- وهو بدعوته للبحث عن حقائق الأشــياء يُهدِّدُ رؤيتَهم للعالَم والإنسان، القائمةَ على تعدُّد الحقائق وتَناقُضِها، وهذا يُشعل بينَهم الفتنَ وبابَ التَّناقُضات.
- وهو بدعوته لتكوين جيلٍ جديد من الشَّباب، وفقًا لقيَمِه الأخلاقية والسِّياسية القائمةِ على مُطلقيّة العقلِ، فإنَّه بهذا التَّوجُّه يُعتبرَ مُفسدًا للشَّباب، ومُهدِّدًا لاستقرار المجتمع.

ومن ثَمَّ وجبَ التَّخلُّصُ منه، بكلِّ الطُّرق، المشروعةِ منها وغيرِ المشروعة، مع أنَّه في الحقيقة، ليسَت هناك طُرقًا غيرَ مشروعة، فكلُّ ما يُحقِّق الغايةَ فهو مشروعٌ، ما دامَ الإنسانُ هو مَن يَضعُه، ومِعيارَه الأوحدَ، وليس هناك جهةٌ خارجَ هذا الإنسان، بغضِّ النَّظر عن طبيعتِها، يُمكِنُ أن تضعَ معايــيرَ مختلفة يُمكِن أن يَحتكم لهــا النّاسُ، في حالة اختلافاتِهــم، أو يَضعونها كمعايير تُوجِّهُ سلوكيّاتِهم وتُحدِّدُ طبيعتَها.

أولاً: نشأة النَّزعة النِّسبية وتطوُّرها

١ - جذور النِّسبية القديمة

ليــس من الغريب أن يَعمد الباحثــون الغربيُّونَ إلى تجاهُل الدَّور الفاعل الذي لعبَه فلاســفةُ الشَّرق وحكماؤُه في تطوُّر الحضارة الإنسانية عامةً، بما في ذلك إسهاماتُهم في الفلسفة، فلهؤلاء تصوُّراتُهــم الخاصّة القائمةُ على نظرية المَركزيــة الغربيّة، التي تَنطلق من فرضيّةٍ صارَت عندَهُم مُســلَّمةً، وهي المُعجزة اليونانية، فكلُّ شيءٍ بدأ عند اليونان: العلوم، المعارف، الفلسفة، الفنّ، فكان التفــوُّق قديمًا لهذه الحضارة، التي هي منبعُ الحضارة الغربية في عصرنا، في حين أنَّ بقيّةَ شعوب الأرض مجرَّدُ همجٍ وبَرابرة، لا يُمكِنُ أن يكونوا مصدرًا للقِيَم الإنسانية بمختلف أشكالها.

لكــنَّ الغريبَ أن يَحذوَ حذوَهُم بعضُ الباحثــين والمُفكِّرين الشَّرقيِّين، بدَعوى الموضوعية والحياديــة، في حين أنَّ حقيقةَ أمر هؤلاء مُخالفةٌ تمامًا لدَعوى الموضوعية، فالمســألة لا تَعدو أن تكونَ تقليدًا للباحثين الغربيِّين، وفي أحســن الأحوال، تَجنُّبًا لمشاقِّ البحث عن الجديد في

ثنايا الأعمال العلمية التي لم تأخُذْ حقَّها من الدِّراسة، وهذا ما يَجعلهم يُبرِّرونَ عجزَهُم المعرفيَّ بموقف إيديولوجيٍّ يَختبئ وراء نظريات عرقيّة، وهذا ما يَتنافى مع هذا الزَّعم تمامًا.

وكلُّ ذلك يَدفعنا إلى تجنُّب التَّجاهُل، والعودة إلى تراث هذه الأمم للكشف عمّا يَذخر به من إسهامات كبيرةٍ في هذا الشّأن، دونَ أن يَحملنا هذا الموقف المنهجيُّ والمعرفيُّ الدَّقيق على التَّحامُل أو المُغالاة، مُستعينينَ في هذا السِّياق بنظريّة سقراط القائلة بأنَّ الفضيلةَ وسطٌ بين رَذيلتَين: هما الإفراط والتَّفريط، وبالتالي فلا إقصاءَ ولا مبالغة. بمعنى أنَّنا لا نُحاولُ إعطاءَ قيمة أكثرَ ممّا يَستحقُّ لهذا الفريق، وفي الوقت نفسه لا نُحاول تجاوُزَه، أو التَّقليلَ من دَورِه المعرفيِّ أو التاريخيِّ.

على عكس التصوُّر التَّقليديِّ الذي وجدناه يَنفي وجودَ تصوُّرات مختلفة للقيَم في الفلسفات الشَّرقية، وبالأحرى ما اتُّفِقَ اصطلاحًا على تسميتُه بالفكر الشَّرقيِّ القَديم، فإنَّنا نجدُ عدّةَ تصوُّرات، منها المُتوافق ومنها المُتعارض، كما أنَّ هذه التصوُّرات المُختلفة ليسَت وليدةَ مدرسةٍ أو شخصية واحدة، وإنَّما هي معروفةٌ عند فئات عديدة من الحكماء، وهذا يَجعلُنا غيرَ قادرين في هذه العُجالة على أن نتطرَّقَ إليها كافّةً، وإنَّما نَكتفي بإشارات مُعبِّرة ومُمثِّلة له.

وفي هذا السِّياق، يمُكننا أن نُشير من البداية إلى أنَّ النَّزعة النِّسبية لم تَظهر البارحةَ فحسب، أي في وقتٍ قريب، وإنَّما كان لها تاريخٌ يَعود إلى أزمنة غابرة، وهو ما وقفْنا عليه عندَ عودتنا للفكر الشَّرقيِّ القَديم، كما هو شأنُ العراقيِّينَ القُدماء، خاصةً فيما يُعرف بجدليّة العبد والسَّيد، حيثُ نقفُ على حوار بينَهما[1]، يُناقشان فيه موضوعاتٍ مُتنوِّعةً، منها: الزَّواج، الثَّورة، وغيرُهما، كما وجدنا مُمثّلين لها في الفلسفة المادية الهندية[2].

أمّا في الفكر الصِّيني، فلم يَغبْ هذا الاتِّجاهُ أيضًا، وهو ما عثرنا عليه عند الحكيم (لاوتزو – Laozi)، الذي وجدناهُ يَنطلق من مسلَّمة مفادُها: أنَّ الحكيمَ يَسعى دومًا إلى اكتشاف المعارف، ويُطوِّرُ مداركَه في كلِّ الحالات، دونَ أن يكون قادرًا على اكتشاف حقيقة المعرفة، ويَبقى يَعتقدُ أنَّ ما يتوصَّلُ إليه عبارةٌ عن معارفَ يقينيّة، غيرَ أنَّ هذا الوَهمَ سرعان ما يَنهار عندما يَبلغ من العمر سنَّ الخمسينَ، وهو موقفٌ عبرَّ عنه في كتابه عندما اعتبرَ أنَّ: «الحكيمَ شيمتُه التَّواضُعُ، لأنَّ

١ - انظر: موسى معيرش: القيم في الفلسفة الشرقية.

٢ - موسى معيرش: فلسفة القيم: مفهومها وطبيعتها، ص٩٤.

الإنســانَ متى يَبلغ الخمســينَ من عمره، فقد آنَ له أن يُدركَ أنَّ المعرفةَ شيءٌ نسبيٌّ، وأنَّ الحكمةَ شيءٌ سهلُ العطب... وهو يتَّفق معَ السُّذَّج أكثر ممّا يتَّفق مع العلماء.»[1].

غــير أنَّ هذه النَّزعةَ (النِّســبية) كانَت الأكثرَ بروزًا في الفلســفة اليونانية، من خلال ما عبرَّ عنه كثيرٌ من فلاسفتها، وبالخصوص ما قدَّمَه السفسطائيِّين في مختلف مجالات الفلسفة: الوجود، المعرفة، الألوهية، الفنّ والجمال... وغير ذلك من المسائل.

أمّا في العصور الوســطى المسيحية، فرغم تبايُن وجهات النَّظر فيما يتعلَّقُ بتَصنيف ما أنتجته تلك العصورُ، بينَ قائلٍ إنَّه فلسفةٌ، وقائلٍ إنَّه لاهوتٌ، فإنَّ المُؤكَّدَ أنَّ كثيراً من مُفكِّري هذا العَصر، وَثنيِّن كانوا أم مســيحيِّين، قد أخذوا كثيراً من تصوُّرات النَّزعة النِّســبية، كما هو شــأن النَّظر في جدلية الدِّين والدَّولة، أو جدليّةِ الفلسفةِ والدِّين، خاصّةً فيما يتعلَّقُ بالنَّظر للآخر بعامّةٍ والمُسلِم بصورة خاصّة.

بل إنَّ العقيدةَ المسيحيّةَ، وطبيعةَ السيِّد المَسيح، كانا محلَّ جدلٍ ونقاشٍ، وتبايُنٍ في وجهات النَّظر، فمنهم مَن ذهب إلى القول بالتَّوحيد، كما هو شــأنُ الأريوسية، وذهبَ آخرونَ إلى القَول بالطَّبيعة المُزدوجة، كما هو معَ «الإثناسيوسية»[2]، وحتى رجال «عصر الإصلاح»: (كالفن - John Calvin)، (زونجلي - Zwingli)، (مارتن لوثر - Martin Luther)، كلٌّ منهم قدَّمَ رؤيةً تُعبرِّ عن قوميّته وفهمِه الخاصِّ للدِّين، وتُظهرُ وجهةَ نظرِه، وإقصاءَهُ لوجهات النَّظر الأخرى.

٢ - النِّسبية الحديثة وأبعادُها

أمّا في الفلســفة الحديثة، فقد تقوَّت النَّظرةُ النِّسبيةُ، مع الاكتشافات العلميّة الحديثة، وظهورِ المذاهب الأخلاقية المختلفة، أمثال النَّفعيّة، البرغماتية، فضلاً عن المدرسة النَّفسية والاجتماعية.

يُعَدُّ الاتِّجاهُ النَّفعيُّ أحدَ أهمِّ الاتِّجاهات الفلســفية التي عرفَتْها البشريّةُ في مختلف عصورها

---

١ - ول ديورنت: قصة الفلسفة، ج٦، ص٣٦.

٢ - قانون الإيمان الأثناسيوسي (المعروف باللاتينية باسم Quicumque vult) هو ملخَّص مُبكِّر للعقيدة المَسيحية. ويُعتقَد تقليديًّا أنَّ كاتبه أثناسيوس، رئيس أساقفة الإسكندرية، وكُتب في المقام الأول لدحض البدع المتعلِّقة بألوهية يَسوع المسيح وإنسانيته، مثل: الأريوسية والنسطورية والمونوفيزيتية. ينصُّ قانون «الإيمان الأثناسيوسي» تقليديًّا على ما يلي: «مَن يُريد أن يُخلصَ عليه قبلَ كلِّ شيءٍ أن يتمسَّكَ بالإيمان الكاثوليكي. ومن لا يَحفظُه كاملاً ومُقدَّسًا فلا شكَّ أنَّه يَهلِكُ إلى الأبَد».

وأمصارها، فقد عرفَه أهلُ اليونان على يد بعض الفلاسـفة من أمثال: أبيقور، كما عرفَتْه مختلف الأمم التي سـبقَتْهم أو عاصرَتْهم، كما هو الأمرُ مع الصِّينيِّينَ، علاوةً على الأمم التي جاءَت من بعدهم مثلِ الهيلينيِّين، ولم يَختلف الأمرُ بالنِّسـبة للمُسلمين، فقد قامَت الشَّريعةُ على ما يُعرَفُ بالضَّوابط الشَّرعية السّاعية إلى تحقيق مقاصد الشَّريعة أو ما يُسمَّى بالمقاصد الكلِّية.

إلا أنَّ المُتعـارَفَ عليه أنَّ هـذا الاتِّجاهَ المتبلورَ لم يتحوَّلْ إلى نظريّةٍ فلسـفيّةٍ متكاملة إلا في الفلسفة الإنجليزية الحديثة مع كلٍّ من الفيلسوفَينِ: (جرمي بنتام - Jeremy Bentham) (١٧٤٨-١٨٣٢م)، و(جون ستيوارت مل - John Stuart Mill)، فماذا نقصدُ بهذا الاتِّجاه؟

يُحـدِّدُ معجمُ علـمِ الاجتماع [١] المقصودَ بهـذا الاتِّجاه على أنَّه: «عبارةٌ عن فلسـفة أخلاقية وسياسـية نشـأتْ في بريطانيا العُظمى في عهد الثَّورة الصِّناعية، ما بينَ نهاية القرن الثامنَ عشرَ والقرن التّاسـعَ عشرَ، هذا التيّارُ الفكريُّ يَرجع إلى مبدأ واحد: مبدأ النَّفع، بوصفه الوَسيلةَ التي تَجمع المَصالحَ الخاصّةَ والعامّةَ، وبفَضلها أيضًا يَحصل الرِّضا الفرديُّ والعامُّ»[٢].

من جهة أخرى نجدُ من يَنظر إلى مذهب المَنفعة[٣] من زاويتَين مُتكاملتَين، فهو من جهة نظريّةٌ فلسـفيّة، ومن جهة أخرى هو نَظريّةٌ اجتماعيّةٌ وأخلاقية، فأمّا كونُه نظريّةً فلسفيّةً فيَعود ذلك إلى ارتباطها بـ(جرمي بنتام)، الذي يَعتبر أنَّ الأخلاقَ وعلمَ النَّفس يَقومانِ على فكرة مفادُها أنَّ اللَّذةَ أفضلُ من الألم.

ووفق هذا الاعتبار يكون هذا المنطلقُ مُوجِّهًا للسُّـلوك بالرغم من وجود بعض العوائق التي تَحول دون ذلك، مع هذا فإنَّ الغايةَ التي يَسعى الجميعُ إلى تَحقيقها تتمثَّل في الوصول للسَّعادة الكبرى، أمّا كونُها نظريّةً أخلاقيّةً واجتماعية فلتأكيدها على أنَّه لا يُوجَدُ شيءٌ مرغوبٌ فيه سوى اللَّذة، وهذا يَجعل وظيفةَ القواعد الأخلاقيّة محصورةً في تحصيل اللَّذة وتجنُّب الألم[٤].

فالقيَمُ تكون مقبولةً وصحيحةً بقَدر ما تُحقِّقُ من مَنافعَ، وتكونُ عكسَ ذلك، أي خاطئةً، إذا ما اتَّجَهَت لغيرِ مَنفعةِ الإنسان، إلا أنَّ المنافعَ قد تتعارض بينَ الناس، بل وعند الشَّخص الواحد،

1 - Dictionnaire de Sociologie.

2 - Boudon autres: Dictionnaire de sociologie, p241.

3 - Utilitarianisme.

٤ - محمد عاطف غيث: قاموس علم الاجتماع، ص٤٦٣.

وهــذا يَجعل القِيَمَ تناقضُ، ويُصبِحُ من الصُّعوبةِ بمــكان الحديثُ عن توافقٍ حولَها، فهل هناك إمكانيّةٌ للتَّوفيق بينَ منفعةِ الفردِ ومنفعةِ الجماعة؟

أمّا في القرن التاســعَ عــشرَ، فظهرَت البرغماتية في العالَم الجَديــد، وهي في الواقع عبارةٌ عن مذهبٍ فلسفيٍّ أمريكيٍّ، مَثَّلَه كثيرٌ من الفلاسفة، كما هو شأن (ويليام جيمس - William James)، و(سنادرس بيرس - Sanders Peirce)، و(جون ديوي - John Dewey)، ويُعَدُّ هذا المَذهب أساسَ الحياة الأمريكيةِ منذُ تأسيسِ هذه الدَّولة وإلى غاية اليَوم. وتَجدر الإشارةُ إلى أنَّ هذا المذهبَ يُعدُّ امتدادًا لمذهبِ المَنفعة، وإنْ كانَ أكثرَ منه تعقيدًا وحضورًا في الوقت نفسه في عصرنا.

كما أنَّها تُعدُّ من أهمِّ الفلسفات المعاصرة، وأكثرِها إثارةً للجدل، ليس بينَ المُختصِّينَ فحسب، بــل تعدَّى ذلك إلى عامّة النّاسِ، حيث نجدُ مَــن يَجعل منها فضيلةَ الفَضائلِ ودليلاً على النَّباهةِ والفِطنــة، في حين نجدُ آخَريــنَ يَعتبرونَه عنوانًا للوَضاعة ودَليلاً على النَّذالة والخِسّــة، فما هي البرغماتية كفلســفة؟ هذا من جهةٍ، ومن جهة أُخرى ما هي نظرتُها لطبيعةِ القِيَم؟ هذا ما نُحاول مناقشتَه والإجابةَ عنه فيما يلي.

٣ - النِّسبية القِيَمية المُعاصرة

مصطلحُ البرغماتية تعريبٌ للكلمة الإنكليزية pragmatism والفرنسية pragmatisme، والتي تُترجَــمُ عــادةً إلى: «الذَّرائعية»، وفي بعض الأحيان إلى: «التَّداوليــة»، وهي عبارة عن: «مذهب فلسفي-ســياسي، يَعتبر نجاحَ العمل هو المعيار الوحيد للحقيقة، فالسِّياسيُّ البراغماتيُّ يدَّعي دائمًــا أنَّه يتصرَّفُ ويَعمل على النَّظــر إلى النَّتائج المُثمِرة التي قد يُؤدِّي إليها قرارُه، وهو لا يتَّخذ قرارَه بوحيٍ من فكرة مُســبقة أو إيديولوجية سياســية مُحدَّدة، بل مــن خلال أخذِه بعَينِ الاعتبار للنَّتيجة العملية المَنشودة.»[1].

والمتابعُ لهذه الفلســفة يَجد أنَّها انتشرَت انتشارًا كبيرًا في الولايات المتَّحدة الأمريكية، حيث تبلورت خطوطُها الكُبرى في السَّــبعينيّات من القرن التاسع عشر، في كتابات أعلامِها الكبارِ من أمثال: (ساندرس بيرس) (١٨٣٩-١٩١٤م)، و(ويليام جيمس) (١٨٤٢-١٩١٠م)، وأخيرًا (جون ديوي) (١٨٥٩-١٩٥٤م).

١ - عبد الوهاب الكيالي وآخرون: موسوعة السياسة، ج٢، ص٧٦٧.

وما يَجعلُ هذه الفلسفةَ مُميَّزةً على كثيرٍ من الفلسفات أنَّها عدوٌّ الفلسفة الماركسية في الدَّرجة الأولى، وفي الوقت ذاته تتَّفق معها في كونها لا تهتم بالمسائل النَّظرية للفلسفة، بقدر اهتمامها بالمسائل العمليّة، والماركسيّةُ تُؤكِّدُ أنَّ وظيفةَ الفلسفة تكمُنُ في تَنوير الطَّبقة الكادحة، وحَملِ هُمومِها في مواجهة البرجوازية والإمبريالية الرأسمالية، على حين أنَّ البرغماتيّة تَذهبُ إلى أنَّ وظيفة الفلسفة تَسعى إلى تحقيق الأهداف الإنسانية، وتَوضيح الوسائل الكفيلة بتَحقيقها، فالفلسفة عليها أن تتحوَّلَ إلى أداة تَخدم الإنسانَ في حياته العملية.

ويمُكنُنا أن نُلخِّصَ ما تَذهب إليه هذه الفلسفةُ على النَّحو التالي: «الإنسانُ مُكرَهٌ على العَيش في عالَم لاعقلاني، يتعذَّرُ فَهمُه، وأنَّ محاولتَنا لإدراك الحقيقة الموضوعية ستَبوء حتمًا بالفَشل، ولذا يَجب النَّظرُ إلى مختلف النَّظريات العلمية، وإلى الأفكار الاجتماعية والقِيَم الأخلاقية، نظرةً أداتيّةً، أي من وجهةِ نظرِ مَنفعتِها في تحقيق أهدافِنا، إنَّ ما يَنفع الإنسانَ، ما يعود عليه بالنَّجاح، هو الصَّحيح، هو الحَقيقة»[1].

أمّا فيما يخصُّ النَّزعةَ الاجتماعية، فنَقف عليها عندَ (دوركايم - Durkheim) الذي يَرى في مختلف كتاباته أنَّ مشكلةَ القِيَم الأخلاقية، بوصفها مشكلةً اجتماعيّةً وليست فردية، تُؤثِّرُ وتتأثَّر بمختلف التَّغيُّرات الاجتماعية التي تَحدث في المجتمع الذي تَنشأ فيه، دون أن تستقلَّ عنه، فهي منه وإليه، وبذلك فإنَّ القِيَم الأخلاقية تَختلف من مجتمع إلى آخر، بل تختلفُ حتى داخلَ المجتمع الواحد من فترة تاريخية إلى أخرى.

فالأخلاقُ ليسَت من صُنع الأفراد، بل هي مِن صُنع المجتمع، وهذه المُسلَّمة الدوركائمية يُعبِّر عنها في كتابه التَّربية الأخلاقية L' Education morale حينَما يَقول: «إنَّنا نبدأُ بالشُّعور بالقواعد الأخلاقية على نحو سَلبيٍّ، ونجدُ أنَّ التَّربيةَ تَحملها إلى الطِّفلِ وتَفرضُها عليه، فتَبسط سلطانَها ونفوذَها، ولكنْ في وُسعنا أن نبحثَ عن طبيعتِها، وعن شروطِها البَعيدة أو القريبة، أو عن سبب وجودها، وبكلمةٍ واحدة إنَّنا نَستطيع أن نتَّخذها موضوعَ علمٍ، فإذا فرضْنا أنَّ هذا العِلمَ قد انتهى واكتملَ لأصبحنا سادةَ العالَم في الأخلاق، ولرأينا أنَّ الأخلاقَ لم تعدْ أمرًا خارجًا عنّا، بل إنَّها تُقدِّمُ لنا نسقًا من الأفكار الواضحة المُتميِّزة، التي نُدرِكُ كلَّ صلاتِها بعضِها ببعضٍ»[2].

---

1 - Instrumental.

٢ - قباري؛ محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة، ج٢، ص.ص. ١٤٢-١٤٣.

بعدَ استعراضِنا لمفهوم النَّزعة النِّسبية، والكيفيّة التي نشأتْ بها وتطوَّرَت في الفلسفة الغَربية بنَوع من الاختصار، يُمكِنُنا أن نَستخلِصَ أنَّها تُعبِّرُ عن رؤية فئات واسعة من النّاس في مختلف الحضارات والأمم، وفي مختلف العصور، غير أنَّ اللافتَ للنَّظر أنَّ الفكرَ الغربيَّ الحديثَ والمعاصرَ أكثرُ اعتناقًا لها، وهذا يَقودنا للتَّساؤُل عن انعكاس ذلك على مواقفِه السِّياسية والفلسفيّةِ والدِّينية، وحتى الاقتصادية والعسكرية.

ثانيًا: الأنا والآخر في العقل الغربي الكولونيالي

ولكنْ قبلَ ذلك نودُّ التَّوضيحَ أنَّنا نقصِدُ بالعالَم هنا هو الآخَر، في مقابل الفِكر الغربيِّ، ولا نَقصد بذلك الكونَ، وما شابَه ذلك، فالعالَم هنا هو الإنسانُ غيرُ الغربيِّ، وكأنَّنا نتحدَّثُ هنا عن موقف الفكرِ الغربيِّ، والغربِ عمومًا من الغَير، الذي يَصِفُه سارتر في كتاباته بالجَحيم.

هذا التَّوضيحُ، يَضعنا من جديد أمامَ تساؤلٍ حقيقيٍّ، هل الغربُ هنا هو المُتأثِّرُ بالنَّزعة النِّسبيّة أم يَشمل ذلك حتى القائلينَ بمُطلقيّة القِيَم، من أنصار الاتِّجاه العَقلي، الذين يتلخَّصُ موقفُهم في مقولة ديكارت: «أنَّ العقلَ أعدلُ الأشياءِ جميعًا بينَ الناس».

كما يَقودنا من جهة أخرى للتَّساؤل حول مصادر العقل الغربيِّ بخاصّة، والحضارة الغربية بعامّة، من خلال ما كُتب من دراسات، تتبَّعَت مسارَ العقلِ الغربيِّ وتَجليّاته المُختلفة، إذ يُمكِنُنا أن نُلخِّصَ أهمَّ المصادرَ التي شكَّلَت العقلَ الغربيَّ، كما لخَّصَها أعمدتُه، أمثال ول ديورنت في كتابه الرائع: قصة الحضارة، أو ما عبَّرَ عنه روجيه غارودي في كتابِه حوار الحضارات، وما تحدَّث عنه هيجل في تاريخه للفلسفة، وشوبنهاور، ونتشه، في كثير من الأعمال، وغيرُهم من أساطين هذا الفكر.

- الحضارة اليونانية، بمختلف اتِّجاهاتها وفلاسفتها.
- الحضارات الشَّرقية، بمختلف تجلِّياتها: هندية، صينية، فارسية، مصرية.
- اليهودية، التَّوراتية والتلمودية.
- المسيحية البولوسية.
- الإسلام.
- دون أن نَنسى الحضارات الرُّومانية، التي عبَّرَت عنها وسيطرَت عليها لقرونٍ طويلة.

ومـع هذا التنوُّع، فـإنَّ العقلَ الغربيَّ بقـيَ وفيًّا لجملةٍ من التصـوُّرات دون غيرها، فرغم أنَّ المَسـيحيّةَ ظاهريًّا أصبحَت ديانتَه الأكثرَ انتشارًا، وخاضَ لأجلها حروبًا كثيرة، غير أنَّ الحقائقَ التي كشف عنها العصرُ الحديث والمعاصر، وخاصّةً أثناء الحركة الاستعمارية، بدايةً من سقوط غرناطة عام١٤٩٢م، فقد ابتعدَتْ بشـكل كبيرٍ عن هاته القِيَم، فهي لم تعدْ تَحكم علاقةَ الغرب بالعالَم ونظرته إليه، فهو يَقرأ المَقولةَ المَنسوبة لـ(بولس - Paul): إذا ضربكَ أحدُهُم على خدِّكَ الأيمنِ فأدِرْ له الأيسَرَ، تعبيرًا عن التَّسامُح، دون أن يأخُذَ بها، وإنَّما أصبحَ يأخذُ بمَقولةِ (هوبز - Hobbes): الإنسانُ ذئبٌ لأخيه الإنسان، وأفكار الفيلسوف العاجز (نيتشه - Nietzsche)، الدّاعية للقَضاء على الضُّعفاء والتَّخلُّص منهم.

وهـذه النَّزعة تَظهـر حتى عند رجال الدِّيـن الغربيِّين الكاثولكيِّين القُدمـاء، ويَكفي في هذا السِّياق أن نُشير للرِّسالة التي بعثَها جيروم إلى القديس أوغسطين:

Do you, who are young, and who have been appointed to the conspicuous seat of pontifical dignity, give yourself to teaching the people, and enrich Rome with new stores from fertile Africa. I am contented to make but little noise in an obscure corner of a monastery, with one to hear me or read to me."[1]

ومَضمون النَّصّ صريحٌ وواضحٌ في أنَّ الموظَّفَ الكنسيَّ الشّابَّ، مثلُه مَثَلُ غيرِه، فهو مكلَّفٌ بمُهمّة للغَرب بالدَّرجة الأولى، تَتمثَّل في نقل الخَيرات إليه من شمال إفريقيا، وليس هداية الناس كما هو مُعلَنٌ، وإذا أردنا أن نُبرِزَ بعضَ المواقف، التي يتَّخِذُها العقل الغربيُّ، فسوف نجدها وفيةً لـ(بروتاغوراس - Protagoras) المحارب للسيِّد المسيح، في عصرنا.

خاتمة

من النّاحية التاريخية، نَذكر الحركةَ الاسـتعمارية الحديثة، التي قادَت إلى اسـتعبادِ الشُّعوب الأخرى، والقضاءِ على شعوبٍ بأكملِها والحلولِ محلَّها، مثل ما فعلتْه أمريكا في الهنود الحمر،

1 - Jerome: Correspondence of Augustine and Jerome concerning the Latin Translation of the Bible. <https://www.bible-researcher.com/index.htm>.

فقد احتلَّت أرضَهُم، وشرَّدَتْهم، بل إنَّها عملَت على إبادتهم، وهذا ما يُمكِنُ ملاحظتُه من خلال تناقُص أعدادهم، فبعد أن كانَ عددُهم يُقارب الخمسينَ مليونًا قبلَ مجيء (كريستوف كولومبس - Christopher Columbus) في القرن السادس عشر، لم يَتبقَّ منهم إلا بضعة ألاف حاليًّا.

وحتى السِّينما في هوليود تُقدِّمُهم كبرابرة مُتخلِّفينَ يَستمتعُ البطلُ بقنصِهم، ويُرقَّى الجنديُّ الذي يَقتل منهم أكبرَ عددٍ. كما وقفْنا على استعبادِ الأفارقة ونَقلِهم للعالَم الجديد، فضلاً عن استعمارِ قارة إفريقية وسلبِ ثرواتها لغاية اليوم. وفي هذا السِّياق، يُمكِنُ الإشارةُ إلى الاتِّفاقيات التي بموجبها استقلَّتِ المَغربُ، والتي تمَّت سنة ١٩٥٦م، فقد نصَّتْ على الحفاظ على الامتيازات الفرنسية في المغرب لمئة سنةٍ قابلةٍ للتَّجديد.

والأمرُ نفسُه، بالنِّسبة لاتِّفاقية استقلالِ تونس، فقد احتفظَتْ من خلالها فرنسا بكثيرٍ من الامتيازات، وهو أيضًا ما برزَ مع بقية المُستعمرات الإفريقية والأسيوية، وهو نفسُ النَّهج البريطاني والأمريكي.

أمَّا ما يتَّصل بفلاسفة الغرب ومُنظِّريه، فقد وقفنا في السَّنوات الأخيرة على الدَّعوة لصِدام الحضارات، والقضاءِ على الآخر، من خلال ما عبَّرَ عنه (صموائيل هنتنجتون - Samuel Phillips Huntington)، و(فرنسيس فوكوياما - Francis Fukuyama)، وما تجسد في غزو العراق وأفغانستان، وليبيا وسوريا.

الهيمنةُ على العالم، وازدواجيّةُ المعايير، ففي الوَقت الذي نجدُ الغربَ يَسعى لنشر العلمانية وروحِ التَّسامح في العالَم، نجدُه يتَّخذ الشِّعارات الدِّينية المُتطرِّفة، كأساسٍ يُقيم عليه سياساته، وهذا ما عبَّرَ عنه من أيام وزير الخارجية الأمريكي (بلنكن - Blinken)، في فلسطين المحتلّة، أمام الكنيست الصهيوني: «لم آتيكُم كوَزيرِ خارجيّة الولايات المتَّحدة فحسب، وإنَّما كيَهوديٍّ فرَّ والدُه من القَتل»، لكنَّ هذا الوزيرَ نَسي أو تجاهل أن يقول لنا: ممَّن فرَّ والدُه، ألَمْ يَفرَّ من الغَرب نفسه النَّازي.

الانفرادِ بأسلحة الدَّمار الشّامل، والتَّهديد باستخدامها كلَّما أحسَّ بضعفِ حجّته، وتَحريكه للأساطيل وحاملات الطّائرات حتى ضدَّ الشُّعوب غير المُسلَّحة، إمعانًا في عنجهيّته، في الوقت الذي يَدعو للقَضاءِ على الدِّين الإسلاميِّ، ووصفِ المُؤمنينَ به بالإرهاب، نجدُه يُعدُّ لـ«معركة هرمجدون»، التي تَقول عنها كتبُه المُقدَّسة، أنَّها ستكون في آخِر الزَّمن، أمّا من النّاحية الاقتصادية،

فهو يمُارِسُ النَّهبَ، ويَجعل أسواقَ الغَيرِ مُجرَّدَ أماكنَ لتَصريف سلعه.

وبالنَّظر للحربِ التي تَشنُّها دولةُ الاحتلال الصهيوني على غزة هاتِه الأيام، تَبرز لنا القِيَمُ الغربيّةُ الحَقّـة، فبعد أن ظلَّ الغربُ يُوهِمُنا بقِيَمِ العدالة وحُقوق الإنسـان، نجـدُ دُوَلَه تَقف بكل قوّتها وأسـاطيلها في وجهِ شعبٍ أعزلَ لا يَملك حتى خبزًا وحليبًا لأطفاله، وتُحاصِرُ هذا الشَّعبَ، بل تُرسِلُ المُرتزقة لمساعدة الاحتلال الصهيوني.

ذلك أنَّ هذا الشَّعبَ بالنِّسبة لها لا يَستحقُّ الحياةَ، على عكس الشِّعب الأوكرانيِّ الذي تُرسِلُ إليه الأسـلحةَ والغذاءَ والدَّواءَ لتُمكِّنَه من الوقوف في وجه الرُّوس، ذلك أنَّ الرُّؤية النِّسـبية هي في الحقيقة التَّعبيرُ الصَّحيحُ والدَّقيق للعالَم الغربيِّ، فهو يَرى من خلالها مصالِحَه، وللأسف لا تَقفُ سَـقطات هذا العالَم عند ساسـته، بل نجدُها أيضًا عند فلاسفته أمثال هابرماس الذي ظلَّ يَنشر الأكاذيبَ حول ما كان يُطلِق عليه قِيَمَ التَّواصُل، بعد أن انكشفَت رؤيتُه الحَقّةُ بتأييده لإبادةِ أهل فسطين.

في الأخير يمُكِنُنا أن نقولَ إنَّ مَقولةَ (جورج بوش الابن - George W. Bush) لخَّصَت بصدق رُؤيةَ الغربِ البرغماتية الذّاتية للآخر، وهي: مَن لمْ يكنْ معَنا فهو ضدّنا، كما أعجبتني مقولةٌ كتبَها مواطنٌ تونسيٌّ، ورفعَها في مظاهرةٍ احتجاجًا على ما يَقوم به الصَّهاينةُ، من تَقتيل في فلسطين «أنَّ حقوقَ الإنسان التي يُنادي بها الغربُ لبعض النَّاسِ، وليسَت لكلِّ النّاسِ».

نتائج الدراسة

- العقـل الغربيُّ المُعـاصرُ الكولونيالي شـديد الارتبـاطِ بالعقل اليُونـانيِّ والرُّومانيّ القديمَين.
- العقلُ الغربيُّ لا يَرى إلا من خلال مصالحِه.
- المَسيحيّةُ، رغم كونها من مُكوِّنات هذا العقل، إلاّ أنَّها تأتي في الدَّرجة الثانية.

المصادر والمراجع

باللغة العربية

- روبن أنبيل، الإنسان هو المقياس: دعوة صريحة لدراسة المشكلات الحقيقية في الفلسفة، تر. مصطفى فهمي، القاهرة، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م.
- محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٠م.
- محمد إسماعيل قباري، علم الاجتماع والفلسفة، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعة، ٢٠٠٠م.
- عبد الوهاب الكيالي؛ وآخرون، موسوعة السياسة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د ت.
- موسى معيرش، القيم في الفلسفة الشرقية، ط١، دار الروافد، بيروت، ٢٠١٧م.
- وول ديورنت، قصة الفلسفة، تر. بدران محمد، دار نوبلس، تونس، ٢٠٠١م.

باللغات الاجنبية

- Anthony Kenny: A new History of western philosophy; clarendon; oxford.

المعاجم والموسوعات

- Boudon ; autres; Dictionnaire de sociologie; Larousse paris; 2001.
- The first edition 1998 London and New York: Routledge Encyclopedia of philosophy.
- Robert, Audi, The Cambridge dictionary of philosophy; Cambridge university press. second edition 1999.

مواقع الأنترنت

- Jérôme; Correspondence of Augustine and Jérôme concerning the Latin Translation of the Bible. <https://www.bible-researcher.com/index.htm>.

"الصّهْيُونِيّة غَير اليهوديّة"

■ قراءة: نبيل علي صالح[1]

ملخّص

لا شـكَّ بوجود حالة جهلٍ عامّة بحقيقة الظُّروف التاريخية التي مهَّدَت لسُطوع نجم الحركة الصهيونية منذ حوالي ثلاثة قرون، وذلك قبلَ أن يتمَّ تمكينُها وترسـيخُها كحركةٍ سياسـيّة مَدعومة غربيًّا من قبل مُؤسِّسها (ثيودور هرتزل - Theodor Herzl). وهذا في فَهمٍ طبيعـة هذه الحركة وما ترتَّبَ عليها من إلحاقِ أضرارٍ بالقضية الفلسـطينية، أخلَّتْ بمَسعاها لإثبات حقِّها والدِّفاع عنه.

وهذا يتطلَّبُ إعادةَ تسليطِ الضَّوءِ التّاريخيِّ على أصل المَشروع الصهيوني، ويَقتضي العـودةَ تاريخيًّا إلى الوَراء للبحث عن بدايات نشـوئه، ومن ثَمَّ احتضانه من قِبل الغرب فكريًّا وسياسـيًّا، بـل واعتناق التصوُّرات والأفكار الصهيونية (التوراتية) نفسـها، خاصّةً تلك المُتعلِّقة بأنَّ اليهودَ مُتحضِّرونَ ومُتقدِّمونَ، وعِرقُهم نقيٌّ وصافٍ، ولا بدَّ من إعادتهم لوطنهم الأمِّ فلسطين، لإقامة دولتهم وكيانهم السِّياسيِّ اليهوديّ فيها..!!.

ولولا هذا الدَّعمُ والتأييدُ الغربيُّ الإمبريالِيُّ الكامل للصهيونية، في أفكارها ومُخطَّطاتها ومشـاريعها، المُسـتمَدّة من تصوُّرات العهد القديم، ما كانَت لتنجحَ خططُهم في إقامة دولةٍ على أرض فلسطين المحتلة.

الكلمات المفتاحية: الصّهيونية، اليهودية، فلسطين، الثَّقافة الغربية، التَّوراة.

1 - كاتب وباحث سوري.

مقدمة

يتألَّـفُ هذا الكتابُ من ثمانية فصول، تبحثُ فيهـا الكاتبةُ عن أصل معنى كلٍّ من الصهيونية واليهوديّة، وصولاً لضرورة التَّفريق المنهجيِّ والعمليِّ بين المَفهومَين والمُصطلحَين على الصَّعيد الدِّينيِّ والسِّياسيّ، حيثُ تتوسَّـعُ في الحديث عن نشأة الصّهيونية، كاستراتيجيّةٍ ومنهجيَّةِ عملٍ سياسـيّةٍ، تمَّ اعتمادُها من قِبَل رموز الدِّين اليهوديِّ في أوروبا وأمريكا، مع بيانٍ للعلاقة بين هذه الظّاهرة والمُشـكلة أو القضيّة الفلسـطينيّةِ، وتداعياتِها اللاحقةِ، التي أدَّتْ إلى تَهجير شعبٍ من أرضِه، وإحلال شعبٍ آخَرَ مكانَه.

بطاقةُ الكتاب

عنوان الكتاب: «الصّهيونية غير اليهوديّة - جُذورها في التّاريخ الغربي».

مُؤلِّف الكتاب: ريجينا الشّريف.

دار النشر: المجلسُ الوطني للثّقافة والفنون والآداب في الكويت - سلسلة عالم المعرفة، رقم الكتاب: ٩٦.

سنة النشر: ١٩٨٥م.

عدد الصفحات: ١٩٩ صفحة.

اللغة الأصلية للكتاب: اللغة العربية. (صدرت للكتاب عدة ترجمات).

الفَصلُ الأوّل: المقدمة

تُميِّـزُ الكاتبـةُ في بداية هذا الفصل بين مفهومَـي الصهيونية واليهوديّـة، وتَنظرُ إلى مصطلح الصّهيونيـة كظاهـرةٍ فريدةٍ في التاريخ، حيـثُ يَرجع تاريخُ ظهـور فكرةِ «الصهيونيّة السِّياسـية

اليهوديّة» -كأداة أيديولوجيّة لكسبِ التّأييد الدّولي من أجلِ إقامةِ دولةٍ يهودية في فلسطين- إلى عام ١٨٩٦م الذي نشرَ فيه (ثيودور هرتزل) كتابَه حول «الدَّولة اليهوديّة»؛ ولم تُصبحِ الصهيونيّةُ السياسيةُ واقعًا قويًّا حاضرًا إلا «بعد أنْ تمَّ التَّوافُقُ في المؤتمر الصهيوني الأول، الذي عقدَه (هرتزل) عام ١٨٩٧م، على برنامج «بازل» الذي كان يَدعو إلى إقامة وطنٍ قوميٍّ آمنٍ ومُعترَفٍ به قانونيًّا لليهود في فلسطين»[١].

ومنذ الإرهاصات الأولى لكتابِها هذا تُؤكِّدُ الكاتبةُ على أنَّ «الصهيونية غير اليهوديّة عنصرٌ أساسٌ في التّاريخ الدِّيني والاجتماعي والسِّياسي الغربي، وهي تُشكِّلُ خطًّا موازيًا لتاريخ الصهيونية اليهوديّة، وليسَ خطًّا تابعًا له. وتُتابِعُ الكاتبةُ مُؤكِّدةً أنَّ تطوُّر الصهيونية غيرِ اليهوديّة بدأ منذُ عهد ما بعدَ حركة الإصلاحِ الدِّينيِّ في أوروبا، إلى أنْ تغلغلَت في الثَّقافة الغربية، لتَظهرَ حقيقةُ الصّهيونية -كما تُمارِسُها دولةُ إسرائيل الصّهيونية- كأحدِ وجوهِ الاستعمار الغربيِّ. وكان هناك توافُقٌ بينَ الصّهيونية كعَقيدة قوميّة، والسِّياسةِ الاستعمارية السّائدة»[٢].

الفَصلُ الثّاني: نشأةُ الصهيونية غير اليهوديّة

تُبيِّنُ الكاتبةُ أنَّ الصّهيونيةَ لم تَظهر على مسرح أوروبا السِّياسيِّ كأيديولوجية سياسية شاملة وحركة سياسية مُنظَّمة إلا في أواخر القرن التاسعَ عشرَ، ولكنَّها «كفكرة» سبقَت الصهيونيةَ اليهوديّة، إذ يَعود تاريخُها إلى ما قبلَ ذلك. إذ لم تَنشأ الفكرةُ الصهيونية -بما في ذلك أسطورتُها الأساسية- في هذه الفترة، ولكنَّها تَعود في تاريخها إلى ثلاثمائة عامٍ قبل المُؤتمر الصهيونيِّ الأوَّلِ الذي عُقد في «بازل» عام ١٨٩٧م.

وتُحدِّدُ الكاتبةُ معنى كلمة "أسطورة" من خلال التَّعريف الذي حدَّدَه (تالكوت بارسونز - Talcott Parsons)[٣]، بأنَّها نمطٌ نموذجيٌّ لاعتقادات سياسية وتاريخية واجتماعية مُتداخلة ومُتشابكة فيما بينَها، تتحوَّلُ إلى مبادئ أيديولوجيةً يُؤمِنُ بها المجتمعُ وتَنتقِلُ عبرَ الأحيال. والمثالُ هنا هي هذه الأساطيرُ المُؤسِّسة للفِكرة اليهوديّة، وهي مجموعةٌ مُترابطةٌ من عناصر

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص٨.
٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١١ وما بعدها.
٣ - عالم اجتماع أمريكي (١٩٠٢-١٩٧٢م).

تاريخية ووطنية ودينية وتشريعية، تَعود في أصلها وحقيقتها إلى ثلاثة عناصرَ تَدور حولَها طبيعةُ الشَّخصيّة اليهوديّة ذاتِها، وهي: «التَّوراة»، «الأرض المُقَدَّسة» (أرض الميعاد)، ومن ثَمَّ مقولة "شعبُ الله المختار». أي أنَّ الأساطيرَ الصهيونية، التي بدأ غرسُها في هذه المَرحلة المُبكِّرة في البيئة غير اليهوديّة، كانَت مُتوافِقةً مع تلك التي أصبحَت تُشكِّلُ في النِّهاية المَنطِقَ الرُّوحيَّ الباطنيَّ للصهيونية اليهوديّة السياسية، وهي أساطيرُ «الشَّعب المختار» و«الميثاق»، و«عودة المُشيَّح المُنتظَر»[1].

وتَغوصُ الكاتبةُ في التاريخ الغربيِّ باحثةً أكثرَ عن أساس وجود اليهود فيه، فتُؤكِّد على أنَّ أوروبا، قبل عهد الإصلاح الدِّينيِّ، لم تكنْ تَعتبر اليهودَ «الشَّعبَ المختار»، الذي قُدِّرَ له أن يعودَ للأرض المَقدَّسة، وإذا كان اليَهوديُّ مختارًا لأمرٍ ما فإنَّه اللَّعنةُ. وكان اليهود يُعتَبرونَ مارقينَ، ويُوصَمونَ بأنَّهم قَتَلةُ المَسيح. ولم تكنْ هناك مِن ذرّة حُبٍّ عاطفيٍّ للمَجد القديم للجِنس العبريِّ[2]، ولكنْ بعدَ تفجُّر «حركة الإصلاح الدِّيني في أوروبا» تغيرَّت الأمورُ، فقد كانَت المبادئ البروتستانتية التي وضعَتْها «حركة الإصلاح الدِّينيِّ» في القرن السادسَ عشرَ مُغايرةً تمامًا للمبادئ الكاثوليكية السّابقة، وتُوصَفُ هذه الحركةُ بأنَّها بعثٌ «عبريّ» أو «يهوديّ» تولَّدَت عنه وجهةُ نظرٍ جديدة عن الماضي والحاضر اليهوديِّ، وعن مستقبلِه بشكلٍ خاصٍّ..

وتشيرُ الكاتبةُ هنا إلى أنَّ تلك التَّغييرات اللاهوتيةَ، التي جاءت بها حركةُ الإصلاح، هي التي روَّجَتْ لفكرة أنَّ اليهودَ أمةٌ مُفضَّلة، وأكَّدَت على عودتهم إلى أرض فلسطين. وكلُّه كان يأتي تحتَ شعار العَودة إلى الكتاب المُقدَّس، ليُصبِحَ العَهدُ القديم مَرجِعًا أعلى للسُّلوك والاعتقاد، ومَصدرًا للمعلومات التاريخية العامة، وكانَت هذه هي المرحلة التي بدأتْ فيها عمليةُ التَّزوير التّاريخي. وكان لها أهمِّيةٌ كُبرى في تطوُّر الصهيونية المسيحية في عهد ما بعد الإصلاح الدِّينيّ، حيث تسرَّبَتِ الرُّوحُ العِبريّةُ إذا صحَّ التَّعبيرُ لكلِّ شيءٍ في الغرب، وعلى رأسها فكرة عَودة المُشيَّح المُنتظَر الذي سيُقيم مملكةَ الله في الأرض، ثُمَّ إلى الفنون والآداب، وكلِّ ما يتعلَّق برموز ومواقع الحضارة الغربية، أي أنَّها باتَت من معالم الثَّقافة اليَومية، وجزءًا من طقوس الكنيسة، وهذا ما رسَّخَتْه أكثرَ «الحركة البيوريتانية» التي تفجَّرَت إبانَ القرن السابعَ عشرَ في إنجلترا، وكانَت أكثرَ

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١٩-٢٠.
٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص٢٢.

أشـكال البروتستانتية تعصُّبًا وتطرُّفًا خاصّة في مَوروثات ومُستجدّات المسألة اليهوديّة، فجَلبت لإنجلترا، اجتماعيًّا وفكريًّا، الغزوَ «العِبريَّ» الذي كان قد اجتاح القارّةَ الأوروبيّةَ بأكملها.

وهكـذا أخذَت فكرةُ «الشَّـعب اليهودي المختار» تلعَـبُ دورًا مُتميِّـزًا في الفكر الإنجليزي البيوريتـاني والنِّظام القائم. كـما أصبحَت فكرةُ «ضرورة إعادة فلسـطين لأصحابها العبرانيِّينَ» شـائعةً في إنجلترا منذ أربعينات القرن السّـابعَ عشرَ، لتَنتشر وتتعزَّزَ هذه الفكرةُ إلى كلِّ الغرب الأوروبي والأمريكي[1].

الفَصلُ الثّالث: الفكرةُ الصّهيونية في الثَّقافة الأوروبية

تسـتمرُّ الكاتبةُ في التَّنقيـب والبحث التَّاريخيِّ عن أصلِ خَلْقِ وابتـداع الفكرةِ الصَّهيونيَّة في الفكر والثَّقافة الغربيَّـة (تحديدًا الأوروبية)، وتَعميقها في الذِّهنيـة الفردية والمجتمعيَّة الغربية، حيث تُشـير الكاتبةُ إلى تغلغُل الأفكار الصهيونية في كافة مواقع ومجالات حركة الثَّقافة الغربيةِ على مستوى الأدب والمسرح والفلسفة. ووصلَت حدودُ هذا التَّغلغُل الأدبيِّ (الشِّعري بالذات) إلى الطُّقـوس الدِّينية الألمانية خـلال القرن الثامنَ عـشرَ. حيثُ كانَت فكرةُ إعـادة اليَهود إلى فلسـطين هي الفكرة المُهيمِنة في مُعظَم تَرانيم حركة التَّقوية البروتستانتية الجديدة. إذ إنَّ معظَمَ هـذه التَّرانيم تُصوِّرُ التّاريخَ اليهـوديَّ في أبهى مراحلِه، بل إنَّ النـصَّ الألمانيَّ كان يتضمَّنُ في أحيانٍ كثيرة كلماتٍ عبريّةً[2].

كما يَلمسُ المرءُ -تُتابِعُ الكاتبةُ- في كتابات فلاسفة القرن السابعَ عشرَ والثامنَ عشرَ البارِزينَ، مثل: (جون لوك - John Locke) و(أسـحق نيوتن - Isaac Newton) و(جوهان جوتفريد هردر - Johann Gottfried von Herder)، التي كانت مناصرةً بشـكل عـامٍّ لقضية عودة اليهود إلى فلسطين، تَعاطُفًا واسعًا مع الفكرة، فقد جاءَ في "تعليق على رسائل القدِّيس بولسر" كتبَه (جون لوك) واضعُ النَّظرية السِّياسـية اللِّيبرالية "أنَّ اللهَ قادرٌ على جمعِ اليهودِ في كيانٍ واحد، وجَعْلِهم في وَضْعٍ مُزدهِرٍ في وطنِهم". كما شَهدَ عصرُ المَذهب العقليِّ كذلك ظهورَ نوعٍ جديدٍ من الأدب المُتعلِّق بفلسطين، لا كبلدٍ للتَّوراة، بل كوَحدة جغرافية يَنبغي استكشافُها علميًّا. ولقد كانَ الرَّحالةُ

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ٢٣-٤٠.
٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص٥٥.

العلماءُ يَقومونَ برَحلاتِهم للشَّرق سَعيًا وراء المَعرفة والمَعلومات لا من أجل السِّياحة الدِّينية[1].

وتستمرُّ الكاتبةُ في استعراض المذاهب الفكريّة والفلسفيّة التي عمَّقَت المَبادئَ اليهوديّةَ الواردةَ في العهد القديم في واقع الفكر والثَّقافة الغربية، كما تَتناول أسماءَ كثيرٍ من الشَّخصيات والنُّخَب الثَّقافية والسِّياسيّة الغربيّة، التي أسهَمَت في تأصيل تلكَ المبادئ في الفكر والسُّلوك السياسيِّ الغربيِّ على مُدّةٍ طويلةٍ امتدَّتْ لعدة قرونٍ قبلَ صدور قرار الاستيطان في فلسطين.

فمثلاً، في الوقت الذي كانَت فيه حركةُ «التَّبشير الإنجيلي» تَجتاحُ إنجلترا في بداية القرن التاسعَ عشرَ كانَت أوروبا غارقةً في الرُّومانطيقيّة، حيثُ حلَّ تمَجيدُ الغرائز والعَواطف محلَّ حركة التَّنوير العقليِّ وتَبجيل الفكر والعَقل. وقد ابتهجَ كثيرونَ ممَّن كانَت تُضايقُهُم هجماتُ الرَّبّانيِّينَ والمُتشكِّكينَ بفلسفة تَعترفُ بفَضائل الإيمان، وتمُجِّدُ عالَمَ الرُّوح.

وقد بسطَت المثاليّةُ الرُّومانطيقيّةُ نفوذَها على كثيرٍ من الاتِّجاهات، وكانَت تتضمَّنُ احترامًا عَميقًا للطَّبيعة والتَّقاليد والدِّين، بالإضافة إلى الفكرة الرُّومانطيقية عن الشَّعب، وهي فكرةٌ مُبهَمةٌ في اللُّغة الإنجليزية، ويَحتاجُ التَّعبيرُ عنها إلى ثلاث كلمات هي: الشَّعب والأمّة والجنس، وحلَّت فكرةُ «الشَّعب» الأكثرُ مُرونةً، وما يَقترنُ بها من مبادئ رومانطيقية، محلَّ فكرة «المُواطَنة» الشَّرعية والعَقلية التي كانَت سائدة في القرن الثامنَ عشرَ. وقد أثَّرتْ مثلُ هذه الأفكارِ التي كانَت مُتأثِّرةً بالمدِّ المُتصاعد للقَوميّة في المسألة اليَهوديّة.

وقد وَلَّدَ التَّركيزُ الرُّومانطيقيُّ على الإيمان والتَّقاليد إعجابًا جديدًا بالشَّعب والجنس اليهودي، ولكنَّه كان قائمًا على مفاهيمَ علمانيّةٍ بدلاً من المَفاهيم الدِّينيّة. وتُؤكِّدُ الكاتبةُ على أنَّ الصهيونيّةَ وجدَت الرُّومانطيقيّةَ تعبيرًا لها في أدب القرن الثامنَ عشرَ وكتاباته السِّياسيّة، فلم تَعُد الشَّخصياتُ اليَهوديّة بارزةً فحسب، بل أصبحَت تُعامَلُ بأشدِّ الاحترام، ولم تكنْ هذه الشَّخصياتُ تُقدَّم كأفرادٍ بل كأعضاءٍ في أمّةٍ تَحظى بالشَّفقة أحيانًا بسبب ما تُقاسيه من وَيلات، وتَنال في الغالب الإعجابَ بسبب طاقتها الهائلة على الاحتمال والبَقاء. وكان اليَهودُ يَلقَونَ دائمًا التَّشجيعَ للعودة إلى كيانِهم القوميِّ الأصليِّ في فلسطين[2].

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصّهيونية غير اليهودية، ص.ص ٦٠ وما بعدها.
٢ - ريجينا الشريف: الصّهيونية غير اليهودية، ص.ص ٦٤ وما بعدها.

الفصل الرّابع: القضية اليهوديّة تلتقي مع المسألة الشَّرقية

بيَّنَت الكاتبةُ في هذا الفصل بشكل مُوثَّق ما جرى من ربطٍ بين القضية اليهود والمسألة الشرقية، حيث تُشير بدايةً إلى ما قام به (نابليون بونابرت - Napoléon Bonaparte) من دعوة اليهود "الإسرائيليين" للمشاركة في حروبه، وصولاً لإقامة وطنٍ لهم في فلسطين، وهو ما حدث قبل "وعد بلفور" بحوالي ١١٨ سنة. حتّى إنَّ (وايزمان - Chaim Azriel Weizmann) وصفَ (نابليون) بأنَّه "أوَّلُ الصهيونيِّينَ الحَديثينَ غيرِ اليَهود". وقد جاءَ خطابُ (نابليون) وبيانُه خلال الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٩م. ورغم أنَّه لم تتمخَّضْ كثيرٌ من النَّتائج السّياسيّة على تلك الدعوة، فإنَّ جيلَ الصهيونيِّينَ اليهودِ الجديدَ، الذي كانَ آخذًا في الظُّهور على مسرح التاريخ اليَهودي، تبنَّى تلك الأفكارَ وحملَها على عاتقه.. لتَبرُزَ مُجدَّدًا فكرةُ البعثِ القوميِّ اليَهوديِّ من جديد في الثَّقافة الغربية الأوروبية، في أكثر الأوقات ملاءمةً من النّاحية السِّياسية. حيثُ كان الرأيُ العامُّ يُؤيِّدُ منذُ أمدٍ طويل موضوعَ الاستيطان اليهودي في فلسطين، أمَّا على الصَّعيد السِّياسيِّ فقد كانَت قضيّةُ الاستيطان جديدة.

وهنا يَبرُزُ دورُ (بالمرستون - Palmerston)[1] كشخصيّة سياسيّة واقعيّة كانت مُهتمّةً بالمكاسب السِّياسيّة التي يمُكنُ أن تَجنيَها بريطانيا من خطّة الاستيطانِ اليَهوديِّ في فلسطين. فقد كانَ هذا الرَّجلُ أوَّلَ مَن اكتشفَ الفكرةَ السِّياسيّةَ في صلبِ الحلمِ الدِّينيِّ البروتستانتيِّ. وهذا ما كان قد قام به وسَعى إليه في كلِّ حركته السّياسية. وأمَّا عن تلك المكاسبِ التي كان يَراها، من خلال تَصميمه على تسويةِ المسألة الشَّرقية في تمَكين اليَهود من الاستيطان في فلسطين، فهي تتجسَّدُ من خلال مَكسبَين: مكسبٍ مباشر، وهو وجود مجموعة مُواليةٍ لبريطانيا في منطقةٍ ليس لها فيها مَن يُواليها، كما أنَّ أهمِّيَتَها بالنِّسبة للمصالح الاستعمارية البريطانية في الخارج كانَت تتزايد. ومكسبٍ غيرِ مباشر، وهو تدفُّق رأس المالِ والعَمالة اليهوديّة التي يَحتاجُها السُّلطانُ العثمانيُّ لدعم نظامِه الاقتصادي المُنهارِ تَقريبًا[2].

الفَصلُ الخَامس: الطَّريقُ إلى «وعد بلفور»

كانت القضيّةُ الأساسيّةُ التي شغلَت صُنّاعَ القَرار في بريطانيا بالذات، في ذلك الوقت، هي كيفيّةُ تحويلِ حلمِ اليهود في دولةٍ ووطنٍ إلى واقعٍ حيٍّ ومَلموس. ولكنْ بعدَ ترسيخ هذا

١ - وزير خارجية بريطانية الذي عاش ما بين عامي ١٧٨٤-١٨٦٥م.
٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصّهيونية غير اليهودية، ص.ص ٧٨-٨٥.

الفكرِ والمبدأ في الواقع السِّـياسيِّ والثَّقافيِّ الغربيِّ، كان الأمرُ يَحتاج لإنفاق ماليٍّ كبير، لهذا تمَّ تأسيسُ ما يُسمَّى بـــ "صندوق استكشاف فلسطين"، ليكونَ واحدًا من المؤسَّسات والمُنظَّمات الكثيرة التي ازدهرَت في إنجلترا خلال العقود الأخيرة من القرن التاسـعَ عشرَ، والتي كانَت تُقدِّمُ استشاراتِها ومساعداتِها المادية والشَّخصية لليَهود الرّاغبينَ في الاستيطانِ في مستعمراتٍ زراعيّةٍ في فلسطين.

والأمرُ كان يتطلَّـبُ أيضًا -تتابعُ الكاتبةُ- ثلاث أو أربعَ خطوات ضروريّـة لبناءِ قوميّة يهوديّة في فلسـطين هي: شراءُ الأرض من أصحابهـا الحاليِّينَ أولاً، وجَعْلُها ذاتُ قيمةٍ للمُسـتأجرينَ والفلاحينَ عن طريق إنفاق مبلغٍ من المال لتَحسينِ أحوالِها، ثم تأجيرها لمستأجرينَ يهودٍ بشكلٍ دائم وبأجور ثابتة. وثالثةُ الخطواتِ هي توجيهُ رأس المال لا إلى اسـتغلالِ الأرض فحسب، بل لإقامةِ مصانعَ ذاتِ طبيعةٍ وأهميّةٍ قوميّة. ورابعةُ الخطوات هي تَوجيهُ هذه المصانع وغيرِها لجَعلِ البلدِ في وضعٍ مُناسـبٍ للدِّفاعِ العسكريِّ، بحيثُ تتمكَّنُ الأمّةُ من المُحافَظةِ على استقلالها من كلِّ الغُرباءِ عندما يَحينُ الوقتُ للدِّفاع عنها.

وهكذا تعمَّقَت الرُّؤيةُ السِّياسـيةُ الخاصّةُ بوطنِ اليَهـود لدى الإنجليز وغالبيّة الدُّول الغربية، ومع ميلادِ المُنظَّمـةِ الصهيونيّة في عام ١٨٩٧م، خلالَ المُؤتمر الصهيونيِّ الأوَّل الذي عُقدَ في "بازل" السّـويسرية، وضعَ اليهودُ أنفسُـهم، للمرّةِ الأولى، مُسـودّةَ البرَنامج السياسيِّ الذي كان أساسًـا للحركة الصهيونية في القرن العشرين، والذي يُؤكِّدُ عـلى أنَّ الصهيونية تُكافِحُ من أجل إنشاء وطنٍ للشَّعبِ اليهوديِّ في فلسطين، يَحميهِ القانون، ويَرى المؤتمرُ أنَّ الوسائلَ التالية تُؤدِّي إلى الغايةِ المَنشودة:

١. تشجيعُ استعمار العمالِ اليهودِ الصِّناعيِّينَ والزِّراعيِّينَ لفلسطين على أُسس مناسبة.
٢. تَنظيمُ وربطُ جميعِ اليهود عن طريق المُؤسَّسـاتِ المحلية أو الدّولية طبقًا لقانون كلِّ دولة.
٣. تعزيزُ وتشجيعُ الإحساس والشُّعور القوميِّ اليهوديّ.
٤. اتِّخاذُ الخطواتِ التَّمهيديّةِ للحصولِ عـلى موافقةٍ حكوميّةٍ حين يكون ذلك ضروريًّا للوصول إلى أهداف الصّهيونية[1].

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ٩٥-١٠٣.

لقد كانَ قادةُ الصّهاينة الأوائلُ، وعلى رأسهم (هرتزل)، مُدركينَ أنَّ إنجلترا هي «نقطة أرخميدس التي يَجب تطبيقُ مبدأ الرّافعةِ عندَها». وهو ما أعلنَهُ بشكلٍ مباشرٍ وبكلِّ ثقةٍ في كلمة الافتتاحِ للمُؤتمر الصهيونيِّ الرابع عام ١٩٠٥م، والذي قال فيه: «من هذا المكانِ ستُحلِّقُ الحركةُ الصهيونيّةُ عاليًا. إنجلترا العظيمة، إنجلترا الحُرّة، إنجلترا التي تمدُّ عيونَها إلى البِحار السَّبعة ستَفهَمُنا".

وهكذا وصلَتِ الأمورُ إلى عهد (بلفور - Balfour)[1]، الذي كان يُؤمِنُ بالمزايا الفريدة للجِنس الأنجلوسكسوني، كما كان يمتلكُ صهيونيّةً مُتَّقدةً وقويّةً نابعةً من تصوُّره للتَّميز العُنصريِّ لليهود، الذي يَعتبر العرقَ والدِّينَ والوطنَ بالنِّسبة لهم أمورًا مُتداخلةً معًا. فتمَّ إعلانُ وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧م، وتمَّ فيه الاعترافُ بأمة اليَهود التي لها الحقُّ في الإقامة على أرض فلسطين. حيث تمَّ دمجُ هذا الوَعد في الانتدابِ، ووافقَتْ عليه عصبةُ الأُمم[2].

الفَصلُ السّادسُ: الصّهيونيةُ في أميركا

تُشيرُ المُؤلِّفةُ إلى أنَّه لم يكنْ لدى الحكومة الأميركية، حتَّى الحرب العالمية الأولى، أدنى اهتمامٍ بالصهيونية كحركةٍ سياسية، ولكنَّها كحركةٍ رُوحيّةٍ كانَت تُشكِّلُ عنصرًا هامًّا في الفِكر الأميركي والحياة السياسية، منذُ الأيّامِ الأولى للاستيطان الأوربيِّ في العالَم الجديد، خلالَ النِّصف الثاني من القرن السّابعَ عشرَ.. حيثُ كان الحَجيجُ يَحملونَ معَهم الثَّقافةَ العبريّةَ إلى هذا العالم. وقد عبرّ «ليكس» عن ذلك بقوله: «إنَّ الملاطَ العبريَّ قَوَّى أُسسَ الدِّيموقراطيّةِ الأمريكية».

وهكذا فقد هيمَنَت الثقافةُ العبريّةُ من خلال العَهد القديم على فكرِ وسلوك وحياة الأمريكيِّينَ، حتَّى أصبحَت إرثًا وتقليدًا أمريكيًّا بامتياز. وهذا الميلُ الرُّوحيُّ والإرثُ الدِّينيُّ المُتعمِّقُ باتَ لاحقًا سياسةً وخَطًّا سياسيًّا لدى النُّخب السياسية الأمريكية، بل وصلَ حدودَ الاعتناقِ كمَذهبٍ دينيٍّ وسياسيٍّ. وهذا الشَّكلُ المُتميِّزُ للتَّفكير الألفيِّ لم يَجعلِ الطَّوائفَ التي تُؤمِنُ بالعِصمة الحرفيّةِ صهيونيةً فحسب، ولكنَّهُ أوجدَ زُعَماءَ يُطالبونَ بعَملٍ شعبيٍّ لإعادةِ اليَهودِ إلى فلسطين.

---

١ - رئيس وزراء بريطانيا الأسبق.

٢ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١١٢ وما بعدها.

وتَستعرضُ الكاتبةُ عددًا من الأسماء السِّياسية الأمريكية البارزة، التي اعتنقَت الفكرَ الصهيونيَّ في ممارساتها وسلوكها، وتحرَّكَت على طريق الدَّعوة والسَّعي لإيصال اليَهود إلى فلسطينَ كوَطنٍ نهائيٍّ لهم، مثل: (وليام بلاكستون - William Blackstone)، و(وودر وولسن - Woodrow Wilson)، و(روزفلت - Roosevelt)، و(ترومان - Truman) ... وغيرهم[1].

الفَصل السّابع: الصّهيونية والعُنصريّاتُ الحَديثة

تُؤكِّدُ الكاتبةُ في هذا الفصل على أنَّ الفهمَ الواضحَ لظاهرة الصهيونيّةِ غيرِ اليهوديّة، بمنظورِها التّاريخيِّ الكاملِ، تمُكِّنُنا من خلعِ قناعِ أسطورة الصّهيونيّة ورُؤيتِها على حقيقتِها الأساسية، وهي أنَّها نتاجُ الفلسفات الأوروبية العنصرية والاستعمارية. إذ لم تكنِ الصهيونيةُ في أساسِها حركةً يهوديّةً مُتميِّزةً، وكانَت تُواجِهُ معارضةَ اليهود المُتديِّنينَ الذين أنكروا محاولةَ إعطاء أبعادٍ جغرافيّة للمَملكة الرُّوحية من جهة، كما كانَت تُواجِهُ من جهة أخرى معارضةً من جانب اليهود الدّاعينَ للحقوق المَدنيّة، الذين كانوا يَسعَونَ إلى الخلاص الكاملِ وسياساتِ الهجرةِ المَفتوحة. ولكن معَ رسوخِ الفكرِ والثَّقافة العِبرية واندماجها (بل وتَجذُّرِها) في الثَّقافة الغربية، وتَحوُّل هذا الفكرِ التّاريخيِّ القديمِ إلى مبادئ عملٍ سياسيٍّ عُنصريٍّ، تجسَّدَ في الأيديولوجية الصهيونية، باتَ الاستعمارُ الصهيونيُّ -كما تقولُ الكاتبةُ- جزءًا لا يتجزَّأُ من الحركة الاستعماريّة الأوروبيّةِ الكُبرى، منذ بدايات القرن الماضي. وهذا يَكشفُ بوضوحٍ عن الارتباط العضويِّ الوَثيقِ بين الصهيونية والعُنصريّة واللاساميّة والنّازية والتَّمييز العنصريِّ[2].

تَعتقدُ الكاتبةُ أنَّ الأفكارَ العنصريّةَ -بما في ذلك الصّهيونية واللاسامية والنازية- لم تأتِ من فراغ، بل كانَتْ مرتبطةً بقوى تاريخيّةٍ مُحدَّدةٍ تَسود في مجتمعٍ يَسعى إلى الشَّرعية، وتطوُّرُ العنصريّةِ بأشكالها المُختلفة كانَ مُتوافقًا مع ظهورٍ وتوسُّعِ الاستعمارِ الأوروبيِّ القائمِ على استعمار العالَمِ غيرِ الأوروبيِّ. وقد استُغلَّتِ العُنصريّةُ وفلسفتُها الأساسيّةُ لجعل النِّظامِ الاستعماريِّ شرعيًّا، ولتَقديم الدَّعمِ الأيديولوجيِّ لعملية الاستعمار، «واجب الرَّجل الأبيض» هو أن يُحضِّرَ الأُممَ «المُتأخِّرةَ» غيرَ القادرة على مساعدةِ نفسِها.

---

١ - ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١٢٩-١٥٩.

٢- انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص١٦١.

هذه الفكرةُ الاستعلائيّةُ الفَوقيّةُ في الواقع السِّياسيِّ الغربيِّ -والفكرُ الصهيونيُّ جزءٌ أساسيٌّ منه- يمُكنُ القولُ إنَّها مُتأصِّلةٌ في الثَّقافة الغربية (والثقافةُ العبريّةُ أصلٌ فيها)، وما فَتِئَت تَنظرُ للآخَر المُختلف والمُغاير كمُجرَّد كائن وَظيفيٍّ، لا يَنتمي للحضارة الغربية المُتقدِّمة، وبالأساس عاجزٌ عن فَهمها والالتحاق برَكبها لأنَّه ناقصٌ عقليًّا وفكريًّا.

وتُبيِّنُ المؤلِّفةُ أنَّه مع التوسُّع الاستعماريِّ البريطانيِّ في الشَّرق الأوسط أصبحَ المُواطنونَ العربُ هدفًا مَحتومًا للعنصريّة، بسبب ديانتهم وثقافتهم ولَونهم، وفوقَ ذلكَ كلِّه بسبب مُعارَضتهم للتَّدخُّل الأجنبي. وكان اليهودُ يَعنون بالنِّسبة لفلسطينَ «التَّقدُّمَ» و«إقامةَ حكومةٍ حديثة»، في حين يَرمزُ العربُ إلى الرُّكود والفُجور والحُكم المُتعفِّن والفَساد والمُجتمع الكاذب. وكان الصهيونيُّونَ غيرُ اليهود يتَّهمونَ العربَ باستمرار بالرَّجعية، ويُلقونَ مسؤوليّةَ انحطاط فلسطينَ والشَّرق الأوسط على كَواهلهم. وقد هيَّأتْ هذه النَّظريّةُ العُنصريّةُ المَسرحَ للاستيطان الاستعماريِّ اليَهوديِّ في فلسطين[1].

وتُوثِّقُ الكاتبةُ الرّابطةَ العميقةَ القائمة بين الحركة الصهيونيّة والنّازية، حيثُ كان آباءُ النّازية السِّياسيُّون والأيديولوجيُّون يُشاركونَ الصّهيونيِّينَ فذلكاتهم. ففكرة «الجنس المُختار» عند النّازية لم تكنْ تَختلفُ عن فكرة «الجنس المختار» عند الصهيونيّة إلا في هوية هذا الجنس: هل هو الجنس الآريُّ أو اليهوديُّ؟ ولم يكن الصهيونيُّونَ اليهودُ وغيرُ اليهود يَستشعرونَ أيّةَ كراهية للنّازية وسياساتها وممارساتها اللاساميّة.

وقد طلبَ (وايزمان) ذاتَ مرّةٍ من (ريتشارد ماينرتزهاجن - Richard Meinertzhagen) أنْ يُوضِّحَ الصّهيونيةَ ومَضامينَها لهتلر، الذي كان يَعتقدُ أنَّه "غيرُ معادٍ للصهيونية".. وأمّا سياسةُ التَّمييز العنصريِّ فقد كانَت سمةً لازمةً لآباء الصهيونية الأوائل، فقد كان التَّشابُه بين الصهيونية وسياسة التَّمييز العنصريِّ في جنوب إفريقيا يَكمُنُ في احتكام كلٍّ منهما لنفوذٍ "حضاريٍّ" نابعٍ من المبادئ التَّوراتية. والملاحَظ هنا أنَّ السُّكان البيضَ في جنوب أفريقيا تربَّوا ونشؤوا على التَّعاليم التَّوراتية والعهد القديم.

وتُشير الكاتبةُ إلى أنَّ الأُسس النَّظرية المُشتركة للصهيونية والتَّمييز العنصريِّ تُوِّجَت تتويجًا بالعلاقة الخاصّة التي قامَت فيما بعدُ بين حكومة إسرائيل والنِّظام العنصريِّ في جنوب إفريقيا،

١ - انظر: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص١٦٥.

واستمرَّت الرَّوابطُ الشّاملةُ بينَهما منذ عام ١٩٤٨م على جميع المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية، مُتحدِّيةً القوانينَ الدّوليةَ وإداناتِ التَّمييزِ العنصريِّ.[١]

الفَصلُ الثّامن: فلسطين اليوم، الثَّقافة السّياسية والسّياسة الخارجية

إنَّ محاولةَ التّعمُّق -حتّى لو كانَ سطحيًّا- في فهمِ الصّهيونيّة غيرِ اليهوديّة، ووَعي تاريخِها وتحالفاتِها وعلاقاتِها وآليّاتِ عملِها، سيُبيِّنُ لنا بشكلٍ كاملِ الوضوحِ عمقَ وتجذُّرَ هذا الإسنادِ والتأييد الغربيِّ للدَّولة الصّهيونية في فلسطين، التي كانوا يَنظرونَ إليها على أساس أنَّها أرضُ الميعاد (أرض اللَّبَن والعَسل). وهذا يَعني أنَّ الصهيونيّةَ العالميّةَ، التي نشأتْ في أحْضانِ الغَرب والثَّقافةِ السّياسيةِ الاستعماريةِ الغربيّة، كانَت عاجزةً بمُفردِها عن تَحقيق حُلمِ إقامةِ الدَّولةِ المَنشودة في فلسطين، لولا ما تَلقَّتْه من دَعمٍ واسعٍ، سياسيٍّ واقتصاديٍّ وعسكريّ، من دولِ الغربِ وعلى رأسِها بريطانيا وأمريكا.

وقد استطاعت الحَركةُ الصهيونيّةُ -وهذا ما تؤكِّده الكاتبةُ- أنْ تضمَّ إلى صفوفها مُؤيِّدينَ من بين غيرِ اليهود في العالم الغربيِّ، قبلَ أنْ تجتذبَ تأييدًا يهوديًّا واسعًا نتيجةً للحَرب العالمية الثانية؛ خاصّةً أنَّ الانسجامَ السياسيَّ بين الصهيونية والثَّقافة الغربية أقدَمُ عهدًا من ذلك القائم بين الصهيونية وأنصارِها الطَّبيعيِّينَ، وهم اليهوديّة ويهودُ العالَم.

وتُشيرُ الكاتبةُ هنا إلى أنَّ الصهيونيةَ، في نظرِ غالبيّةِ غيرِ اليهودِ في الغربِ، ليسَت حركةً عُنصريّةً، ولكنَّها قوّةٌ مَعنويّةٌ، كانَ يُنظَرُ إليها أولًا كعَقيدة دينيةٍ ذاتِ جذور عميقةٍ في تاريخ الحضارة الغربية. وقد قامَ غيرُ اليَهود بنَقلِ ونَشرِ أفكارِها الرَّئيسة ومبادئِها الأساسيّة تحتَ أقنعةٍ دينيّةٍ أو اجتماعيّةٍ أو اقتصاديّة أو استراتيجيّة مُتنوِّعة. والصّهيونيّةُ غيرُ اليهوديّة لدى تَطبيقها على الصِّراع الفلسطينيِّ الآنَ لا تَزال عنصرًا رئيسًا في عمليّةِ صُنعِ قرارِ السِّياسةِ الخارجيّةِ للأُمم الغربيّةِ، وخاصّةً الولايات المتحدة وأوروبا الغربية[٢].

وتُبيِّنُ لنا الكاتبةُ أنَّ فكرةَ إعادة اليهود إلى فلسطين -كأمّة- هي فكرةٌ شائعةٌ ورائجةٌ في الأوساط الغربيــة النُّخبويّة والمُجتمعيــة خلال القرون الأربعــة للتّاريخِ الغربيِّ الحديــث. وكانَت دائمةَ

١ - راجع: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١٦٧-١٧٣.
٢ - راجع: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص١٧٧.

الحضور وماثلةً باستمرار في الثَّقافة الغربيـة الحديثة، في المجال المَعنويِّ الرُّوحيِّ أولاً، ومن ثَمَّ في المجال السياسيِّ الدُّنيويِّ بعدَ ذلك.

فقد كانَت التَّوراةُ في المعتقدات الغربيّة -الأميركية بالذّات- مَصدرَ الأمان، وقوّةً مُتماسكةً في الطُّموح القوميّ، فلُغةُ التَّوراة (العهد القديم) وخيالاتُها وتَوجيهاتُها الأخلاقيّةُ وكفاحُها البشريُّ تُشكِّلُ جزءًا مُهمًّا من الشَّخصيّة الأميركيّة، والأنبياءُ والوثنيُّونَ والمُلوكُ والعامّةُ الذينَ عاشوا في إسرائيلَ القَديمة، منذُ قرون عديـدة، نَهضوا للقِيام بأدوارٍ مُعاصرةٍ في التّاريخ الأميركيِّ في أيامه المُشرقة والعَصبية على حدٍّ سواء.

وقد وصلَت حدودُ دَعم العَقيدة الصّهيونيّة العنصريّة بكلِّ متعلَّقاتها إلى المستوى السياسيِّ الرَّسميّ، حيثُ إنَّ كلَّ رُؤساء الولايات المتَّحدة يُؤمنونَ بالعلاقة الخاصّة العَميقة والفَريدة مع إسرائيل، كدولة ودين وأُمّة، حتَّى وصلَت حالةَ التَّماثُل الشَّخصيِّ الذّاتيّ. بل باتَت العلاقةُ قائمةً على الاندماج المَصلَحيِّ الكامل، بحيثُ تَبدو إسرائيلُ أصلَ ولُبَّ الغرب، وليسَت مُجرَّدَ جُزء من مُحيطه وقشرته. وهذا الدَّعمُ والتأييدُ الغربيُّ (الأمريكي) لإسرائيل هو الثابتُ الجَوهريُّ والرَّئيسيُّ الباقي في سياسات هذا الغَرب -خاصّةً الأميركيّ- تُجاهَ كلِّ مَلفّات ومَشاريع ومُتغيِّرات السِّياسة الدّوليّة[1].

خاتمة

مع نهاية قراءتنا لهذا الكتاب نُسجِّلُ للكاتبة (ريجينا الشريفة) مَوضوعيّتَها وعِلميّتَها ومَوسوعيّتَها في تَناوُل ومعالجة أهمِّ قضيّة فكريّة وسياسيّة وتاريخيّة في مَنطقتنا العربية، التبسَتْ على أذهان كثيرينَ غربًا وشرقًا، حيثُ قدَّمَتْ عرضًا فكريًّا وتاريخيًّا مُوثَّقًا لظاهرة الصهيونية، وأشارَت إلى اختلافها عن مفهوم اليَهوديّة.

وخلال ذلك كان حرصُ المؤلِّفة كبيرًا جدًّا لجهة التَّوسُّع في الرُّجوع إلى المصادر واستقاء المَعلومات (الوافرة التي أوردَتْها) من منابعها الأساسيّة الأصليّة، وهذا ما لاحظناهُ، فقد كان كتابُها هذا مليئًا بالوَثائق والمُستندات ذات الصِّلة بمَوضوع بحثها.

وتأتي أهميّةُ إعادة تَسليط الضَّوء على هذا الكتاب، في وقتنا الحاضر، لكشف حقيقة الصّهيونيّة

١ - راجع: ريجينا الشريف: الصهيونية غير اليهودية، ص.ص ١٨١ وما بعدها.

العُنصريّة، ونحنُ نَشــهَدُ إحدى أهمِّ النَّتائجِ الكارثيّة لهذا الدَّعمِ والإسنادِ والاحتضانِ التّاريخيِّ الغربيِّ -والأمريكيِّ منه بالذّات- للمَشروع الصهيونيِّ ودولتِه المَزعومةِ في منطقتِنا، التي تمُارِسُ فيها دولةُ الكيانِ العِبريِّ قتلَها وتَشريدَها للشَّــعبَينِ الفلسطينيِّ واللُّبنانيِّ، وتَستوحشُ في إرهابِها الدَّمويِّ ضدَّ كلِّ شــعوبِ المنطقة، في ظلِّ الحمايةِ الغربيّةِ والأمريكيّةِ الكاملة، سياســةً ودَعمًا وتسليحًا عسكريًّا.

"الصهيونية، الغرب والمُقدَّس والسِّياسة"

■ قراءة: لينا السقر[1]

ملخّص

ارتبطَت الصّهيونيّـةُ بالمَصالحِ الإمبرياليّة الغربيّة، وخاصّةً بريطانيـا، التي دعمَتْ إقامةَ وطنٍ قوميٍّ لليهود في فلسـطين، واسـتغلَّت الصّهيونيّةُ الظُّروفَ الدّولية، وأبرزُهـا اضطهادُ اليَهود في أوروبا، لتَدفعَ بالهِجرة اليَهوديةِ إلى فلسطين، بدَعم بريطانيٍّ، وتَعمل على تأسيس دولة "إسرائيل" عام 1948م، وهو ما شـكَّلَ صدْمَةً ثقافيَّةً وعسـكريَّةً للعرب. ثم تطوَّر المشروعُ الصهيونيُّ ببُطءٍ عبرَ عدَّة مَراحل، بدأها اليَهودُ بتأسيس مُستوطَنات في فلسطين، وتَقديم دَعم لبريطانيا في الحرب العالميّـة الثّانية، في حينَ كانَت الدُّولُ العربيّةُ مُنشـغِلةً بمَشـاكلِها الدّاخليةِ، في مختلف مراحلِ تطوُّرِ "النِّظام العالميِّ الجديد".

وبعدَ الحربِ العالميّة الثّانية كانَ مشروعُ "دولة إسرائيل" حاضرًا في المُخيِّلة الجيواستراتيجيّةِ الغَربيّة، وأصبحَت الظُّروفُ مهيّأةً لإتمام هذا المشروع، الذي بدأ في مرحلةٍ مُبكِّرةٍ، وحصلَ على الدَّعم اللازم، وتحقَّقت له كلُّ المُقوِّمات والأُسس.

وهذا الكتاب محاولةٌ للإجابة عن التَّسـاؤُلات المتعلِّقة بتفسـيرِ دوافع التَّوأمةِ والالتصاقِ بينَ الحضارة الغربيّةِ والمَشروعِ الصهيونيِّ في فلسطينَ المُحتلّة.

الكلمات المفتاحية: فلسطين، الصِّراع العربي الإسرائيلي، النِّظام العالمي الجديد، أرض الميعاد، المسيحية الصهيونية، الصهيونية.

1 - باحثة من سوريا.

مقدمة

يُعدُّ الـصِّراعُ العربيُّ «الإسرائيليُّ» من أعقَـدِ الصِّراعاتِ في التّاريخِ الحديث، وقد أسـهَمَت فيه عَواملُ دِينيّةٌ، وسياسـيّةٌ، واجتماعيّةٌ، عقَّدَتِ الأحداثَ التي شهدَتْها المنطقةُ منذُ بداية القرنِ العشرينَ وحتّى يَومنا هذا.

وهـذا الصِّراعُ لم يكنْ وليدَ لحظةٍ أو مُجرَّدَ نزاعٍ إقليميٍّ عابرٍ، بل هو نتيجةُ تراكماتٍ تاريخيّة، وثقافيّة، ودوليّة، إضافةً إلى التَّدخُّلاتِ الاستعماريّة الغربيّة، التي أسهمَت بشكلٍ كبيرٍ في تشكيل ملامحِ هذا النِّزاع.

وتَهدفُ هذه القراءةُ إلى تسليط الضَّوء على الجذور العَميقةِ لهذا الصِّراع، التي لا يُمكِنُ فصلُها عن تطوُّراتِ التّاريخ المُعاصرِ، معَ مراعاةِ السِّياقاتِ الإقليميّةِ والدّوليّةِ التي أسهمَت في تَصعيدِهِ وتَوسيعِ نِطاقِه.

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب: «الصهيونية، الغرب والمُقدَّس والسياسة».
مُؤلِّفُ الكتاب: عبد الكريم الحسيني.
دار النَّشر: شمس للنشر والتوزيع.
سنة النَّشر: ٢٠١٠م.
عدد الصفحات: ٨٣٣.
اللُّغة الأصليّةُ للكتاب: اللُّغة العربية. (ليس للكتاب نسخةٌ مترجمة).

قبلَ الخـوضِ في تفاصيل الكتاب وفصولِه العِشرينَ، جديرٌ بالذِّكـرِ أنَّهُ حينَما كانَ المَشروعُ

الصّهيونيُّ في طور التَّنفيذ، كان لبعض الزُّعماءِ العَرب، وخاصّةً في مصر والأردن والسعودية، مَرجعيّةٌ خارجيّةٌ أو أكثرُ من الدُّول ذاتِ النُّفوذ، وخلافاتُهم أضحَت أكثرَ وتَبدو أكبرَ من عَدائِهم لـ"إسرائيل"، التي من المَفروضِ أن تكونَ العدوَّ المُفترَضَ للعربِ جميعًا.

الفصل الأول: اليهوديةُ دينٌ

يدَّعي اليهودُ أنَّ اليهوديةَ عقيدةُ توحيدِ الرَّبِّ، وكما يدَّعونَ الاختيارَ الإلهيَّ لبني إسرائيل «شعب الله المختار»، وتَوريثَ الأرضِ (فلسطين) لإبراهيمَ ونَسلِه من بَني إسرائيل. جاءَت تسميتُهُم نسبةً إلى "يَهوذا" ابنِ يعقوبَ، الذي يَنتمي إليه بنو إسرائيل، الذينَ بُعثَ فيهم النبيُّ موسى (عليه السلام). وقد تنوَّعَت الرِّواياتُ والأبحاثُ عن أصل اليَهود، وهذا التنوُّعُ والاختلافُ يُؤكِّد أنَّ اليهودَ قِسمان، قسمٍ جذورُه تَعود لقبائل عبدَت الإله "يهوه"، إلهَ البَراكين لَدى قبائلَ كانَت تَعيش على الحدودِ بينَ مِصرَ وفلسطين، ومِن أهمِّ خصالِه السَّيطرةُ على ما يَملكُه الآخَرونَ، والتَّعطُّشُ للدِّماءِ والعُنف، وتَفضيلُ اللَّيلِ والظُّلماتِ على الشَّمس. والقسمُ الآخَرُ يَعودُ بجذوره لقومٍ من أتباعِ النبيِّ موسى ﷺ بعدَ أن غادرَ مصرَ، وهؤلاءِ اتَّسموا بحُبِّ الاختراعِ والفضيلةِ والابتعادِ عن أذيّةِ الآخَرينَ.

إذنْ، ووَفقَ كلِّ الرِّواياتِ، فاليَهود لَيسوا أُمَّةً واحدة، وادِّعاءاتُ الصّهيونيّة بأنَّهم كذلك باطلةٌ. حتى بعدَ إنشاءِ الحركة الصّهيونيّة في القرن التاسعَ عشرَ، كان هناكَ اتِّجاهان، اتِّجاهُ التَّيارِ القوميِّ المُصِرِّ على إيجاد وطنٍ خاصٍّ باليهود، واتِّجاهُ التيّارِ الوطنيِّ الدّاعي لعيشِ اليَهودِ في المجتمعاتِ التي وُلدوا فيها. وأمَّا عندَ التبحُّرِ والغَوصِ في نصوص الكتابِ المُقدَّسِ عندَهم «التَّوراة»، فسنجدُ أنَّ الحركةَ الصّهيونيّة اتَّخذَت طَريقًا لا يَمُتُّ لأيِّ قيمةٍ وفَضيلة بصلة.

نجمةُ داودَ هي رمزٌ يهوديٌّ قديم، إلا أنَّها محطُّ جدلٍ حولَ أصلِها ومَعناها. إذ يَعتقدُ البعضُ أنَّ الرَّمزَ يَعودُ إلى النَّبي داود ﷺ، على حين تُشير بعضُ الأدلّة التَّاريخيّة إلى استخدامِه قبلَ اليهودِ في مجالاتٍ مثلِ السِّحرِ والعلوم الخَفيّة. والنَّجمةُ السُّداسيّةُ، التي تُعرَف أحيانًا بـ «خاتم سليمان»، تتألَّفُ من مُثلَّثَينِ مُتداخِلَين، وتُعتبرُ رَمزًا للخَلق. قد تكونُ ظهرَت في عهدِ بني إسرائيل، خاصّةً في فترةِ عبادةِ العِجلِ الذَّهبيِّ. ومعَ مرورِ الوَقت أصبحَت رَمزًا للحركةِ الصّهيونيّة، واختيرَت شِعارًا لدولة "إسرائيل" في ١٩٤٨م.

الفصل الثَّاني: جذور المَشروع الصهيوني

قــام المشروعُ الصّهيونيُّ على فكرة إقامةِ وطنٍ قوميٍّ لليَهود في فلســطين، بدَعوى أنَّها أرضٌ بلا شــعبٍ لشَــعبٍ بلا أرضٍ، والهَدفُ هو حلُّ المســألة اليَهودية في العالَم، اســتنادًا للأساطير والادِّعاءاتِ التَّوراتية.

بعــد تمتُّعِ اليهود بالحريّة والنُّفوذِ عقبَ الثَّورة الفرنســيّة، انتشرَت ظاهــرةُ القوميّة في أوروبا، حيــثُ أصبحَ لكلِّ مجتمعٍ أوروبيٍّ هويّةٌ وطنيّةٌ، وأصبحَ اليَهودُ بينَهم يَبدونَ غُرَباءَ، خصوصًا في ألمانيا. والأمرُ أصبحَ أســوأ عندَ اغتيال القيصرِ الرُّوسيِّ الكســندر الثّاني، واتِّهام اليهودِ بذلك، فانتشرَ العَداءُ لليهود، وصدرَت قَوانينُ صارمةٌ ضدَّهم هناك.

ثــم تعالَت الدَّعــواتُ والأفكارُ لهجرة اليهــود إلى "أرضهم المَوعودة" فلســطين، ومن تلك الدَّعَــوات مــا كتبَه (موزيس هيس - Moses Hess) في كتابه المشــهور "رومــا والقدس"، رغم اعتقــادِه بأنَّ اليهودَ مَنبوذونَ، ووُجودُهم هو عنصرٌ فاعلٌ يَخدمُ مصالحَ الغيرِ لا أكثرَ، وكذلك ما دعا إليه (ليو بنســكر - Leon Pinsker)، رغم اعتقاده بأنَّ «شعب الله المختار» إنْ هو إلا شعبٌ مختــارٌ للكراهيّة العالَميّة، ولذا يَجب على اليهود التخلِّي عن الفكرة المَغلوطة القائلة بأنَّ اليَهودَ بتشــتُّتِهم هذا يُحقِّقونَ رســالةً إلهية. ومن بينِ الدُّعاة أيضًا جماعةُ "أحِبّاءِ صهيون" المؤلَّفةُ من طُلّابِ جامعاتٍ يهودية، والتي تغنَّتْ "بحبِّ فلســطين وجبــلِ صهيون والغَيرةِ عليهما"، كذلك جماعة "بيلو" التــي تَرمزُ لـ"بيت يعقوب تعالَوا لِنرَحَلَ». تبنَّت مجموعةُ "أحبّاء صهيون" كتابَ (بنســكر) "التحرُّر الذّاتي" الدّاعي للهجرةِ إلى فلسطين، حتى أصبحَ كتابُه بمَثابةِ تَوراةٍ جديدة، ودَعَوا إلى عدّةِ مُؤتمراتٍ، حتى تبلورَتِ الفِكرةُ بإقامةِ وطنٍ قوميٍّ لليهود على أرض فلسطين.

الفصل الثّالث: الصّهيونيّة البروتستانتيّة

استمرَّتِ الدَّعواتُ لتشجيعِ تَوطينِ اليَهودِ في فلسطين، وهو ما ساعدَ في خلقِ مُنظَّمةٍ يهوديّةٍ دينيّةٍ سياســيّة، أصبحَت فيما بعدُ هي الصّهيونيّة. وقد شــجَّعَ (مارتن لوثر - Martin Luther)، مُؤسِّــسُ البروتستانتية، على تشكيل وطنٍ لليهود في فلسطين، وكذلك الطُّهريون، الذين يُؤمنونَ بتَنفيذِ تَعليمات الكتابِ المُقدَّس، الذي جاء فيه حسبَ زعمِهم أنَّ فلسطينَ أرضُ الميعاد، واليهودَ هم شعبُ الله المختار.

أمَّـا الصهيونيّةُ فلَها ثلاثةُ مفاهيم، أوَّلُها التَّعريفُ الغربيُّ للصهيونية الذي يَنطوي على الأمَلِ، والتَّخلُّص من العِبء اليهوديِّ في المجتمعات الغربية، وحلِّ ما سُـمِّيَ بالمشكلة اليهودية، بما يُريحُ الغربَ واليهودَ أنفسَهم. وثانيها هو التَّعريف العربيُّ للصهيونية بأنَّها: عُدوانٌ ومُؤامرةٌ تُعطي حقًّا لمَن لا يَملِكُ حقًّا ولا يَستحِقُّ، وهي عدوانٌ صريحٌ على قطعةٍ غالية من الوطن العربي، لها مكانةٌ دينيةٌ عند العرب والمسـلمين. وأما المفهوم الثالث، وهـو المفهوم اليهوديُّ للصهيونية، فهو بينَ التَّعريفَينِ الغربيِّ والعَربيِّ: مَشروعٌ حُلوليٌّ يَستند إلى نبوءاتٍ أتى بها اليهودُ بناءً على ما جُبِلَت عليه النَّفسيّةُ اليهوديّةُ من طمعٍ وجشعٍ واسترخاصٍ ما للغَير. فالصّهيونيّة هي حركةٌ سياسيّةٌ تَسعى لحلِّ المشكلة اليهوديّة بالتَّوطينِ في أرض الميعاد (فلسطين).

ومن الشَّخصيات التي أسهمَت في تشـكيل الكيان الغاصبِ (جوزيف ترومبلدور -Joseph Trumpeldor)، الـذي يَنظـرُ إليه الشَّـبابُ اليهوديُّ على أنَّه من رُوّاد الاسـتعمار الاسـتيطانيِّ الصهيـونيّ، حيثُ تُحيطُـه الدِّعايةُ الصّهيونيّة بهالـةٍ من التَّمجيد، وتَرفعُـه إلى مصافِّ الأبطال التاريخيِّينَ، لكونه من الضُّبّاط الذينَ أسـهَموا في القتال على أرض فلسـطين دَعمًا للصهيونية، وقُتِل على يد العرب هناك.

يَعتبرُ «الإسرائيليُّون» الصهاينةُ تاريخَهُم مُقدَّسًا وليس زمنيًّا، وكلُّ ما يَفعلُه الصهيونيُّ بالآخَرينَ من البشر، سـواء كان خـيرًا أم شرًّا، هو خير، وعلى الآخرينَ أن يَقبلـوهُ لأنَّه مُقدَّس ومِن وَصايا الربِّ، أما التاريخ الزَّمنيُّ فقد يكون مجالاً للفَوضى أو النِّقاش.

والدَّليلُ على زيف ادِّعاءاتِهم الدِّينيّة بشأن أرض الميعاد أنَّ (تيدور هرتزل - Theodor Herzl)، الصحفيَّ اليهوديَّ النمسـاويَّ، دعا أن تكونَ أرضُ الميعاد إما فلسطين أو الأرجنتين. و(هرتزل) هو مُؤسِّـس الصّهيونيّة السياسيّة المُعاصِرة، الذي خرجَت كلُّ الاتِّجاهاتِ الصّهيونيّة من تحتِ عباءته، ومن ثَنايا خطابه المُزيَّف.

أمّا الماسونيّةُ فهي مَنظَّمةٌ يهوديّةٌ غامضة، تَهدف إلى ضمان سيطرة اليَهود على العالَم، وتَدعو إلى الإلحاد والإباحية والفَساد، وتتستَّرُ تحت شعاراتٍ خدّاعة مثل: «الحريّة - الإخاء - المساواة – الإنسـانية»، وجُلُّ أعضائِها من الشَّـخصيات المَرموقةِ في العالم. وللحركة الماسـونية تاريخٌ أسودُ، وتَردَّدَ اسمُها عند نشأة كثيرٍ من الحركات السِّريّة والعَلنيّة، وفي مُؤامرات عديدة، وعُرفت بطابع السِّريّة والتكتُّم، وبالطُّقوس الغريبة التي أُخِذَ معظمُ رموزِها من التُّراث اليهوديّ. ومن أهمِّ

الحركات والثَّورات التي كانت الماسونيّةُ وراءَها هي: الثورة الفرنسية.

من ناحية ثانية، ووسط كلِّ هذه الجهود لإقامة الكيان الإسرائيليِّ، رفضَ السُّلطانُ (عبد الحميد الثاني)، الذي كان حاكمًا للدَّولة العثمانيّة آنذاك، سدادَ دُيون الدَّولة مقابلَ تَقديم فلسطين لليهود، مُعتبرًا أنَّ الدُّيونَ ليسَت عارًا على الدَّولة، أمَّا العارُ فهو التخلِّي عن بيت المَقدس.

ولَم تَقتصر المشاريعُ الاستيطانيّةُ على الأرض المُقدَّسة فحسب، بل طالَت أماكنَ خارجَ فلسطين. هذه الأماكن هي: سورينام، وكايين، وجبل آرارات، العريش، قبرص، مدين، الأرجنتين، ليبيا، أنجولا، موزمبيق، البحرين والإحساء، الكونغو، شرق إفريقيا، وغيرها كثير، وكلُّها باءَت بالفشل.

الفصل الرابع: نداء شبتاي

(شبتاي زئيفي - Sabetay Sevi) هو المسيحُ الدَّجال، صادفَت ولادتُه، في أزمير التُّركية، بذكرى هدمِ المَعبدِ اليَهوديِّ في القدس على يَدِ الرُّومان، ويَعتقد اليهودُ أنَّ هذا اليومَ هو الذي سيَنزِلُ فيه المسيحُ اليهوديُّ المُخلِّص. دَعا (شبتاي) يَهودَ العالم إلى التوحُّد لتجديد «هيكل أورشليم». وأتباعُه هم طائفةُ الدُّونمة اليَهودية، وقد شكَّلوا بعدَ وفاته ما يُعرف بـ«حمعية الاتِّحاد والترقِّي»، ولعبوا دورًا هامًّا بإسقاط الدَّولة العثمانية وقيام الجمهورية التُّركية، وهَدم القيَم الإسلامية، ونَشر الإلحاد والأفكار الغربية، وانتشار الماسونية، والدَّعوة لهتكِ حِجابِ المرأة المُسلمة واختلاطِها بالرِّجال وخاصّةً في المدارس.

الفصل الخامس: المَفهوم المُراوغ

الصّهيونيّةُ مفهومٌ مُراوِغٌ قائمٌ على تزييف التَّوراة وَفقًا لمصالح اليَهود والغرب. فيما المَفاهيم الصَّحيحةُ هي أنَّ اليهود شعبٌ عضويٌّ منبوذٌ غيرُ نافعٍ، يَجبُ نقلُه خارجَ أوروبا ليتحوَّل إلى شعبٍ عضويٍّ نافعٍ، ويُنقَل إلى أيِّ بقعةٍ خارجَ أوروبا (فلسطين بسبب أهميتها الاستراتيجية للحضارة الغربية، وبسببِ مَقدرتها التَّعبويّة بالنِّسبة للمادّة البشريّة المُستهدَفة) ليُوطَّنَ فيها، وليَحِلَّ محلَّ سُكّانها الأصليِّينَ، الذين لا بدَّ أن تتمَّ إبادتُهم أو طَردُهم على الأقل، وتوظيفُهم لصالح العالَم الغربيِّ، الذي سيَدعمُ الكيانَ اليَهوديَّ، ويَضمَنُ بقاءَه واستمرارَه.

الصهيونيــة، فعليًّا، حركةٌ ظهرَت في القرن التاسـعَ عشرَ اسـتجابةً لمشـكلات أوروبية، وقد استثمرَت التُّراثَ الثَّقافيَّ اليهوديَّ والدَّعمَ الأوروبيَّ، فانتهَت إلى إقامة دولةٍ عنصريّةٍ في فلسطين، مُرتكِزةً بذلكَ على جدليّةِ إجلاءِ الفلسطينيِّينَ أصحابِ الأرض، وتَوطين اليهودِ بدلًا منهم.

الفصل السّادس: فنّ المُمكن

تتكـوَّنُ المنظَّمةُ الصّهيونيّةُ من عدّة تيّارات، لها نسـقٌ أيديولوجيٌّ واحدٌ، هو حلُّ المُشـكلةِ اليَهوديَّة. فالمُشـكلةُ هي معاناةُ الغربِ من اليهودِ المَنبوذينَ، ومعاناةُ يهود أوروبا من السّياساتِ الاضطهاديّة، لذلك أوروبا هي المُستفيدُ الأوَّلُ من مشروع الاستيطان في فلسطين، لكنِ السُّؤال الذي لم يُوجَد له جوابٌ: لماذا يَدفعُ الفلسـطينيونَ فاتورةَ اضطهادِ أوروبا لليَهود وكُرهِهم لهم؟ ما حدثَ هو تخطيطٌ لعالمٍ بسـيادةِ النِّظام الإمبريـاليِّ بقيادة الولايات المتحدة الأمريكيّة، الذي وصلَ إلى أقـصى مراحلِ صعودِه، التي ربمَّا لا صعودَ بعدَها، بل وقد يأتي الانحدارُ سريعًا لأنَّ التاريخ لا يتوقَّف.

سـمَّتِ الحركةُ الصّهيونيّة فلسـطينَ باسـمها الأصـليِّ، أو "الأراضي المُقدَّسـة" حتى العام ١٩٥٢م، وليس "إسرائيل"، لأنَّهم يَعرفونَ أنَّ شعبَ إسرائيلَ المَزعومَ كان قد اندثرَ من الوجود، وذابَ بين شعوب المنطقة! وأنَّ اللُّغة العِبريّةَ نفسَها قد اندثرَت من الوجود منذُ ذلك الزَّمن أيضًا، وقد كان اليَهود يتكلَّمونَ الآرامية.

من أهمِّ الشَّخصياتِ الدّاعمةِ للحركة والفِكرِ الصهيونيِّ:

- الأمريكي (وليم بلاكسـتون - William Blackstone)، من مدرسـة التَّفسير الحَرفيِّ للكتاب المُقدَّس، التـي انتشرَت في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي أيَّدَت إقامةَ وطنٍ لليهود في فلسطين، كان لأفكاره ونشاطاته أثرٌ كبيرٌ في ظهور الفكرة الصهيونية، وجَعلِ كثـيرٍ من اليَهود يُؤيِّـدونَ المُنظَّمةَ الصهيونية. ويُعتبرَ واحـدًا من الأمريكيِّينَ القلائلِ الذينَ لعبوا دورًا رئيسًا في إنشاءِ وطنٍ قوميٍّ لليهود.
- (آحـاد هاعـام - Ahad Ha'am)، من أوكرانيا، من أعمدةِ الفِكـر الصهيونيِّ، تركَ أثرًا عميقًا في الثَّقافة الصهيونيّة.
- (ماكـس نـوردو - Max Nordau)، مُفكِّرٌ وأديـبٌ يهوديّ، وُلِد في مدينة "بيسـت"

بالمجر، من عمالقةِ الفلسـفة الصهيونية، ورغم فهمِه لجوانبِ المَشروعِ الصهيونيّ، إلا أنَّه لم يلعـبْ دورًا قياديًّا في الحركة الصهيونية، وظلَّ يتحـرَّكُ في إطار الصّهيونيّة الأساسيّة الشاملة قبلَ تَهويدِها.

- (سـيمون دبنوف - Simon Dubnow)، مُؤرِّخٌ روسيٌّ يهـوديٌّ، من المُفكِّرينَ اليهود الشَّرقيين، كان رئيسا لـ "مركز البحوث اليهودية في شرق أوروبا»، وهو صاحبُ فكرةٍ قوميّة «يهود الدياسوبرا». وهو من «جماعة آحاد هاعام».
- (إسرائيـل زانجويـل - Israel Zangwill)، روائيٌّ إنكليـزيّ، يُعتبرُ زعيـمَ الصّهيونيّة الإقليمية، كان من المُتحمِّسينَ لإنشاء الوطنِ الصّهيونيِّ في ليبيا.
- الشاعر اليَهوديُّ (نفتالي إمبر - Naftali Herz Imber)، من شرق أوروبا.
- (ناحـوم سـوكولوف - Nahum Sokolow)، صحفي وكاتبٌ يهـوديٌّ بولنديٌّ، ومن زُعَماء الحركة الصّهيونيّة، والمُؤرِّخُ الرَّسميُّ لها.
- (جيكـوب كلاتزين - Jacob Klatzkin)، كاتـبٌ روسيٌّ صهيونيٌّ، من أهمِّ المُنظِّرينَ اليهود، وتُعتبرَ كتاباتُه من أهمِّ وثائقِ الفِكر الصهيونيِّ وأكثرِها وُضوحًا.
- (حاييـم وايزمان - Chaim Weizmann)، من روسـيا البيضاء، لعبَ الدَّورَ الأهمَّ في استصدارِ «وعد بلفور» الشَّهير، كان رئيسًا للمُنظَّمةِ الصّهيونيّة العالَمية منذ عام ١٩٢٠ م وحتى عام ١٩٤٦ م، ثم انتُخِبَ كأوَّل رئيسٍ لدولة "إسرائيل".

وقد وُقِّعتْ من قِبل الأمير (فيصل بن الشَّريف حسـين) اتِّفاقيةٌ سُمِّيَت "فيصل-وايزمان»، مع (حاييم وايزمان) رئيسِ «المنظمة الصّهيونيّة العالمية» في «مؤتمر باريس للسَّلام» عام ١٩١٩ م، يُعطي بها لليهود تَسهيلاتٍ في إنشاء وطنٍ في فلسطين، مع الإقرارِ بوَعد بلفور.

الفصل السابع: مذكرة (لورد بالمرستون - Palmerston)

افتتحَ (لورد بالمرسـتون)، وزيرُ خارجيـة بريطانيا، أوَّلَ قنصليةٍ بريطانيـة في القُدس، وذلك لحمايـة المصالح البريطانيّة في الشَّرق، والاهتمامِ بتَشـجيع اليَهود للهجرةِ إلى فلسـطين. اهتمَّ بتُركيـا، وكان يَقول إنَّهـا بلدٌ مُتأخِّرٌ عن الحضـارة الغربية. بريطانيا، وَفقًا لذلـك، لها دورٌ مُبكِّرٌ في إقامة الكيان، وكانَت تُخطِّط بتكتُّمٍ مع السُّـلطان العثماني لتَجميع اليهود في فلسطين تحتَ

الحماية البريطانيّة. بعثَ (اللورد بالمرستون) رسالةً عام ١٨٤٠م إلى السَّفير البريطاني في تركيا، طلبَ فيها حثَّ السُّلطان على إصدار قرارٍ بتشجيع تَجميعِ اليَهودِ المُبعثَرينَ في أوروبا.

أمّا (لورد آرثر بلفور - Arthur James Balfour) الذي وُلد في «ويتنهام» بأسكتلندا، فأصدرَ عام ١٩١٧م تصريحًا مكتوبًا، باسم الحكومة البريطانية، يتعهَّدُ فيه بإنشاء وطنٍ قوميٍّ لليَهود، وارتبطَ اسمُه عند العرب بذلك التَّصريح الذي سُمِّيَ بـ«وعد بلفور». وفور صدورِه، سارعَتْ دولُ الغربِ بتأييده، على حين كان كوَقعِ الصّاعقةِ في العالَم العربيّ.

الفصل الثَّامن: الأدب الصهيوني

يَدور الأدبُ الصهيونيُّ حول محور الدِّين لشدِّ اليهود إلى فلسطين، ويُحاولُ أنْ يُرسِّخَ في الوجدان أنَّ الصَّهاينةَ هم بناةُ حضارةٍ كما اليهود دائمًا، وهم في الوقت نفسه يُشيرونَ إلى تخلُّفِ العَرب، وأنَّهم يَستحقُّون أنْ تُحتَلَّ أرضُهم لتَطويرِها، لكنْ ليسَ قبلَ طردِ أهلِها المُتخلِّفينَ... لذلك كتبَ الأدباءُ والشُّعراء اليهودُ كثيراً عن الحنين الدِّيني لأرض فلسطين، ولم يُشيروا إلى حنينٍ سياسيٍّ لفلسطين، حتَّى جاءَتِ الصّهيونية، وراحَت تُوظِّفُ حنينَهم الدِّينيَّ للأرض في خدمةِ الفكرِ الصهيوني، إلى أن تحوَّلَ الحنينُ إلى مشروع استعماريٍّ استيطانيٍّ للأرض، والصُّورة التي يَرسمُها الأدباءُ اليهودُ المُحدَثونَ لأرضِ فلسطينَ تُطابِقُ في تكوينِها الأبعادَ الثلاثة «الدِّيني والتاريخي والوطني» كأنَّها بعدٌ واحدٌ.

الفصل التَّاسع: من النّيل إلى الفرات

قال (ماكس بودنهايمر - Max Bodenheimer)، مستشار (هرتزل)، في المؤتمر الصهيوني الأول: «إنَّ لأحلامنا أجنحةً لا تَعرف الحدودَ، وإنَّ المنطقةَ ما بين نَهرَي النِّيلِ والفُرات يَجب أن تُفتَحَ أمامَ الاستيطانِ اليهوديِّ، لتَحقيقِ الوَعدِ الإلهي لليَهود بالدَّولة اليهودية الكُبرى». الحلمُ الصّهيوني مَبنيٌّ على ما جاء في الكتابِ المُقدَّسِ عندَ اليهود.

رفضَتِ الدَّولةُ العثمانيةُ المشروعَ اليَهوديَّ، وكانت نظرةُ السُّلطان عبد الحميد بعيدةً، وتخيَّلَ ما سيأتي من بعد تحقيقِ مشروعٍ كالمشروعِ الصهيونيِّ في فلسطين، حيث سيكونُ فرصةً للدُّول العُظمى لزيادة نفوذِها في المنطقة، وأثبتَتِ الأيّامُ أنَّ (السُّلطان عبد الحميد) كان مُصيبًا. حتى

وإنْ كان المَشروعُ الصهيونيُّ لم يُحقِّق النَّجاحَ بعدُ.

وفي إطار المراسلات بين (الشَّريف حسين) والحكومة البريطانية، تمَّ بحثُ إمكانيّة قيام ثورة عربيّة ضدَّ الأتراك خلالَ الحرب العالميّة الأولى. بدأت المُراسَلاتُ في تموز ١٩١٥م، واستمرَّت حتى آذار ١٩١٦م، حيثُ طالبَت الدَّولةُ العربيّةُ بالاستقلال، وإعلان خليفة عربيٍّ. ورغم الوعود البريطانيــة، لم تُنفَّذ هــذه المَطالبُ بعدَ الحــرب، وأدَّى ذلك إلى خيبة أملٍ لــدى العَرب. وفي النِّهاية تمَّ تقسـيمُ أراضي الخلافة العثمانيّة وَفقَ «اتفاقية سايكس-بيكو»، وجَعلُ فلسطينَ تحتَ الانتداب البريطاني. وبعد سـقوط الدَّولة العثمانية، سعَت القوى الاستعمارية (بريطانيا، فرنسا، روسيا) لاقتسـام مناطق الشَّرق الأوسط عبر اتفاقيّة «سايكس-بيكو» ١٩١٦م، التي كانَت سرِّيةً بين بريطانيا وفرنســا. وقد شاركَ (مارك سايكس - Mark Sykes) في هذه الاتفاقية، وكان له دورٌ في السِّياسة البريطانيّة تُجاهَ فلسطين، وأسهَمَ في إصدار «وعد بلفور».

الفصل العاشر: الاختيار

هناكَ اتِّجاهــان للحركة الصهيونية، دِينيٌّ لشَــحن الأفراد والجماعات في الشَّــتات اليهوديِّ لتَحفيزهم على الذَّهاب إلى أرض الميعاد (فلسطين)، وسياسيٌّ لإقامة المستوطنات على أرض فلسطين وضَمان دَعم الدُّوَل النّافذة ماليًّا وأمنيًّا وعسكريًّا.

ذكرَ الكاتبُ في هذا الفصل عدّةَ شخصيات مُؤثِّرة منها:

- (هربرت صموئيل - Herbert Samuel)، سـياسيٌّ بريطانيٌّ صهيونيٌّ، كان أوَّلَ وزير يَهوديٍّ بريطانيٍّ يَتبنَّــى الفكرةَ الصهيونية، ثمَّ عُيِّنَ مُعتمَدًا بريطانيًّا في فلســطين إبانَ حكم الانتــداب البريطاني. تضمَّنَــت مُذكِّرتُــه إلى الحكومة البريطانيّــة تحذيرَه من الخطر المُحتمَلِ من الاحتلال الفرنسيِّ في فلســطين. واقترحَ أنْ تُؤسَّسَ دولةٌ يهوديّةٌ في فلســطين. ونصحَ بأنْ تَســمحَ بريطانيا للمُنظَّمات اليَهوديّة بشِراء الأراضي وإقامة مُستعمرات يَهودية. والمُذكِّرةُ تُسلِّطُ الضَّوءَ على العلاقة الوثيقة بين الحركة الصّهيونيّة وبريطانيا.
- (الحاج أمين الحســيني)، مُفتي القدس وقائدٌ فلسطينيٌّ بارزٌ، ناضلَ طوالَ حياته ضدَّ الاســتعمار البريطاني والصهيونية، وكان من أبــرزِ المُعارِضينَ لـ "وعد بلفور». وبعدَ

اعتقاله وهروبه من السُّلطات البريطانية شغلَ منصبَ «مُفتي القدس»، وأسهمَ في تأسيس «الهيئة العربيّة العُليا»، وعارضَ تقسيمَ فلسطين، وهاجرَ بعدَ ملاحقته إلى عدّة دُول.

- (لورد روتشيلد - Rothschild) ابن عائلة يهوديّة صهيونيّة ثَريّة، لعبَت دورًا في تمَويل الحروب وتجارة الأسلحة. كان آل روتشيلد يَستغلُّونَ الحروبَ الاقتصادية والسياسية لزيادة ثَرواتهم، وأسهَموا في تأسيس دولة "إسرائيل" من خلال دعمِ الحركاتِ الصّهيونيّة، وتَقديمِ الأموال اللازمة لهذا المَشروع.
- (ديفيد ولفسون - David Wolffsohn)، زعيمٌ صهيونيٌّ وعضوٌ بارزٌ في الحركة الصهيونية، تأثَّرَ بأفكار (هرتزل)، وشاركَ في تأسيس جمعيةٍ لتَوطينِ اليهودِ بفلسطين. وكان له دورٌ مُهِمٌّ في توحيد الحركة الصهيونية.
- (اليعازر بن يهوذا - Eliezer Ben-Yehuda)، رائدُ إحياء اللُّغة العِبريّة، وُلِد في ليتوانيا وهاجرَ إلى فلسطين عام ١٨٨١م. دَعا إلى إعادة إحياء العِبرية، وقام بتأليف قاموسٍ عبريٍّ، ونجحَ في جعل العِبريّة لغةً رسميّةً في فلسطين المُحتلّة، إلى جانبِ العربيّة والإنجليزية. وكذلك (ابن شوشان)، أنشأ قاموسًا عبريًّا، في سبعة أجزاء، وهو الأكثر شيوعًا بين "الإسرائيليِّين".
- (لورد شافتسبري - Shaftesbury)، من أبرز المُفكِّرينَ الإنجليز. صاحبُ مَقولة «أيُّ شعبٍ لا بدَّ أن يكون له وطنٌ» لدَعمِ فكرة «الوطن بلا شعب لشعب بلا وطن»، وهو شعارٌ صهيونيٌّ شَهير، دافعَ عن فكرة توطين اليهود في فلسطين تحتَ رعايةِ بريطانيا، وكان يُؤمِنُ أنَّ اليهودَ يُمكِنُهُم أن يَكونوا مُنتجينَ في فلسطين بَدلاً من وُجودِهم «المنبوذ» في أوروبا. وعلى الرَّغم من ذلك اعترفَ بعدمِ حماسةِ اليهودِ لفكرة الهجرة إلى فلسطين في ذلك الوقت.
- ومن قادة الحركة الصّهيونيّة وأكثرِهم تطرُّفًا، (فلاديمير جابوتنسكي - Vladimir Zhabotinsky)، الذي أسَّسَ تيّارَ «الصّهيونيّة التَّصحيحية»، الذي دَعا إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين باستخدام القوة العسكرية. وكانَت أفكارُه تَتبنَّى الهيمنةَ الغربيةَ على العرب، وقد أسَّسَ حركةَ «حيروت» التي تبنَّتْها لاحقًا الأحزابُ اليَمينيّةُ في "إسرائيل".

في شباط ١٩٤٨م، اجتمعَ وزيرُ خارجية بريطانيا (إرنيست بيفين - Ernest Bevin) مع رئيس وزراءِ الأردن (توفيـق أبو الهدى)، الذي أكَّدَ أن الجيشَ العربيَّ بقيادة (جلوب باشـا) سـيَدخُلُ المنَاطِقَ التي حدَّدَها قرارُ التَّقسيم، لكنَّ بيفين حذَّرَ من دخول المناطق المُخصَّصة لليَهود، بما في ذلك القُدس. هذا التَّحذيرُ دفعَ نحوَ تأجيل الحَربِ، إلا أنَّ العربَ قرَّروا دخولَ فلسطينَ بعد انتهاء الانتدابِ البريطانيِّ.

بدأَ الصِّراع بين العرب واليهود في أيار ١٩٤٨م، حيث كانَت "إسرائيل" تُواجِهُ تحدِّيات داخليّةً وأوضاعًا صَعبة، وشـملَت الحربُ هجمات بين القوات العربيّـة و«الإسرائيلية» في مناطق مثل القُدس والنَّقب، واستمرَّ القتالُ حتى توقيعِ هُدنة بينَ "إسرائيل" والدُّول العربيّة في ١٩٤٩م، لكنَّ الصِّراعَ تركَ نتائجَ كارثيّةً للعَرب، حيث تمَّ طردُ مليونِ فلسطينيٍّ من ديارهم، فكانَت هذه الحربُ نكبةً بكلِّ المَقاييس في الضَّمير العربي.

الفصل الحادي عشر: لا شيءَ غير الحقيقة

استفاد اليهودُ من تجارب الشُّعوب الأخرى، خاصّةً خلال فتراتِ الشَّتات، والصّهيونيّة ليسَت حركةً دينيّةً بَحتة، إنَّما لها أبعادٌ سياسية واقتصادية. نشأتْ نتيجةً للأحداث السِّياسية والاقتصادية في أوروبا في القرن التاسـعَ عشرَ، وفكرةُ «العودة إلى صهيون» لم تكـنْ مُرتبِطةً فقط بالدِّين بل بالمَصالح الاقتصادية والسياسية.

تُستَخدم الصّهيونيّةُ كأداة للهيمنة الاقتصادية والإعلامية، والعديدُ من التصرُّفات «الإسرائيلية»، مثلِ الإنكارِ المُتكرِّر لوُجودِ الفلسطينيِّين، هي تَعبيراتٌ عن عنصريّةٍ وتاريخٍ من القَمع، والصّهيونيّةُ تستغلُّ القوى العالَميّةَ لتَحقيق مصالحِها.

تَمكَّنَـت الحركةُ الصّهيونيّةُ من فَرضِ هيمنتِها عبرَ تَنظيم سـياسيٍّ قويٍّ ورأسِ مالٍ مُتراكم، مهَّدا الطَّريقَ لإنشـاء "دولة إسرائيل". ونجحت الصّهيونيّةُ في اسـتغلال الانقساماتِ العربيّة رغم محاولاتِ العرب التَّصدِّي لها. وقد سـاعدَ التحالُفُ بين الحركة الصّهيونيّة والاسـتعمار الغربي في تَحقيق أهداف الصهيونية، رغم أنَّ العربَ لم يَكونوا السببَ في «المشكلة اليهودية»، بل تعرَّضُوا لظُلمٍ وتَعدِّياتٍ مُسـتمرّة، وأصبحَت فلسطينُ مكانًا لصِراعٍ طويلِ الأمدِ بين العرب والصَّهاينة.

الفصل الثاني عشر: الغاية تُبرِّرُ الوَسيلة

أنشأ أصحابُ المشروعِ الصهيونيِّ دولتَهم على أساسِ التَّضليلِ والكَذب، مُستخدمينَ جميعَ الأساليبِ والمبادئ لتَحقيقِ مَصلحتِهم، مُتجاهلينَ القِيَمَ الأخلاقية. كانَت عمليّة «سوزانا» - التي نفَّذَتْها المخابراتُ الصَّهيونيّة في مصر عام ١٩٥٤م، حيث كانَ (بنحاس لافون - Pinhas Lavon) -وزيرَ الدِّفاع «الإسرائيلي» آنذاك- تَهدفُ إلى زعزعةِ الأمن المصريِّ، وتَوتيرِ علاقاتِ مصرَ مع بريطانيا وأمريكا. لكنَّ العملية فشلَتْ بعدَ كشفِ شبكةِ تجسُّسٍ تَضمُّ شبّانًا يَهود، حُكم عليهم بالإعدامِ قبلَ أن يُفرَجَ عنهم بعد نكسة ١٩٦٧م، في صفقةِ تبادُلِ أسرى مع "إسرائيل".

فـ"إسرائيل" هي فكرةٌ مَركزيّةٌ في الفكر الصهيوني، حيث يَرى الصَّهاينةُ أنَّ "إسرائيل" يجبُ أن تكون المركزَ الأخلاقيَّ والثَّقافيَّ لليَهود في العالم. وكثيرٌ من اليهود لا يَرَونَ "إسرائيل" دولةً دينيّةً حقيقيّةً، ويَعتقدونَ أنَّ الظُّروفَ قد تغيَّرَت منذ تأسيسها.

لقد أثَّرَ الإعلامُ الصُّهيونيُّ في تشكيلِ صورةِ "إسرائيل" كمركزٍ أخلاقيٍّ لليهود، لكنَّ "إسرائيل" قد لا تكون المستقبلَ المستدامَ لليهود، في ظلِّ العولمةِ والتَّغيُّرات الاجتماعيّة والسّياسيّة في العالم، وقد برزَ (موسيس مندلسون – Moses Mendelssohn)، وهو فيلسوفٌ يهوديٌّ ألمانيٌّ، في عصر التَّنوير حيث أيَّدَ اندماجَ اليهود في المجتمعات الأوروبية. واعتبرَ أنَّ اليهوديّةَ دينٌ عقلانيٌّ وليسَ قوميّةً، وقد دَعا إلى تحديث الفكر اليهوديِّ، وأسهمَ في الحركة الإصلاحية اليَهوديّة، كما أيَّدَ المُساواةَ المَدنيّةَ بين اليَهود وغيرِهم. ورغم ذلك، واجهَت حركتَه تحدِّياتٌ داخليّةٌ وخارجيّةٌ، حيثُ تحوَّلَ بعضُ أتباعِه إلى المسيحية، وبدأتِ الحركةُ الإصلاحية في العودةِ إلى القومية الصّهيونيّة مع مَرورِ الوَقت.

الفصل الثالث عشر: ردُّ الفعل

وفي سياق ردِّ الفعل، قدَّمَ الفلسطينيُّونَ شهداءَ، ودُمِّرَت المُنشآتُ في سبيل تحرير الأرض. ورغم ذلك، لم يتحقَّق التَّحرُّرُ بسبب غيابِ القيادة المتَّزِنة، والبَرامجِ الثَّورية الواضحة، والتَّغيُّرات المُستمرّة في الخططِ السِّياسية، وعدمِ استقرارِ المواقف. وقد كانَت المَواقفُ الأمريكية داعمةً لـ"الإسرائيليِّين"، فلعبَتْ دورًا كبيرًا في إعاقةِ الحلولِ السِّلميّة. وعلى الرغم من المحاولاتِ العربيّة المُختلفةِ لإيجاد حلٍّ سِلميٍّ، إلا أنَّ عدمَ التَّنسيقِ بين الدُّول العربيّة جعلَها عاجزةً عن

تقديم حلولٍ فعّالة. وما زالَ الفلسطينيُّونَ والعربُ يُعانونَ من غياب الحلولِ الجذريّة للصِّراع. ففي مرحلةٍ ما، عاشَ الفلسطينيُّونَ والعربُ حالةَ الهزيمة، إذ لم تعدْ قضيَّةُ فلسطينَ أولويَّةً بالنِّسبة للدُّول العربية، بل أصبحَ الاعترافُ والتَّطبيعُ مع "إسرائيل" واقعًا.

الفصل الرّابع عشر: الحوار مع الذّات

يُؤكِّدُ الكاتبُ على أنَّ المسلمين والعرب، في العصر الحديث، قد أصبحوا يتَّبعونَ الغربَ في كثيرٍ من المجالات، خاصَّةً الفكريَّة والثَّقافية، وكان لذلك أثرٌ في ضعف الهوية الثقافية والعقائدية، وسُمح للصّهيونية باختراقِ المنطقةِ وتهديدِ حقوقِ العربِ والمسلمين. وأصبحَتْ مدينةُ القُدس محطَّ تَنافُسٍ بين اليهود والمسيحيِّين والمسلمين. وقد أسهمَت الثَّقافة اليهوديَّةُ بتكوين هُويَّةِ الفردِ اليهوديِّ، وعزَّزَت العُزلةَ والتميُّز، ودعمتِ الفكرَ الصُّهيونيَّ الذي يَسعى لتأكيد «قداسة» الأرض والشَّعب اليهودي.

الفصل الخامس عشر: قفزةٌ في الهواء

استطاعَت "إسرائيل" تَحقيقَ وجودِها بفضلِ الدَّعمِ الدُّوليِّ والنُّفوذِ اليهوديِّ ماديًّا وإعلاميًّا، لكنَّ هذا الوجود ليسَ طبيعيًّا، بل نشأ في ظلِّ ظروفٍ غيرِ شرعية. لذا فقد واجَهَ المَشروعُ الصهيونيُّ تحدِّياتٍ ديمغرافيّةً مستمرّةً. كما أنَّ تطوُّرَ الحركة الوطنيَّة الفلسطينيَّة يُشَكِّلُ تهديدًا مستمرًّا لـ"إسرائيل". وعلى الرَّغم من تقدُّم "إسرائيل" في بعض المجالات، إلا أنَّ هناك عواملَ داخليَّة وخارجيّة تُهدِّدُ بقاءَها على المدى الطَّويل، وهذا يَخلُقُ معادلةَ توازُنٍ بين أسباب وجودِها وزوالِها.

تُوجِّهُ المجتمعاتُ، وخاصّةً في الغرب، أجيالَها نحوَ تبنِّي مفاهيمَ مُعيَّنة، مثلِ تأييد "إسرائيل" في المناهج التَّعليميّة. ويَبرزُ دورُ العولمةِ والتكنولوجيا في تشكيل الأيديولوجيّاتِ وتحدِّياتِها في مواجهةِ القِيَمِ الثَّقافية والاجتماعية التي يَفرِضُها الغرب.

الفصل السّادس عشر: مصادر القوة الصهيونية

تُعتبرُ عمليّةُ جمعِ التَّبرُّعاتِ لصالح الدَّولة الصّهيونيّة جزءًا أساسيًّا من المشروع الصهيوني،

وتُستخدَم أساليبُ مثل التَّخجيل، والترَّغيب، والتَّهديد، حتى الخِداع. وقد اعتمدَت الصهيونيةُ، منذ نشـأتها، على تبرُّعاتِ اليهود حولَ العالم، خصوصًا في أمريكا، لتَعزيز الرَّوابطِ العاطفية مع "إسرائيل"، ولتَمويلِ الاسـتيطان في فلسطين. وتُعتبرَ هذه التَّبرُّعاتُ شكلاً من المشاركة في بناء الدَّولة الصهيونية. ومن أبرز مُؤسَّساتِ جمعِ الأموال: «الصُّندوق القوميّ اليهودي» الذي اشترَى الأراضي الفلسطينيّةَ، و«النِّداء اليهودي الموحَّد» في الولايات المتحدة. ورغم تراجُعِ التَّبرُّعات مع مرورِ الزَّمن، تَبقى هذه الجِباياتُ أداةً رئيسيّةً لدَعمِ المَشروع الصهيوني وتَحقيقِ أهدافِه.

الفصل السابع عشر: الإعلام الصهيوني

لعبَ الإعلام الصهيونيُّ دورًا كبيرًا في الصِّراع العربي «الإسرائيلي»، حيث اسـتخدمَ أساليبَ مُتنوِّعةً من التَّضليل والتأثير على الرّأي العامِّ العربيِّ والغربيِّ. واسـتطاعَت "إسرائيل" أن تُروِّجَ لنَفسـها كدَولةٍ ديمقراطيّةٍ مُحبّةٍ للسَّلام، في حين صوَّرَت الفلسطينيِّينَ كإرهابيِّينَ. وهذا الإعلامُ أسهمَ في تغيير المفاهيم في الغرب، ليُنظَرَ إلى "إسرائيل" كضَحيّةٍ رغم ممارساتِها العَنيفة، وأدَّى إلى خلقِ روايةٍ زائفة حول تاريخ الصِّراع. كما اسـتفادت "إسرائيل" من وسـائل الإعلامِ الغربيّةِ لزَرعِ القَناعاتِ في الأجيال الجديدة بأهمِّيةِ وُجودِها كحصنٍ للغَربِ ضدَّ الهَمجيّة.

الفصل الثامن عشر: جماعات الضغط الصهيونية

تُستخدَمُ كلمةُ «لوبي» للإشارة إلى جماعاتِ الضَّغطِ التي تَسعى للتأثير في القَرارات السياسيّة أو الاقتصاديّـة. ويُعتبرُ «اللّوبي» في الولايات المتحدة وسـيلةً مُهمّةً لضغـوطٍ جماعيّةٍ لتَحقيقِ مصالـحَ مُعيَّنة، مثل اللّوبيات المُرتبطة بشركات النِّفط أو الأسـلحة أو اللّوبي اليهودي (أيباك). هذه الجماعاتُ تَستخدم وسائلَ مُتعدِّدةً للتأثير على صُنّاعِ القَرار، من خلال الإعلام، والتبرُّعاتِ السياسـية، والضَّغط على المُشرِّعينَ، وبذلك أصبحت اللّوبيات أداةً قويّةً في تشـكيل السياسةِ العامة.

الدَّعمُ الأمريكيُّ لـ "إسرائيل" ليس نتيجةَ تعاطُفٍ شـخصيٍّ، بل نتيجةً لمَصالحَ اسـتراتيجيّةٍ وأمنيّةٍ تَتماشى مع مصالحِ الغَربِ بشـكلٍ عامٍّ، وتُعتبرُ "إسرائيل" قاعدةً عسكريّةً مُهمّةً لأمريكا. لذلك كان للّوبي الصهيونيِّ دورٌ في التأثير على السياسة الأمريكية.

وأمَّـا تاريخُ العلاقـات الغربية مع العالَمِ العـربيِّ فهو مُعقَّدٌ جدًّا، حيثُ يَـرى الغربُ والعالَمُ الصهيونيُّ المنطقةَ العربيّةَ كمَصدرٍ للمَوارِدِ والثَّروات، في ظلِّ غيابِ وحدةٍ سياسيّةٍ قويّة.

الفصل التاسع عشر: الرَّفض اليهودي للصهيونية

نشـأت الصّهيونيّة في سـياق الإمبرياليّة الغربية، وتبنَّتْ فكرةَ عودة اليَهود إلى أرض فلسـطين لتأسيس دولة. وقد واجهَت مُعارَضةً من تيّارات يَهودية مُتنوِّعة، مثل المُتديِّنينَ الذين يَرَونَ اليَهوديّةَ دينًـا لا قوميّة، والاندماجيِّـينَ الذين يُفضِّلونَ التَّعايُشَ داخلَ المجتمعـات الغربية. كما عارضَتْها بعضُ الجماعات اليهوديّة في الشَّتات مثل يهود اليديشية واليهود العرب. وقد كانَت هناك مقاوَمة شـديدةٌ لفكرة الصّهيونيّة من تيارات يهوديّةٍ أُخرى، سـواء كانَت دينيّةً أو لِيبراليّة اشـتراكية. بل إنَّ الرَّفـضَ الصهيونيَّ كان أيضًا ذا أبعـاد تاريخية وثقافية، إذ اعتبرَ بعضُ اليهـود أنَّ الصّهيونيّة تمُثِّلُ انحرافًا عن التُّراث الدِّينيِّ اليَهودي. ورغم كلِّ هذه المُعارَضات، ازدهرَت الصّهيونيّةُ بفَضلِ الدَّعمِ الاستعماريِّ الغربيِّ، وأدَّى قيامُ دولة "إسرائيل" إلى تغييرات جذريّةٍ في هوية اليَهود في العالم.

يمُكـنُ القولُ إنَّ الصّهيونيّة شـكَّلَت نقطةَ تحـوُّلٍ في تاريخ اليَهود، حيث أثَّـرَت في هويّتهم الثَّقافية والدِّينية، وأسـهمَت في تشـكيل «الدَّولة الإسرائيلية» التي تُواجِـهُ تحدِّياتٍ تتعلَّقُ بتنوُّع الثَّقافة اليَهودية داخل «المجتمع الإسرائيلي».

الفصل العشرون: الخاتمة

نشـأت الحركةُ الصهيونيّةُ بدَعمٍ كبيرٍ وتأييدٍ غير محدودٍ من الغَرب، الذي نظر إليها على أنَّها مشروعٌ استعماريٌّ يَخدمُ مصالحَه. وتعودُ الجذورُ الصّهيونيّةُ إلى تحالُفاتٍ مع الدُّول الغربية في القرن التاسـعَ عشرَ، حيث سـعَت إلى تَحويل اليهود إلى أداة في خدمة المَشاريع الاستعمارية. فالصّهيونيّةُ ليسَـت مُجرَّدَ حركةٍ دينيّة، بـل هي أيضًا نتاجٌ للمصالح الاسـتعمارية الغربيّة، التي استغلَّت اليهودَ في إنشـاء دولةٍ لهم في فلسطين. وقد نشأت التَّوتُّراتُ بين اليهود والمُجتمعات الأوروبية التي لم تُرحِّبْ بهم. لذلكَ فالصّهيونيّةُ هي حركةٌ سياسـيّةٌ اسـتعماريّةٌ نشـأتْ ضمنَ سياق التَّفاعُلات الغربية، التي لم تَترُكْ للعربِ فرصةً للوحدة والتَّقدُّم في مواجهة هذا المَشروع.

والجديرُ بالذِّكرِ أن الكتابَ أوردَ في نهايتِه وثائقَ كثيرةً وردَ ذِكرُها ضمنَ سياقِه.

الصّهيونيّة والحضارة الغربيَّة

قراءة:
■ منير زهير نصولي[1]
■ علي ملّي[2]

ملخّص

يبحث هذا الكتابُ في طبيعة العلاقة بين الحضارة الغربيَّة والصّهيونيّة، وقد قارَبَ الكاتبُ هذه العلاقة على ضوءِ الفلسفة الغربيَّة التي أساسُها النَّفعيّةُ المرتكزةُ على «الدَّاروينيَّة» و«النِّيتشويَّة»، حيث البقاءُ للأقوى ماديًّا، ولا مكان للقِيَم الإنسانيّة والأخلاقية والدِّينيَّة. ويُبرِزُ الكاتبُ كيف أنَّ اللِّيبرالية والمجتمع الصِّناعي العسكري في الحضارة الغربيَّة استغلاَّ المسألةَ اليهوديّة في هذا السِّياق والنَّسق الحضاريّ. وقد عَرض ذلك في عشرة فصول، حيث قدَّمَ تعريفًا لمفاهيم الفلسفة الغربيَّة، وأبرزَ شواهدَ لطبيعة العلاقة بين الحضارة الغربيَّة والمسألة اليهوديّة، فرأى أنَّها عبارة عن مجرَّد استغلال لمجموعة دينيَّة منبوذة ليس لها منفعةٌ في الجغرافيا الغربيَّة، فاستغلَّ الغربُ إرثَ هذه الجماعة لمصالحِه، فنتجَتْ فكرةُ الصّهيونيّة التي لا تتطابق مع الفِكر اليهوديّ.

الكلمات المفتاحية: اليهودية، الصهيونية، الإمبريالية، الحداثة، التَّنوير، اللِّيبرالية، الفلسفة المادية، الاستعمار، العقل الأداتي، نيتشه، فوكوياما، هنتنجتون.

1 - باحث وكاتب سياسي من لبنان.
2 - طالب في الحوزة الدينية من لبنان.

مقدِّمة

يُلقي الكاتبُ الضَّوءَ على خطأٍ منهجيٍّ يَسلكه الباحثون في دراسة الظّاهرة الصّهيونيّة، إذ يُهمِلونَ الأبعادَ التَّاريخية والاجتماعية والثَّقافية، باعتبارها ظاهرةً غربيةً استعماريّةً استيطانيّةً إحلاليّة، ويَنطلقون إلى بطون الكتب الدِّينيَّة اليهوديّة في محاولة لتفسير سلوكِ الصّهيونيّة. إذ برأيِه أنَّ البُعد اليهوديَّ في معظم الأحيان هو بعدٌ زَخرفيٌّ تَبريريٌّ، استُخْدِمَ كأداةٍ تعبويَّةٍ بهدف التَّحشيد. ويؤكِّد الكاتبُ أنَّ الصّهيونيّة ليسَت مجرَّدَ انحرافٍ عن الحضارة الغربيَّة، وإنَّما هي إفراز عضوي لهذه الحضارة، ولِما يُسمَّى بالحداثة الدَّاروينية، أي الحداثة التي تَرمي إلى تحويل العالم إلى مادَّة استعماليَّة تُوظَّف لصالح القويّ.

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب: الصّهيونيّة والحضارة الغربيَّة.
مؤلف الكتاب: د. عبد الوهاب المسّيري.
دار النَّشر: دار الهلال.
سنة النَّشر: ٢٠٠٣م.
عدد الصّفحات: ٤٢٢.
اللغة الأصلية للكتاب: اللغة العربية. (صدرت له عدة ترجمات بعدة لغات).

الفصل الأول: الأصول الغربيَّة للرُّؤية الصّهيونيّة

في هذا الفصل يُركِّزُ الباحثُ على النَّظرِ إلى الحركة الصّهيونيّة من خلال سياقها التَّاريخي وإطارها الثَّقافي، كتعبيرٍ مباشَرٍ وبلورةٍ للنَّموذج الحضاريِّ الغربيّ الحديث؛ فمنذ نهاية القرن

الرابع عشر، بدأتْ تدخلُ تغييراتٌ بنيويّةٌ عميقةٌ على المجتمعات الغربيَّة، فبدأ النِّظام الإقطاعي ببنائه الهرميِّ الثَّابت يَهتزُّ، وقامَت الثَّوراتُ والحركات الفكرية والاقتصادية المختلفة، بعد أن بدَتْ إرهاصاتُ التحوُّل إلى الرَّأسمالية. كانت المجتمعات الأوروبية في ذلك الوقت خاضعةً لدول وإمارات مُستقلّة تَفتقر إلى سلطة مركزية قويّة، وكانت كلٌّ منها مكوَّنةً من جماعات متماسكة مُنفصلة لكلٍّ منها قوانينُها، وكان اليهودُ كجماعة مُصنَّفينَ قانونيًّا باعتبارهم غُرباء، والغريبُ عرفًا كان تابعًا للمَلك تبعيّةً مباشرةً. ولذلك كان اليهودُ حرفيًّا أقنانَ بلاط، وهذا ما حوَّلَهم إلى ما يُشبهُ أدوات إنتاج، وبالتَّحديد جماعة وظيفيّة ماليّة تابعة للطَّبقة الحاكمة، وهكذا كان اليَهودُ أقلِّيةً دينيّةً في المجتمع الإقطاعي المَسيحي، تَقفُ على حوافِّ المجتمع وليس في داخله، وتُوكَلُ إليهم مهمَّةُ التِّجارة كوظيفة ثانويَّة في تلك العصور.

أسهمَتْ عدَّةُ عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية في تحوُّل المجتمعات الغربيَّة إلى نمط الإنتاج الرَّأسمالي، وأدَّى هذا التحوُّل إلى تراجع دور اليهود كجماعة وظيفيَّة في البناء الهرميِّ للنِّظام الإقطاعي، الذي كان نجمُه يأفُلُ وصولاً إلى نهاية القرن التَّاسع عشر، فالثَّورة الرَّأسماليَّة هي في نهاية الأمر ثورةٌ في طريقة الإنتاج والتَّوزيع، وفي بناء المجتمع، وفي علاقة الحاكم بالمَحكوم. وقد أدَّى هذا التَّراجُع لدور اليهود إلى انعزالهم في جيوب سكنيَّة مُنعَزلَة سُمِّيَتْ بـ «الغيتو»، تحوَّلَت فيما بعدُ إلى مكان تتمُّ فيه محاصرةُ اليهودِ وعَزلُهم، وهذا ما أدَّى إلى ظهور المسألة اليهودية.

ولَّدَت الثَّورةُ الرَّأسمالية نمطًا إنتاجيًّا جديدًا، أدَّى إلى ظهور التَّشكيل الإمبريالي الغربيِّ بأشكاله المختلفة، الذي وصلَ إلى قمّته حين قامَت الاحتكاراتُ الدَّولية بتَقسيم العالَم بكلِّ ثرواته وأسواقه فيما بينَها. ولا يُمكِنُ رُؤيةُ الصّهيونيّة خارجَ هذا السِّياق الاستعماريِّ الإمبريالي، فقد كانَت الصّهيونيّة هي الحلُّ الاستعماريُّ للمسألة اليهودية، فتوجَّهَ المجتمعُ الأوروبيُّ الحديث إلى تأييد فكرة تَصدير المسألة اليهوديّة والفائضِ البشريِّ اليهوديِّ غيرِ المُنتج والمُنعزِل إلى أيِّ مكانٍ آخر خارجَ أوروبا. وبذلك نجحَ اليهودُ في الاندماج في الحضارة الغربيَّة من خلال التَّشكيل الإمبريالي الغربي، بعد أن فشلوا في تحقيقِه من خلال التَّشكيل الحضاريِّ والاجتماعي الغربي.

تميَّزَت فكرةُ تصدير المسألة اليهوديّة إلى الخارج بخاصيَّتَين؛ الأولى، الشَّكل الاستعماري الإحلالي، كما فعل البِيض في أميركا الشَّمالية مع الهنود. الخاصيّة الثانية، عَمالةُ الاستعمار

الصهيـوني للمشروع الامبريـاليِّ الغـربي. فالدَّولة الصّهيونيّة سـتكون تحتَ وصايـة بريطانيا العُظمى، واليهودُ سيَكونون حرَّاسًا على طول الطَّريق، ابتداءً من الشَّرقَينِ الأدنى والأوسط حتَّى حدود الهند.

الفصل الثَّاني :الصّهيونيّة والرُّومانسية والنِّيتشوية

يَعتبر الكاتـبُ أنَّ الفكرَ الرُّومانسيَّ هو أحدُ أهمِّ مصادرِ الرُّؤيـة الصّهيونيّة للواقع، ومن أهمِّ تبدِّياتِ الفكرِ الرُّومانسيِّ الفلسـفةُ الدّاروينية، وجوهرُ المنظومـة الدّاروينيّة أنَّ العالَمَ في حالة تغيُّرٍ مستمرٍّ وتطوُّرٍ إلى الأرقى، وأنَّ آليةَ التغيُّرِ هي الصِّراع، وهو صراعٌ يُحسَمُ لصالح الأقوى من النَّواحي المادية. كما أنَّ النِّيتشـوية هي أحدُ التبدِّيات المُتطرِّفة والمُتبلورة للرُّؤية الرُّومانسية، أو بتعبير آخر هي رومانسيةُ عصر الإمبرياليّة والعنصريّة، فهي التَّعبيرُ الفلسفيُّ عن الرُّؤية الدّاروينيّة للواقع.

ويَرى الكاتبُ أنَّ ثمةَ أنساقًا فكريّةً عديدة مُرتبطة بالثَّورة الرَّأسمالية، أسهمَت في تشكيل الرُّؤية الصّهيونيّـة للعالَم، ومن أهمِّ هذه الأفـكار الرُّؤيةُ الدّاروينيّةُ التي يَعدُّها الكاتـبُ البنيةَ الفكريّةَ التَّحتيّة للحَداثة الغربيَّة.

ويَتناول هذا الفصلُ علاقةَ كلٍّ من الرُّومانسـية والنِّيتشـوية بالصّهيونيّـة، وكيف حدَّدَتا الأُطُرَ الإدراكيّةَ للصّهاينة.

فالفكرُ الصهيونيُّ تفكيرٌ عضويٌّ عنصريٌّ متطرِّفٌ، والتصوُّر الصهيونيُّ لعلاقة اليهوديِّ بأرضه تصوُّرٌ عنصريٌّ ضمنيٌّ، فاليَهوديُّ الذي لا يَعيش في أرض الميعاد، يَعيشُ منفيًّا مُنقسمًا على نفسه مُوزَّعَ الولاء مُمزَّقًا، وحالةُ الكمال والتّكامل العضوية لا تتمُّ إلا بعد العودة. والشَّـعب العضويُّ هو الشَّعبُ الذي يَترابط أعضاؤُه ترابُطَ الأجزاء في الكائن العضوي الواحد، والذي تَربطُه رابطةٌ عضويّة بأرضه وتُراثه.

ويُشار إلى الفكر القوميِّ، الذي يَصدرُ عن مفهوم الشَّعب، على أنَّه فكرٌ قوميٌّ عضويّ. ويَرتبط هذا المفهومُ بمفهوم آخَرَ، وهو الشَّعبُ العضويُّ المَنبوذ، فالجماعاتُ اليهوديّةُ كانَت تُشكِّلُ في كثير من الأحيان جماعةً وظيفيّةً متماسكةً عُضويًّا داخل الحضارة الغربيَّة، مُكتفيةً بذاتها، ولكنَّها فقدَت وظيفتَها نتيجة التحوُّل الاقتصادي والاجتماعي إلى الرَّأسمالية، وغيرِ ذلك من العوامل،

فتمَّ نبذُها وأصبحَت شـعبًا عضويًّا منبوذًا. وهذا المَفهوم يُشـكِّلُ حجـرَ الزّاوية في التَّفاهُم بين الصّهاينة وأعداء اليهود، فهم جميعًا يَرَونَ أنَّ اليهودَ شعبٌ عضويٌّ واحدٌ لا ينتمي إلى الغرب أو إلى أيِّ وطنٍ، لأنَّه يَرتبط عضويًّا بـ «إرتس يسرائيل» أي أرض الميعاد.

الفصل الثَّالث :الفكر الاسترجاعي

يشـيرُ الكاتبُ في هذا الفصـل إلى أنَّ الأيديولوجيا الصّهيونيّة نبتَـتْ في تربةٍ غير يَهوديَّة، ثمَّ تحدَّدَت معالمُها الأساسيّةُ في منتصف القرن التاسعَ عشرَ على يدِ مُفكِّرينَ صهاينة غيرِ يهود، ثمَّ تبنَّتْها بعضُ القيادات اليهوديّة في أواخر القرن التاسعَ عشرَ.

في بدايات القرن السـابعَ عـشرَ ظهرَ ضربٌ من الفِكر الصهيونيِّ في صفوف الاسـتعماريين الغربيين، يُبشِّر بالعودة الجماعيّة لليهود ليَسـتوطنوا في أرض أجدادهم في فلسـطين. وقد ظهر هذا الفكرُ في صفوف المسـيحيِّين البروتسـتانت، الذين يُطلَق عليهم اصطلاحُ الاسترجاعيِّينَ، أي أصحاب العقيدة الاسترجاعية عن عودة المسيحِ المُخلِّص ليَحكُمَ العالَمَ. وحسبما جاء في هذه العقيدة فإنَّه لن يتحقَّقَ الخلاصُ إلا باستثناء اليهود لفلسطين ليتمَّ تنصيرُهم. إلا أنَّ الافكار الدِّينيَّة بدأتْ تتحوَّل بالتَّدريج إلى ما يُشبِهُ البرنامج التَّبشيريَّ الدّينيَّ السّياسي في القرنين السّابع والثّامن عشر، ثمَّ وصلَت إلى قمّته في القرن التّاسـع عشر، وأصبح الاسـتيطانُ خدمةً للمصالح الرَّبانيـة والإمبرياليّة في الوقت نفسـه. فإرتس يسرائيل هي الأرضُ التـي يتحدَّثُ عنها الكتابُ المُقدَّس، وهي أيضًا البلدُ الذي يَقع في قلب الإمبراطورية العثمانية، التي كان الجميعُ يتوقَّعونَ سقوطَها لِيرَثوها ويملَؤوا الفراغَ النَّاجمَ عن هذا السُّقوط.

الفصل الرَّابع :الإدراك الغربيُّ لأعضاء الجماعات اليهوديَّة

أدركَ الغربُ أنَّ أعضاء الجماعات اليهوديّة، باعتبارهم عنصرًا نافعًا، يُمكن توظيفُه، وهذا النَّمط الإدراكيُّ يعود إلى شـيوع ظاهرة الجماعة الوظيفيّة في المجتمعات الغربيَّة، والجماعة الوظيفيّة هي جماعةٌ بشريّة يَسـتجلِبُها المجتمعُ لتضطلع بوظائف يأنفُ أعضاءُ المجتمع القيامَ بها، لأنَّه يَعتبرها مشـينةً، أو لأنَّهم عاجزونَ عن القيام بها لأنَّها تتطلَّـبُ أدواتٍ وخبراتٍ معيّنةً. وعادةً ما يُعـرَّف عضوُ الجماعـة الوظيفية في ضوء الوظيفة التي يَضطلع بهـا، وفي ضوء مدى نجاحه أو

إخفاقه في أدائها، أي مدى نفعه، وقد أصبح مفهومُ نفعِ اليهود مفهومًا مركزيًّا في الحضارة الغربيَّة مع ازدهار فكرِ حركة الاستنارة، ومع هيمنته شبهِ الكاملة على الفكر الفلسفيّ والأخلاقيّ الغربيّ. ومـن أهم ركائز هذا الفكر في المجال الأخلاقيِّ الفلسـفةُ النَّفعيّة التـي تَنظر للعالم كلِّه ولكافة مجالات الحياة من منظور المَنفعة، ويُمكِنُنا القولُ بأنَّ الغرب قد أدرك تمامًا في عصر الاسـتنارة أنَّ حل المسـألة اليهوديّة يَكمـن في تحويل اليهود إلى مادةٍ بشريّـة نافعة، وهو مصطلح أصبحَ شائعًا عن اليهود في ذلك التَّاريخ.

وقـد تقبَّلَ الصهاينـةُ هذه الأطروحة النَّفعيّـة الماديّة تمامًا، وأدركـوا دورَ أعضاء الجماعات اليهوديّة داخل نفس الإطـار. ففيزيائيًّا تحولَّت الجماعةُ الوظيفيّـة اليهوديّة إلى دولةٍ تُغرس في الشَّرق العربيِّ في العصر الحديث. وأهمُّ وظائف هذه الدولة الصّهيونيّة على الإطلاق هي الوظيفة القتاليَّـة، أي أنَّها وظيفةٌ مملوكيّـةٌ (من المماليك) بالدَّرجة الأولى. فعائدُ هـذه الدَّولة الوظيفيّة الأساسُ عائدٌ استراتيجيٌّ، والسِّلعةُ التي تُنتجها هي القتالُ نظير الدَّعم الماديّ.

الفصل الخامس: الصّهيونيّة بين الجذور الغربيَّة والدِّيباجات اليهودية

يُشـير الكاتبُ ابتداءً إلى أنَّ الصّهيونيّة حركةٌ لا دينية، ولكنَّها شـأنُها شأنُ حركات مُماثلة في الغرب كان لا بدَّ أن تُجنِّدَ الجماهيرَ من خلال ديباجات تَفهمُها، ولذا قامَت الصّهيونيّةُ بالاستيلاء على اليهوديّة تمامًا، ثمَّ قامَت بعلمنتها من الدّاخل، إلى درجة أنَّ الحركات الدِّينيَّةَ الأرثوذوكسيةَ التي قامت في الأساس لمحاربة الصّهيونيّة انتهى بها الأمرُ إلى أن تبنَّت الصّهيونيّةَ إطارًا مرجعيًّا.

ويُرجِع الكاتبُ السـببَ الأسـاسيَّ، الذي أدَّى إلى نجاح الصّهيونيّة في تحقيق أهدافها، إلى تصاعد معدَّلات الحلوليّـة داخل اليهودية. وتَدور الرُّؤيةُ الحلولية الكُمونية حول ثلاثة عناصر؛ الإله، الإنسان، الطَّبيعة. وقد نجمَ عن حلول الإله في كلٍّ من الشَّعب والأرض أنْ أصبحَ الشَّعبُ مُقدَّسًا والأرض -كذلك الأمر- مُقدَّسة.

وقـد توصَّلَ الكاتبُ إلى ما أطلق عليه الصِّيغة الصّهيونيّة الأساسـية الشّـاملة، مُثبتًا أنَّ الرُّؤيةَ الصّهيونيّة للعالَم هي نتاجُ التَّشكيل الحضاريِّ الغربيِّ، وتَنتظمُ الصِّيغةُ في ثلاث نقاط:

أ. اليهودُ شـعبٌ عضويٌّ منبوذٌ غـيرُ نافعٍ يجبُ نقلُه خارجَ أوروبا، ليتحوَّل إلى شـعبٍ عضويٍّ نافع.

ب. يُنقَل هذا الشَّـعبُ إلى أي بقعة خارج أوروبا، حيث استقرَّ الرأيُ في نهاية الأمر على فلسـطين، بسـبب أهميّة موقعها الاسـتراتيجي للحضارة الغربيَّة، وبسـبب مقدرتها التَّعبويّة للمادة البشرية المُستهدَفة.

ج. يتمُّ توظيفُ هذا الشَّـعب لصالح العالم الغربي، الذي سـيَقوم بدعمِه وضمانِ بقائِه واستمراره داخل إطار الدَّولة الوظيفية في فلسطين.

ويَنظر الكاتبُ إلى هذه الصِّيغة الشّـاملة على أنَّها الأسـاسُ الذي يَستند إليه العقدُ الصهيونيُّ الصامت بين الحضارة الغربيَّة والحركة الصّهيونيّة بشأن يهود الغرب.

الفصل السَّادس: الجذور الغربيَّة للاعتذاريات الصّهيونيّة ونظرية الحقوق

يُعرِّف الكاتبُ الاعتذاريات بأنَّها الحججُ التي يَسـوقها المرءُ ليَرفعَ اللَّومَ عن نفسه، وليُبرِّرَ ما يَقوم به من أفعالٍ عدوانيّة، وليُضفي نوعًا من المعنى على فعلتِه. وتتفرَّع نظريةُ الحقوق بحسب الكاتب من هذه الاعتذاريات نفسِـها. وتنطلق الاعتذارياتُ الصّهيونيّة من الافتراض المحوريِّ في الفكـر القوميِّ العضويِّ والعنصريِّ الغـربيّ، الذي يَذهب إلى أنَّ أعضـاء الحضارة الغربيَّة الغازية أكثرُ تفوُّقًا من النَّاحيتَينِ الحضاريّة والعِرقيّة من أعضاء الحضارات المَغزوّة، وأنَّ تخلُّفَ الحضارات الشَّرقيّة أمرٌ وراثيٌّ حتميٌّ.

إنَّ الأسـطورة الإمبرياليّة الغربيَّة لا تُؤكِّدُ نهايةَ التَّاريخ وحسب، وإنَّما نهايةَ الجغرافيا كذلك، فالأرضُ التي يَستوطِنُ فيها الإنسانُ الأبيضُ هي أرضٌ وحسب، ليس لها حدودٌ، وهي تتَّسِعُ كلَّما زادَ عددُ المستوطنين وازدادوا قوةً. وأسطورةُ الاستيطان الصّهيونيّة هي أسطورةُ التوسُّع بالدَّرجة الأولى، فإرتس يسرائيل ليس لها حدودٌ واضحةٌ، وفكرةُ اليهوديِّ الخالص مَثلُها مَثَلُ فكرةِ الرَّجل الأبيض المُتفوِّق، تمَنح اليهودَ حقوقًا مقدَّسةً وخالدةً لا تتأثَّر بأيِّ اعتباراتٍ أو مطالبَ تاريخية. كما أنَّ اليهود، حتى وهم في حالة الشّتات، لهم صِلةٌ مباشرة سماويّةٌ وأبدية، وهي صِلةٌ حلولية عضوية.

الفصل السابع :تيودور هرتزل، الفكر الاستعماري والعباءة اللِّيبرالية

يُقدِّم الكاتبُ في هذا الفصل نموذجًا تفسـيريًّا ليتبيَّنَ للقارئ كيف يُختبر الفكرُ الاستعماريُّ

الغربي وراء الدِّيباجات اللِّيبرالية والاشـتراكيّة واليهودية. حيث سادت في أوروبا أيديولوجيَّتان سياسيَّتان أساسيَّتان هما اللِّيبرالية والاشتراكيّة، وهما أيديولوجيَّتان تقفُ كلٌّ منهما على الطَّرف النَّقيـض من الأخرى، ومع هذا تبنَّى فريقٌ من الصهاينـة الأيديولوجية الاولى، وتبنَّى فريقٌ آخر الأيديولوجيةَ الثانية. ثمَّ يَطرح الكاتبُ السُّؤالَ المُلِحَّ التالي؛ كيف يمُكِنُ لحَمَلةِ رُؤيةٍ واحدةٍ تبنِّي أيديولوجيَّتَين مُتناقضتَين؟ وفي معرض إجابته يُقدِّمُ الكاتبُ التَّفسيرَ التالي:

أ. اللِّيبرالية التي تَبنّاها الصهاينةُ لا تُطبَّقُ إلا على المستوطنين الصَّهاينة، وأما الاشتراكيّة فهي آليّةٌ من آليّات الاسـتيطان الإحلالي، فجُيوش فرنسا كانَت تدكُّ القرى الآمنة في الجزائر، على حين كانت شعاراتُ الحريّة والإخاء والمساواة تُرفرِفُ فوق باريس.

ب. إنَّ بعضَ القِيَم اللِّيبرالية والاشـتراكيّة الإيجابيـة كان الغربُ يَحصر نطاقَ تطبيقها في دُوَله فقط، والدَّولة الصّهيونيّة تنتمي لهذا النَّمط.

ج. كما أنَّ الصّهيونيّة وظَّفَت الدِّينَ اليَهوديَّ في أن تُسـبِغَ على نفسـها قدرًا من الشَّرعية، فإنَّها كذلك قد وظَّفت الأيديولوجيات السياسـيّة لتُسبِغَ على نفسها قدرًا من الشَّرعيّة السِّياسيّة.

د. اللِّيبراليـة والاشـتراكيّة وغيرُها مـن الأيديولوجيـات والرُّؤى هي مجـرَّدُ زخارفَ أو ديباجـاتٍ يتمُّ لَيُّ عُنقِها لتبرير المشروع الصهيوني، ولزيادة مقدرته التَّعبوية. وكان لا بدَّ من تنويع الأيديولوجيَّات والدِّيباجات، على أنْ يَبقى الجوهرُ أو الإجماعُ الصهيوني كما هو.

الفصل الثَّامن: الصّهيونيّة الاشتراكيّة

يُفنِّـدُ الكاتبُ في هذا الفصل ادِّعاءَ الفكر الاشـتراكيِّ عند بعض النُّخب الصّهيونيّة، وأهمُّهم (مـوسى هـس - Moses Hess)، و(أهـارون غـوردون - Aaron David Gordon)، و(نحمن سيركين - Nachman Syrkin)، و(دوف بير بورخوف - Dov Ber Borochov). ويُؤكِّد أنَّ الفكرَ الاشـتراكيَّ الصهيونيَّ يَختلف بشكلٍ جوهريٍّ عن الفكر الاشتراكيِّ العالميّ، فهو فكرٌ قد فُـرِّغ من مضمونه الإنسانيِّ، ومن أيِّ حديث عن العدالة والمساواة، ويَظهر هذا في كتابات الصَّهاينة الاشـتراكيين في محاولتهم تفسـيرَ ما يُسمَّى التَّاريخَ اليهوديَّ والمسـألة اليهودية، فيَصِلونَ إلى

نتائج اســتعمارية تمَّ تحديدُها مُسبقًا. كما أنَّهم جميعًا يَنطلقونَ من الصِّيغة الاشتراكيّة الأساس، ثمَّ يُضيفون إليها ديباجاتٍ اشتراكية نابعةً من خصوصية وضع اليهود في الحضارة الغربيَّة.

كما يُصنِّفُ الكاتبُ كتاباتِ الفلاسفة الصَّهاينة الاشتراكيِّين بأنَّها تَنتمي إلى مدرسة الإمبرياليِّين الاشــتراكيين، الذيــن يُنادونَ بتأييد المــشروع الإمبريالي الغربيّ، لأنَّهم ســيَقومون بغزو الشَّرق المتُخَلِّف، وسيُدخلون عليه التكنولوجيا الغربيَّة المتُطوِّرة، وهذا سيُؤدِّي إلى ظهور الاشتراكيّة، أي أنَّه منَ هذا المنظور نكتشفُ أنَّ الإمبرياليّة تؤدِّي إلى الاشتراكيّة.

الفصل التَّاسع: (ديفيد بن غوريون)؛ الزَّعيم والرُّؤية

يَعتــبر الكاتبُ أنَّ الرُّؤية الصّهيونيّة للواقع بكلِّ تناقضاتها تجسَّــدَت في شــخصٍ واحد، هو (ديفيد بن غوريون - David Ben-Gurion)، الذي لم يُنظِّر للصهيونية وحســب، وإنَّما أســهمَ في تحويل الرُّؤية إلى حقيقةٍ واقعةٍ بكلِّ وحشــيّتِها ودمويَّتِهــا. ويعدِّدُ الكاتبُ أفكارَ بن غوريون في النّقاط التَّالية:

أ. عــداوة (بن غوريون) لدُعاةِ اندماج اليهود مع غيرهم من الشُّــعوب، ويَرى أنَّها دعوةٌ للفشــل وللاعتماد على الآخرين، والعجز عن اتِّخاذ القرار، كما هاجم «الدياســبورا اليهوديّة»، ودَعا جميعَ اليهود للهجرة إلى أرض فلســطين، ليترَقَّوا ويتحرَّروا جســديًّا ومعنويًّا، وأنَّ الحياةَ اليهوديّة الكاملة لن تتحقَّق إلا في دولةٍ يهودية مستقلّة.

ب. الإيمانُ بالعنف، إذ يكتســبُ بُعدًا خاصًّا، ويُصبحُ وســيلةَ بعثٍ حضاريٍّ، ويَرى (بن غوريون) أنَّ الجيشَ الاسرائيليَّ هو خيرُ مُفسِّرٍ ومُعلِّقٍ على التَّوراة، وهذا الجيشُ ليسَت وظيفتُه الدِّفاعَ عن "إسرائيل" وحسب، بل إنَّه البيئةُ التي تُولَد فيها الحضارةُ الإسرائيلية، كما أنَّ بعثَ العُنف بالنِّســبة لـ (بن غوريون) هو بعثٌ للشَّــخصية اليهوديّة الحقيقيّة، والعنفُ هو السَّــبيل الوحيد للتَّخلُّص من المَنفــى الرُّوحي. وقد ترجمَ (بن غوريون) رؤيتَه هذه على أرض الواقع، فهو المســؤولُ عن إنشــاءِ القوّة العســكريّة الصّهيونيّة، وعلى رأســها «الهاغاناه»، وحينما أُنشــئت الدَّولةُ قام بحلِّ كلِّ المنظَّماتِ العسكريَّةِ الصّهيونيّــة، وحوَّلَها جميعًا إلى جيش الدِّفاع الإسرائيــليّ، وتأكيدًا على رؤيتِه لموقع الجيش الإسرائيليِّ مَحلِّيًّا وإقليميًّا وعالميًّا، شــغلَ (بن غوريون) منصبَ وزير الدِّفاع

في جميع الوزارات التي رأسَها، كما أسهمَ في صياغة سياسة «إسرائيل» الخارجية، وتأكيد دورِها كحارسٍ للمصالح الإمبرياليّة.

ج. إيمان (بن غوريون) بالأساطير، لا سيَّما «الماشيحانية»، المتُعلِّقة بظهور المُخلِّص في نهاية التَّاريخ، وشرطُها عودةُ اليهود إلى أرض الميعاد.

د. اشتراكية (بن غوريون)، وهي من نوع الاشتراكيّة الانعزالية التي يَرفض فيها الصهيونيُّ الاندماجَ في عالم الأغيار، ويَبذل قصارى جهدِه للبقاءِ بعيدًا عنهم، والاحتفاظِ بإخلاصِه للمَصير اليهوديِّ الفريد.

الفصل العاشر: الجَيبان الاستيطانيّان في «إسرائيل» وجنوب أفريقيا

في هذا الفصل يَعقد الكاتبُ مقارنةً بين الجَيبَينِ الاستيطانيَّينِ في "إسرائيل" وجنوب أفريقيا، ويَخلص فيها إلى أنَّ «إسرائيل» ليسَت ظاهرةً يهوديّةً، وإنما هي ظاهرةٌ استعماريّةٌ استيطانيّة. وتتمحوَرُ نقاطُ المقارنة حول الطَّبيعة، والموقع الجغرافي، والظُّروف الثَّقافيّة والسِّياسيّة، والوظيفة والدَّور والعِرق، والأساطير الدِّينيَّة، والدِّيباجات المُشتركة، والرُّؤية القوميّة العضويّة...إلخ.

خاتمة

حاول كثيرٌ من الكُتَّاب تشخيصَ مفهومِ اليهوديّة والصّهيونيّة والحضارة الغربيَّة، والعلاقة بينهما، ومَن الذي يتحكَّمُ بالآخر؟ وقد توصَّلُ الكاتبُ إلى خلاصةٍ مفادها أنَّ الحضارةَ الغربيَّة بأفكارها النَّفعيّة والنِّيتشوية والدّاروينية هي التي تستغلُّ الدِّيانة اليهوديّة واليهودَ لخدمة مصالحِها الاستراتيجية، وأدَّى ذلك إلى خلقِ هذا الكائن المسخ للدّيانة اليهوديّة، الذي باتَ يُعرف بالصّهيونيّة. وهو شكلٌ من أشكال الاستعمار استغلَّ جماعةً ليس لها منفعةٌ في الجغرافيا الغربيَّة، فنجحَ الغربُ في حرف المسألة اليهوديّة لتعبئة الفراغِ بعد تفكُّك الدَّولة العثمانية، وتوجيهِ العقيدة اليهودية لخدمة مصالحه الجيوسياسية الثقافيّة والاقتصادية والمالية والعسكرية الغربية (البريطانية ثم الأميركية)، وهذا أدَّى إلى زيادة التّخلُّف والظُّلم وعدم استقرار منطقة غرب آسيا، واحتقان المجتمعات المُسلِمة، وربمَّا يُؤدِّي مستقبلاً إلى أزمة في الحضارة الغربيَّة نفسِها.

Zionism, Western Civilization[1]

■ Reviewed by: Mounir Zuhair Nsouli[2]
■ Ali Malli[3]

Abstract

This book explored the nature of the relationship between Western civilization and Zionism. The author approached this relationship in light of Western philosophy, which is based on utilitarianism based on "Darwinism" and "Nietzscheanism", where survival is for the fittest materially, and there is no place for human, moral and religious values. He highlights how liberalism and the military-industrial society in Western civilization exploited the Jewish cause, in this context and civilizational system. He presented this in ten chapters, where he provided a definition of the concepts of Western philosophy, and highlighted evidence of the nature of the relationship between Western civilization and the Jewish cause. He saw that it was merely an exploitation of an outcast religious group that had no benefit in Western geography. Therefore, the West exploited the legacy of this group for its own interests. The idea of Zionism emerged, which does not match Jewish thought.
Keywords: Judaism, Zionism, Imperialism, Modernity, Enlightenment, Liberalism, Materialist Philosophy, Colonialism, Instrumental Reason, Nietzsche, Fukuyama, Huntington.

Keywords: Humanitarian Borders - Border Establishment - European Union - Humanitarian Security - Migration - Asylum.

1 - The author: Dr. Abdel Wahab El-Messiri

2 - Researcher and political writer - Lebanon.

3 - A seminary student - Lebanon.

Zionism, the West, Holy, Politics[1]

■ Reviewed by: Lina al-Saqr[2]

Abstract

Zionism was linked to Western imperial interests, especially Britain, which supported the establishment of a national homeland for the Jews in Palestine. Zionism exploited international circumstances, most notably the persecution of Jews in Europe, to push Jewish immigration to Palestine, with British support, and worked to establish the state of "Israel" in 1948. This was a cultural and military shock to the Arabs. Then the Zionist project developed slowly through several stages, which the Jews began by establishing settlements in Palestine and providing support to Britain in World War II, while the Arab countries were preoccupied with their internal problems in the various stages of the development of the "New World System". After World War II, the "State of Israel" project was present in the Western geostrategic imagination, and the conditions became ripe for the completion of this project, which began at an early stage, and received the necessary support, and all the components and foundations were achieved. This book is an attempt to answer the questions related to explaining the motives for the twinning and adhesion between Western civilization and the Zionist project in occupied Palestine.

Keywords:

Palestine, Arab-Israeli Conflict, New World System, Promised Land, Christian Zionism, Zionism.

1 - The author: Dr. Abdul Karim Al-Hussaini

2 - Syrian translator, researcher.

Non-Jewish Zionism[1]

■ Reviewed by: Nabil Ali Saleh[2]

Abstract

Undoubtedly, there is ignorance about the historical circumstances that paved the way for the rise of the Zionist movement about three centuries ago, before it was empowered and established as a political movement supported by the West by its founder "Theodor Herzl". This is in understanding the nature of this movement and the damage it caused to the Palestinian cause, which undermined its efforts to prove its right and defend it. This requires historically re-shedding light on the origin of the Zionist project, and requires going back historically to search for the beginnings of its emergence. Hence, the West embraced it intellectually and politically, and even embraced the Zionist (biblical) ideas and concepts, especially that which relates to the fact that the Jews are civilized and advanced, and their race is pure, and they must be returned to their homeland, Palestine, to establish their state and their Jewish political entity there..! Without this complete Western imperialist support and endorsement of the ideas, plans and projects of Zionism, which are derived from the concepts of the Old Testament, their plans to establish a state on the occupied land of Palestine would not have succeeded.

Keywords:

Zionism - Judaism - Palestine - Western culture - The Torah.

1 - The author: Regina Al Sharif.

1 - Syrian writer and researcher.

Relativistic Tendency in Values, its Role in Western Colonial Mind Stance towards "The Other"

■ Dr. Musa Ma'irish[1]

Abstract

The research seeks to reveal the relationship between: first, the relativist tendency in determining the nature of values - since its emergence at the hands of the sophists, by adopting the saying that man is the standard of everything, and second, the manner in which these people based their philosophy in general, and their vision of the world and the value and political issue in particular. We reach the contemporary Western vision, which in its political relationship starts from this vision, which many thinkers and politicians have criticized, believing that the West practices duality in its dealings with the other. They also believe that this vision, toward the other, is based on a contradiction in his perceptions and starting points, without neglecting some of the medieval and modern Western philosophers' stances , and their attempts to reconcile the imported Eastern Christianity- who has the new values- and the nature rooted in the Western mind, even if it contradicts its great ancient philosophers, such as: Socrates, Plato and others. Hence, this paper attempts to provide an explanation for this tendency, and seeks to understand its political and moral implications, as well as to provide a critical reading of it and its applications.

Keywords:

Relativism - The West - The Vision - The Duality - The Values - The world.

1 - Professor at Abbas Laghrour University - Algeria.

Cognitive Tour of Foundations of Moderation in Islam Based on Holy Qur'an, Hadith[1]

■ Prof. Mahdi Rostam Nejad[3] ■ Prof. Mohammad Shabdini Pashaqi[2]
■ Translated by: Sheikh Mahmoud Ammar[5] ■ Prof. Ali Karimi Khoshhal[4]

Abstract

The Islamic life system pays special attention to the concept of moderation and human justice. Justice in the rich Islamic culture means putting everything in its place, where this place is determined based on capabilities and merits. By paying attention to the fact that the clear Islamic religion originates from an eternal divine source, it is not limited in the field of work to a practical law and orders for how to apply moderation. Rather, it has a tendency to clarify the intellectual and theoretical foundations and bases of moderation as well. It deals with resources such as moderation in the system of existence, the wisdom and justice of the Creator of existence, and the moderation of the legislative laws of religion. Among the matters that have been of serious interest in Islam is the issue of government and Muslim rulers, and the formation of government in Islam, in order to implement justice in society. Achieving moderation is one of the most important terms for an Islamic ruler in Islam.

Keywords:

Qur'an - Moderation - Governance - Ontology - Epistemology - Anthropology - Sociology.

---

1 - Translated article from: "The foundations of moderation in Islamic governance based on the teachings of the Quran and Hadith", Quranic Thought Institute, First Year, First Issue, spring and summer 1394 AH

2 - Assistant Professor at Imam Al-Sadiq (AS) Institute for Islamic Sciences Research

3 - Assistant Professor at Al-Mustafa International University..

4 - Master of Jurisprudence at Imam Al-Sadiq (AS) Institute for Islamic Sciences Research. (Responsible Author). Submission Date: 11/22/2014; Acceptance Date: 4/19/2015.1 - Tunis El Manar University - Tunisia.

5 - Licensed in Arabic, Licensed in Persian, Student in the external research stage in the seminary, teacher in the religious seminary.

Zionism Masked by "Political Realism" in Arab Media Discourse

"Al-Aqsa Flood", Model of War

■ Dr. Asmaa Abdel Aziz[1]

Abstract

This research revolves around building a cognitive vision that explores the manifestations of "political realism" as a dense presence in the contemporary imperialist conflict against the countries of the "Global South" in general, and the West Asia region (the Middle East) in particular. The war on Gaza or southern Lebanon was just one phase in an extended war that each time carried a colonial ideology, with the aim of establishing a Western empire, draining resources, or controlling the capabilities of the peoples of the region. In this illogical war, and in light of international and institutional failure and moral and human collapse, major philosophical statements related to political science are evident. "Political realism" occupies the forefront of these statements, to create an alternative vision that justifies the killings and destruction that local and international media outlets have circulated in different ways. This vision monitors the foundations and features of the contemporary Western colonial project on both the theoretical and practical levels, in order to reveal the mechanisms of manipulation in discourse and practice alike. Arab and Western media institutions play a role in localizing the philosophy of "political realism" as an ideological framework. This role frames a new cognitive vision that the logic of power is sufficient to manage international relations. We also shed light on its applications in the Arab media and cultural narrative, and some Western narratives in speeches and orientations that support Zionist goals.

Keywords:

"Political Realism" - Al-Aqsa Flood - Masked Zionism - New Realism - Western Media - Arab Media - Arab Elites.

1 - Researcher and translator in the humanities, holds a PhD in Literature from Sohag University, Egypt.

Instrumental Reason:From Moral Inferiority to Zionist Terrorism, Lie of Racial Superiority

■ Dr. Mahmoud Kishana[1]

Abstract

This research attempts to clarify what is meant by the instrumental reason, showing its negative impact in spreading immorality and its dangerous role in Zionist terrorism, and its relationship to the issue of racial superiority. It also shows the impact of Western materialist philosophy in shaping and directing it in this way, comparing its essence in this philosophy with its existence in the Jewish Zionist mentality. The instrumental mind in materialistic philosophy is the instrumental mind from which the Jewish mentality has been based since its inception. The concern is with the means by which the goal is achieved, regardless of whether this goal is consistent with human principles and human conscience. Hence, the research attributes immorality, terrorism and the claim of racial superiority in the Western perspective and the Jewish Zionist perspective to this reason.

Keywords:

Immorality - Judaism - Racial Superiority - Western Materialism..

1 - PhD in Philosophy, Cairo University

Western Duality in Human Rights Theory, Identification with Zionist Policy

■ Dr. Rahman Abdul Hussein Thaher[1]

Abstract

Despite the historical depth of the status of human rights in international custom and international laws, and despite the attempt to present it as the axis of the universe in the global and Western perspective, and that the standards set by the Universal Declaration of Human Rights require the international system to defend those rights with all its strength, however, all this importance of human rights remained confined to theory, and was only put into practice in a very limited way. The great difference between the claim and the truth in the application of human rights in recent centuries has become clear. Rather, it is very clear that the major countries care for their interests more than they preserve human rights. An example of this is the execution and dismemberment of the Saudi (Jamal Khashoggi) in the Saudi embassy in Turkey, while he holds American citizenship. The Americans turned a blind eye on the condition that the Saudi Crown Prince pledged allegiance to the United States of America and paid large sums of money to the Americans. Thus, the defense of human rights is lost among Western interests that prevail over principles, the distinction between Western and Eastern humans, and Muslims and Christians. This was evident in the Serbian war on Bosnia, where the UN forces allowed the Serbs to kill Muslims without remorse.

Keywords:

Human Rights - Western Civilization - International Institutions - Globalization.

1 - Professor of Political Analysis at the College of Political Scie nce, Al-Mustansiriya University - Iraq

Zionist Doctrine of Genocide: Between Roots of Thought, Reflections of Application in Gaza, Lebanon

■ Prof. Anwar Mahmoud Zanati[1]

Abstract

This research is the conclusion of a two-dimensional research process on the issue of genocide practiced by the Zionists, which we hear a lot about in intellectual and political forums. We sought, through the intellectual research process on the original religious texts of Jewish Zionist thought, to clarify the roots of this inhuman behavior. Then we explained the implementation mechanisms that the Zionists have adopted in their alleged state since before the announcement of its establishment until today, where a war of extermination is taking place against the peoples of Palestine and Lebanon. A quick search in religious Zionist thought, and among the early founders of the alleged entity, clearly indicates the nature of the religious purging war that it is waging. This war does not only reflect political or expansionist ambitions, but is based on a purging genocide. Therefore, the current events cannot be analyzed from the perspective of political pragmatism alone.

Keywords:

Genocide - Ethnic Purging - Zionism - Gaza War - Lebanon War.

1 - Egyptian writer and academic, Professor of History and Civilization at Ain Shams University - Egypt

Biblical, Talmudic Roots of "The Other" problem in Zionist Thought

■ Dr. Mohammad Mahmoud Mortada [1]

Abstract

The Zionism has reinforced its negative, hostile view of the other, the different- whether Arab or non-Arab - by focusing on closed religious identity aspects, which refuse to consider the other on the same human level, but rather consider the other a mere servant and follower, who has no will under the total dominance of the thought, mentality and identity of the "chosen people of Allah".

In this research, we try to discuss the structure of Zionist thought, to reveal its historical religious roots, by shedding light on its intellectual and ideological sources in the Old Testament and the Jewish Talmud, and analyzing the biblical and Talmudic texts that contributed to shape and formulate modern Zionist awareness towards the different other. The research focuses on how Jewish religious narratives were used to build Zionist ideology, especially those related to the concepts of "the chosen people", "the promised land", and the relationship with the other. It also discusses the Talmudic influence in shaping the Zionist perspective on international relations and political conflicts.

The research shows, through a critical study, how religious texts were interpreted to serve a racist colonial political project supported by the West, which led to the production of an exclusionary discourse towards non-Jews, especially Arabs and Palestinians.

Keywords:

Torah - Talmud - The Other - Promised Land - Zionism - Chosen People.

1 - Professor of Western Philosophy at Al-Maaref University - Lebanon. Director of the "Baratha" Center for Studies and Research - Beirut. Editor-in-Chief of "Oumam" Magazine for Human and Social Studies.

List of sources, references:

- The Old Testament.
- Edward Saeed, Orientalism, translated by Kamal Abu Deeb, Dar Roya, second edition, Cairo, 2014.
- Isaac Ginsberg, Law and Politics, Jewish Publishing House, first edition, Jerusalem, 2003.
- Benjamin Netanyahu, A Place Under the Sun, translated by Eli Ben-Gurion, Jewish Publishing House, Jerusalem, 2015.
- Babylonian Talmud, Sanhedrin 37a; The Babylonian Talmud, translated by Youssef Nasrallah, Dar Al-Hikma, first edition, Cairo, 2018.
- Theodor Herzl, The Jewish State, translated by Mohammad Mustafa, Dar Al-Fikr, third edition, Beirut, 2010.
- David Ben-Gurion, Ben-Gurion's Memoirs, translated by Mahmoud Abbas, Dar Al-Hilal, second edition, Cairo, 1998.
- Moshe Wegner, "Israel" and the Torah, Dar Al-Fikr Al-Ibrahi, first edition, "Tel Aviv", 2005.
- Noam Chomsky, The United States and "Israel": Alliance of Interests, Dar Al-Tanweer, second edition, Beirut, 2012.
- Henry Kissinger, Kissinger's Memoirs, translated by Mahmoud Salah, Dar Al-Hilal, Cairo, 2005.
- Winston Churchill, Speech in the British House of Commons, 1921.

of its project in the long term, including:

1. Failure to achieve demographic superiority: Despite the policies of displacement and racial discrimination, the Palestinians still constitute a large percentage of the population in historical Palestine, which makes the Zionist project face a long-term existential crisis.
2. The escalation of Palestinian resistance: Palestinians, from Gaza to the West Bank, have proven that resistance is not only military, but also political, cultural and economic resistance, making the occupation more costly for Israel.
3. Changing international stance: Despite Western support, there is increasing international recognition that "Israel" is an apartheid regime. Organizations, such as Human Rights Watch and Amnesty International, have also issued reports condemning "Israeli" policies as "apartheid."
4. The internal crisis in "Israel": "Israel" suffers from deep political divisions. Disagreements between secularists and religious people, between settlers and the army, and between right and left have escalated, which may lead to the weakness of the internal stability.

It is clear that these Western governments are pro-Zionists, not because they are silent about the crimes of Zionism, but also in their absolute support for it. This stance represents the ultimate moral downfall in front of governments waging wars, and exterminating peoples under the pretext of spreading democracy and defending human rights.

However, the Western stance that identifies with Zionism is not strange due to the cultural commonality between them. Nevertheless, what is strange is the position of some Arab regimes, which went towards normalization, not cheaply but free. Some of them have reached the point of providing support to the rogue entity, while other regimes have remained silent, and even refused to condemn the crimes of this entity in Gaza and Lebanon, despite their knowledge that the silence in the face of truth is a form of complicity.

However, this fifth issue of "Oumam" magazine came to shed light on this Zionism, dismantle its discourse, and reveal its structural connection with the Western discourse that is deeply pro-Zionism.

This issue came at a critical time in the history of this nation, when wars of extermination were waged on Gaza and Lebanon, with clear Western rudeness, and disregard for all international laws.

We hope that this issue will be well-received by the readers, we consider that what we have done is the least we can do to support the oppressed and the weak, and the minimum form of striving in clarifying the truth. Our success is nothing but from Allah, Almighty, the Wise.

All praise is due to Allah, both before and after.

Why Zionism Immoral Movement

It is clear that Zionism is not only a colonial movement, but also a racist, colonial system, based on discrimination and ethnic purging. Through its racist legislation, settlement practices, and media hegemony, Israel seeks to impose an inhuman settlement reality that contradicts all moral values and human rights.

Fate of Zionism, Future of Conflict

For more than a century, Zionism has continued to impose its settlement project, relying on Western support, religious justifications, and military force. However, this project was unable to eliminate the Palestinian national identity, which remains entrenched despite the ethnic purging, racial discrimination and ongoing settlement.

The most important question today is: What is the future of the conflict between Zionism and the Arab and Islamic worlds? Can the Zionist project continue in the face of resistance, changing international balances of power, and growing global recognition of its racist nature?

Strengths, Weaknesses of Zionist Project

- **Strengths: Why is Zionism still steadfast?**

Despite its racist and colonial nature, Zionism still enjoys factors of strength that contribute to its continuation, including:

1. Absolute Western support: The usurping entity benefits from American and European political, economic and military support, which gives it international protection from accountability for its crimes against the Palestinians.
2. Military and technological superiority: "Israel" has one of the most powerful armies in the region, and controls the latest spying and artificial intelligence technologies, which enhances its security and intelligence power.
3. Media hegemony and global misinformation: "Israel" controls a large part of the international media, through the Zionist lobbies in the West, which enables it to distort the image of the Palestinians and cover up its crimes.
4. The Arab and Islamic division: Israel benefits from the state of political fragmentation, Arab normalization, and the preoccupation of Arab countries with their internal crises, which reduces the political pressure on it.

- **Weaknesses: What could cause the collapse of Zionism?**

However, Zionism faces fundamental challenges that threaten the continuation

importance to the United States and Europe.

Noam Chomsky pointed out that: "Israel is not just a military base for the West, but a laboratory for developing tools of oppression that are exported globally."[1] Thus, "Israel" has become a global center for manufacturing tools of repression and surveillance, as "Israeli" military technology is exported to many oppressive regimes around the world.

Zionism: Part of New World System

Through this analysis, it becomes clear that Zionism is not just a Jewish nationalist movement, but rather part of the global colonial and neoliberal system, as it has benefited from modern Western thought to justify its existence, whether through traditional colonial justifications, or through its alliance with neoliberal economics and military technology. Dismantling the Zionist discourse requires not only exposing the falsity of religious and political narratives, but also understanding how "Israel" aligns itself with a global system that serves the major powers. This makes resisting Zionism not only the responsibility of the Palestinians, but part of the global battle against colonialism and capitalist exploitation.

Zionism, Media Misinformation: How "Israel's" Crimes Concealed

The Zionist media plays a major role in justifying the racist policies of "Israel", by manipulating terms and presenting the occupation as a "conflict" instead of a "settler colonialism". Israel has succeeded in turning concepts upside down and manipulating them, so that the victim has become like the aggressor, and the aggressor is portrayed as the victim.

Pressure on International Institutions to hide Facts

Israel uses Zionist lobbies to pressure international institutions and prevent any serious investigation into its crimes, as follows:

- Foiling UN reports describing Israel as an apartheid regime.
- Preventing Western media from covering the "Israeli" massacres with credibility.
- Criminalizing any criticism of "Israel" by accusing it of anti-Semitism.
- The worst scandal was the clear Western opposition to the decision of the International Criminal Court that convicted the Zionist Prime Minister (Benjamin Netanyahu), as the arrest warrant against him was rejected, and even the threat of sanctions against the court and those responsible for the conviction decision was made.

1 - Noam Chomsky, The United States and Israel: Alliance of Interests, p. 112.

Palestine, ignoring the existence of Palestinians who had lived there for centuries. As Theodor Herzl, the founder of Zionism, said: "We must drive out the Arabs little by little without them realizing it." [1]

Zionism was consistent with the Western imperial vision, where colonial powers sought to plant a settlement entity that would serve their strategic interests in the region. Winston Churchill expressed this by saying: "The establishment of a national home for the Jews in Palestine will secure for us a reliable ally in the center of the Arab world."[2]

American support for Israel was not only motivated by religious sympathy, but also because Israel is considered a strategic fulcrum of American influence in the Middle East. Henry Kissinger said: "Israel is the unofficial carrier of American aircraft in the region."[3]

Zionism, New Orientalism: Distorting Image of Palestinians

Orientalism was one of the intellectual tools that contributed to distort the image of the Palestinian and the Arab. Western writings presented the Arabs as backward and unable to manage themselves, which made them "unqualified for self-rule". Thus, European and Zionist colonialism justified the occupation of their lands. Edward Said pointed out in his book "Orientalism" that "Zionism reproduced the image of the Arab as backward, and integrated it into its political discourse to justify the occupation."[4]

With the rise of postmodern thought, the image of the Arab changed from "backward" to "terrorist", as Zionism used Western media tools to represent the Palestinian as a global security threat. After the events of September 11, 2001, this trend increased, as the Palestinian cause was linked to Islamic terrorism, which gave the occupying entity an additional justification to suppress the Palestinians under the pretext of "fighting terrorism." Benjamin Netanyahu also said in this context: "Our war against the Palestinians is part of the global war against terrorism."[5]

Zionism and Neoliberalism: Alliance of Interests

As the global economy shifted toward neoliberalism, Israel found its place as a technologically and militarily advanced state, becoming a major partner in military industries and security technology, which made it of great strategic

1 - Theodor Herzl, "The Jewish State", p. 187.

2 - Winston Churchill, Speech in the British House of Commons, 1921.

3 - Henry Kissinger, Kissinger's Memoirs, p. 312.

4 - Edward Said, Orientalism, p. 233.

5 - Benjamin Netanyahu, "Place Under the Sun", p. 98.

Ongoing Aggression on Gaza: "Slow Genocide"

Since Israel's alleged withdrawal from the Gaza Strip in 2005, the Strip has turned into an open prison, as Israel has launched several devastating wars against civilians, including:

- 2008-2009 War: 1,400 Palestinians were martyred, most of them women and children, and during which internationally banned white phosphorus was used.
- 2014 War: 2,200 Palestinians were martyred, and thousands of homes were destroyed, in one of the most brutal "Israeli" attacks.
- 2021 war: Hundreds were martyred, and the infrastructure in Gaza the completely destroyed, under the pretext of "self-defense".
- 2023 war: Most of Gaza was destroyed, as well as all the necessities of life, which led to the martyrdom of tens of thousands of Palestinians, most of them were women and children.

It becomes clear that Zionist violence is not just a defensive reaction, but also a systematic policy based on genocide and ethnic cleansing, according to an extremist religious vision that grants the "Israeli" occupation an alleged "divine" legitimacy. The continuation of these crimes without international accountability reflects Western double standards, and confirms that dismantling Zionist thought is a global necessity, because its existence means the continuation of injustice and destruction in Palestine and the region.

Zionism, Postmodern Western Thought: Alliance of Ideologies

Zionism was not just a settler project backed by military force, but was also the product of a complex intellectual alliance between Western colonialism and modern and postmodern thought. Since its emergence in the late nineteenth century, Zionism has benefited from Western intellectual discourses that justified imperial expansion, racial superiority, and the occupation of indigenous lands. As Western thought evolved towards postmodernism, Zionism continued to reshape its discourse to suit new intellectual and political contexts, which enabled it to gain broad support within Western academic and political realms.

Colonialism, Zionism: Common Roots

Since the Balfour Declaration in 1917, Zionism has been a direct extension of British colonialism in the Middle East, adopting the same justifications used by European colonial empires to justify their control over other peoples. European colonialism relied on the idea of the "Mission Civilisatrice", which claimed that non-European peoples were uncivilized and needed European guidance. By the same logic, Zionism used the idea of "reviving the land of Israel" to justify the occupation of

rabbis have also emphasized this idea, such as Rabbi Moshe Wegener, who said: "Every Palestinian in the land of Israel is an alien, who must be expelled, and if he resists, he should be killed."[1]

Foundational Myth of Zionism between Religion, Colonialism

It becomes clear from the analysis that Zionism is not just a political movement, but rather a settlement project based on the deliberate interpretation of religious texts, whereby settlement and killing are presented as "religious commandments" that must be implemented.

Zionism has used the Torah and the Talmud, not only to legitimize the occupation of Palestine, but also to justify systematic violence against them, and sanctify "Israeli" crimes.

The Zionist project has been transformed through rabbinic interpretations into a racist, colonial system that practices racial discrimination and uses religion as a weapon to justify genocide. Dismantling this founding myth of Zionism requires not only exposing the falsity of religious justifications, but also emphasizing that the Palestinian cause is not merely a religious conflict, but rather a struggle against a colonial project supported by a racist religious ideology.

Zionist Massacres: Violence as Means to achieve Political Goals

The Nakba, 1948, represented the largest ethnic purging operation in the twentieth century. Armed Zionist gangs such as the Haganah, Stern, and Irgun forcibly displaced more than 750,000 Palestinians, destroyed more than 500 villages, and committed mass massacres against the indigenous population. After the Nakba, Israel continued its policy of permanent war as a means of expanding its geographical control and consolidating its presence, launching several aggressive wars, the most prominent of which were:

- 1956 War "Tripartite Aggression": Israel allied with Britain and France to attack Egypt and control the Suez Canal, which revealed its role as a Western colonial tool in the region.
- 1967 War (Naksa): Israel occupied the West Bank, Gaza Strip, Sinai and the Golan Heights, and committed massacres against the Palestinians, such as "Lod" massacre, in which more than 500 Palestinians were killed.
- The "Israeli" invasion of Lebanon (1982): Where "Israel" supported the Sabra and Shatila massacre, in which more than 3,000 Palestinian refugees were killed, with funding and direct supervision from the then Israeli Minister of Defense (Ariel Sharon).

1 - Moshe Wegener, "Israel" and the Bible, p. 187.

Jewish and international public opinion that the occupation of Palestine was the implementation of divine will, and not merely a colonial operation supported by Western powers. In this context, this study aims at analyze how Zionism employs Jewish religious texts, and distorts them to serve its political project, and sheds light on the rabbinic interpretations that legitimize killing, settlement, and forced expulsion.

Zionist Use of Biblical Texts

The Torah is the primary source that Zionism relied on to justify the occupation of Palestine, as it focused on texts that reinforce the idea that the land is reserved for the Jews alone. The Book of Genesis states: "To your descendants I give this land."[1] This text was used in the Zionist discourse to emphasize that Palestine is not an Arab land, but rather a "divine gift" to the Jews. Therefore, any Palestinian presence in it is considered illegitimate. David Ben-Gurion said: "We derive our rights to this land from the Torah, for God gave it to our fathers."[2]

Religious Justification for Violence, Ethnic Purging

Zionism used biblical texts, along with the idea of the "promise of the land," which calls for the extermination of other peoples, to justify massacres against the Palestinians. The Book of Joshua states: "Leave no soul alive, but exterminate all that is in the city, men and women, children and old, and even the cattle, with the sword."[3] These texts were reinterpreted in Zionist thought as permanent divine commands, making violence against Palestinians not only acceptable, but also a religious duty. Rabbi Yitzhak Ginsburg confirming that by saying: "Killing non-Jews is not a crime, but rather an implementation of Allah's commandments to protect the Holy Land."[4] On the other hand, the Torah was used as a basis to justify settlement, the Talmud played a major role in giving religious legitimacy to the treatment of Palestinians as "others" who must be subjugated or expelled. The Babylonian Talmud states: "You are called humankind, while the other nations are nothing but beasts."[5] This perception was adopted within Zionist thought, which led to the enactment of "Israeli" laws that treat Palestinians as second-class citizens, depriving them of their basic rights. Many

1 - Genesis, 12:7.

2 - David Ben-Gurion, Ben-Gurion's Memoirs, p. 112.

3 - Joshua 6:21.

4 - Isaac Ginsberg, Law and Politics, p. 98.

5 - Babylonian Talmud, Sanhedrin 37a, vol. 2, p. 56.

These lies were not just political propaganda, but were produced culturally and intellectually within Western and Zionist thought spheres, which allowed "Israel" to obtain unconditional support from the major powers, and to continue its aggressive practices without international accountability.

Zionism in its Colonial Context

When examining the historical context of Zionism, we find that it is not a Jewish movement as much as it is a Western colonial project, whose place is Palestine to serve European and American interests. Britain, France and the United States supported Zionism not out of love for the Jews, but because it was a means to tighten control over the Middle East and divide it in a way that served Western interests.

Zionism is nothing but a new model of colonial substitution that we have witnessed in:

- United States: Extermination of the indigenous population, and replacement with European settlers.
- South Africa: Setting an apartheid system that granted absolute rights to European settlers, and deprived the indigenous population of them.
- Algeria under French colonialism: An attempt to obliterate the national identity of the indigenous population and replace them with French settlers.

Zionism is not an exception to these colonial projects, but rather an extension of them in the modern era, which explains the continued Western support for it, despite its clear violations of international laws.

Dismantling the Zionist Discourse

Dismantling Zionist myths is not just an intellectual or academic issue, but also a political and moral necessity to confront the "Israeli" occupation and end the suffering of the Palestinians. Previous experiences have proven that no racist or colonial system can last forever, starting with the fall of apartheid in South Africa, and ending with the end of French colonialism in Algeria.

Zionism, its Biblical, Talmudic Roots: Foundational Myth

Zionism has always tried to present itself as a modern nationalist movement that aims at "return the Jewish people to their historical land". However, this claim is based on biased religious interpretations of biblical and Talmudic texts. Since its emergence, Zionism has re-read the Torah and the Talmud in a selective manner, based on concepts such as the "chosen people" and the "promised land," to justify settlement and the displacement of Palestinians, and to give a sacred character to its colonial project. These texts constituted the founding myth of Zionism, as they were used not only to give religious legitimacy to the settlement project, but also to convince

First talk
Rogue Entity, Pro-Zionist West, Mute Devil

Editor in chief:
- **Dr. Mohammad Mahmoud Mortada**

Since its inception, Zionism has been one of the most controversial colonial projects in modern times. It relied on a set of religious myths, and national colonial ideologies to justify its control over Palestine.

Despite its continuous attempts to present itself as a national liberation movement for Jews, however, its reality reveals that it is a settler movement based on displacing the indigenous population and replacing them with settlers, just as colonial powers did in the nineteenth and twentieth centuries. Today, as global awareness of the "Israeli" occupation crimes grows, it has become necessary to re-examine the ideological roots of Zionism, and understand how Jewish religious texts were distorted to legitimize a racist colonial project. Analyzing the relationship between Zionism and contemporary Western thought also helps reveal the political and intellectual alliances that supported this project at the expense of Palestinian rights.

Zionism between Myths, Reality

Zionist propaganda has always tried to establish several false concepts about its project, the most prominent of which were:

- "Israel is a small, threatened state," while it is a regional nuclear power supported by the West.
- "Israel is seen as the democratic exception in the Middle East," while in reality it is an apartheid regime, which practices racial discrimination against Palestinians and Arabs.
- "Israel was created as a result of the Holocaust," even though the Zionist project existed long before the Holocaust, and was part of the European colonization of Palestine.

Studies and Research

23 **Relativistic Tendency in Values, its Role in Western Colonial Mind Stance towards "The Other"** ■ Dr. Musa Ma'irish

Reading in a book

24 **Non-Jewish Zionism** ■ Reviewed by: Nabil Ali Saleh

25 **Zionism, the West, Holy, Politics** ■ Reviewed by: Lina al-Saqr

26 **Zionism, Western Civilization** ■ Reviewed by: Mounir Zuhair Nsouli

■ Ali Malli

index

Rogue Entity, Pro-Zionist West, Mute Devil 7 — Editor in chief

Focus

Biblical, Talmudic Roots of "The Other" problem in Zionist Thought 17 — Dr. Mohammad Mahmoud Mortada

Zionist Doctrine of Genocide: Between Roots of Thought, Reflections of Application in Gaza, Lebanon 18 — Prof. Anwar Mahmoud Zanati

Western Duality in Human Rights Theory, Identification with Zionist Policy 19 — Dr. Rahman Abdul Hussein Thaher

Instrumental Reason:From Moral Inferiority to Zionist Terrorism, Lie of Racial Superiority 20 — Dr. Mahmoud Kishana

Zionism Masked by "Political Realism" in Arab Media Discourse 21 — Dr. Asmaa Abdel Aziz

Rooting

Cognitive Tour of Foundations of Moderation in Islam Based on Holy Qur'an, Hadith 22 — Prof. Mahdi Rostam Nejad, Prof. Mohammad Shabdini Pashaqi, Prof. Ali Karimi Khoshhal, Translated by: Sheikh Mahmoud Ammar

At Upcoming issue

Racism:
Prominent Legacy in Western Identity

Magazine Message:

Confronting the intellectual challenges imposed by the West and others on our Arab and Islamic societies, through:

- Refuting these issues in a scientific and systematic academic manner, highlighting their consequences and shortcomings, and criticizing their origins and contexts.
- Revealing the political, economic and colonial backgrounds behind the attempt to dominate culturally on our societies.
- Providing scientific statistics from the inside of Western societies, which monitor the destructive consequences of these cultures on societies.
- Providing authentic and alternative visions on these issues from a universal humanitarian perspective, that is consistent with the requirements of human nature and the universal, metaphysical vision of humanity.

Scientific Board:

- Prof. Hafez Abdel Rahim: (Political and Economic Sociology – University of Gabes - Tunisia).
- Prof. Hasan Bashir: (Sociology of International and Cultural Communication – Imam Al-Sadiq University – Iran).
- Prof. Ben Sharqi Ben Meziane: (Philosophy – University of Oran (2) – Algeria).
- Prof. Haider Hassan Al-Yaqoubi: (Educational Psychology – University of Kufa – Iraq).
- Prof. Khanjar Hamieh. (Contemporary Western Philosophy - Lebanese University - Lebanon).
- Prof. Talib Imran: (Differential implications and astronomy – Damascus University – Syria).
- Prof. Aqeel Sadiq: (Philosophy – University of Basra – Iraq).
- Prof. Mohsen Saleh. (Philosophy – Lebanese University – Lebanon).
- Prof. Mohammad Shaalan Al-Tayyar: (Archeology – Damascus University – Syria).
- Prof. Muammar Al-Hawarneh. (Psychology – Damascus University – Faculty of Education – Syria).
- Prof. Yasser Mustafa Abdel Wahab: (Medieval History – Kafr El Sheikh University – Egypt).
- Prof. Youssef Tabaja: (Sociology – Lebanese University – Lebanon).

Editorial Board:

- Prof. Hana Al-Jazar: (Philosophy – Damascus University – Syria).
- Prof. Saad Ali Zayer: (Philosophy of Education and Curricula of Arabic language – Iraq).
- Prof. Adel Al-Wachani: (Sociology of Culture and Communication – University of Gabes – Tunisia).
- Assoc. Prof. Neama Hasan Bakr: (Modern and Contemporary History – Ain Shams University – Egypt).
- Dr. Ali Haj Hasan: (Islamic Philosophy – Lebanon).
- Sheikh Dr. Mohammad Nimr: (Educational Curricula – Lebanon).

General Supervisor:
Al-sheikh Jalal al-Din Ali Al-Sagheer

Editor in chief:
Dr. Mohammad Mortada

Managing Editor:
Al-sheikh Dr. Mohammad BG Kojok

Managing Director:
Ms. Aya Baydoun

Technical Director:
Mr. Khaled Mimari

Proofreading:
Dr. Mahmoud Al-Hasan

Translator:
Mrs. Lina al-Saqer
Sheikh Mahmoud Ammar

Oumam magazine, for Human and Social studies, is a quarterly scientific periodical, issued every three months by «Baratha Center for Studies and Research» in Beirut, Lebanon. It is concerned with criticizing Western visions of humanity and society in various fields and contemporary challenges in philosophy, history, sociology, anthropology, and other fields. This is on one hand, and on the other hand , rooting them from a rational standpoint, that is consistent with the requirements of human nature, and with the genuine metaphysical cosmic vision of humanity.

Zionism
versus Humanity

2nd year - Issue (5): Fall 2024 AD - 1446 AH

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

Oumam
For human and social studies

A quarterly journal concerned with criticizing Western visions of humanity and society

www.barathacenter.com
www.oumam.barathacenter.com
Oumam.magazine@gmail.com

issued by:

Baratha Center for Studies and Research
Beirut- Baghdad

المشاركون الكتّاب

د. محمّد مرتضى
لبنان

أ.د. أنور محمود زناتي
مصر

د. رحمن عبد الحسين ظاهر
العراق

د. محمود كيشانه
مصر

د. أسماء عبد العزيز
مصر

د. موسى معيرش
سوريا

أ. م. د. محمد شبديني باشاكي
إيران

أ. م. د. مهدي رستم نجادكله
إيران

أ. علي كريمي خوشحال
إيران

نبيل علي صالح
لبنان

منير زهير نصولي
لبنان

علي ملّي
لبنان

لينا السقر
سوريا

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

issued by Baratha Center for Studies and Research